# النثر في العصر الجاهلي

الدكتور هاشم صالح مناع

دار الفكر العربي
بيروت

# النثر في العصر الجاهلي

# النثر في العصر الجاهلي

الدكتور هاشم صالح منّاع



دار الفكر العربي
بيروت

دار الفكر العربي

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
ص.ب : ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان



الطبعة الاولى ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

إلى العم الدكتور مأمون محمود ياسين حفظه الله عربون شكر وامتنان لما أسداه لي من النصيحة بإصدار هذا الكتاب ، وكان معي جنباً إلى جنب يمدّ لي يد العون والمساعدة من ألف الكتاب إلى يائه . . .

فله منّي خالص الشكر وعظيم الامتنان .

د. هاشم صالح منّاع

# مقدمة الكتاب

لم يهتمَّ الباحثون منذ القديم بالنثر مثل اهتمامهم بالشعر؛ من حيث روايتُه وتوثيقُه وتحليله ونقده، مع أنه مادة خصبة تستحق الوقوف عليها، وهي جديرة بأن تحظى بدراسات متمعنة متفحصة.

والنثر هو الوجهُ المشرق في كلِّ عصر من العصور، والواجهةُ الصافية المضيئة، والمرآة اللامعة؛ التي تعكس الجوانب الإيجابية في جميع مناحي الحياة، بخلاف الشعر؛ الذي نجد فيه الغَثَّ والثمين في تناوله للموضوعات، ومعالجته للأغراض، ونظرته إلى المجتمع في شتى الميادين.

والنثر ـ بحقّ ـ يمثّل حياة الإنسان العربي في العصر الجاهلي، وأصالته العربية؛ التي تقوم على: مكارم الأخلاق، والعفّة، وحسن الجوار، والتواضع، والكرم، وإغاثة الملهوف، ومناصرة الضعيف، والتجمل بالصبر، وصلة الرَّحِم، والحفاظ على الروابط الأسرية، واحترام الحياة الزوجية، إلى آخر ما هنالك من الأخلاق التي تعتزّ بها الأمم، وترتكز عليها حضارة الشعوب.

لقد حرصت الخطابة مثلاً على إظهار القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، والسير الشريفة، وتوجيه الأمة إلى الكمال، والحياة إلى الأفضل، من خلال النصوص التي تعتبر دليلاً شامخاً على نبل هذه الأمة، وبرهاناً ساطعاً على سلوكها، وشعلة منيرة أضاءت للأجيال مسالكهم.

ولما كانت المكتبة العربية تفتقر للبحوث التي تقوم على دراسة النصوص النثرية وتحليلها، فقد قمت بجمع ما ألقيته من محاضرات على طلاب وطالبات كلية

الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، وتنسيقه، وترتيبه، وتوثيقه، وتبويبه، حتّى خرج البحث بالشكل الذي أرجو فيه أن يملأ فراغاً في المكتبة، ويشبع نهمة الباحثين، ويسدّ حاجة الدارسين لهذا الفن العربي الأصيل.

وقد جاءت هذه الدراسة في: تمهيد وستة فصول، تفاوتت من حيث الطول والقصر؛ لطبيعة الموضوع، وحاجة البحث، وقد تناولتُ في **التمهيد** معنى كلمة الجاهلية لغة واصطلاحاً، ثم وقفتُ عند تحديد فترة العصر الجاهلي الزمنية.

وجاء الفصل الأول بعنوان: **«الأدب وأقسامه»** حيث وضّحتُ فيه تعريف الأدب، وتطوّر هذه اللفظة عبر العصور، ثم تناولت قسمي الأدب: الشعر والنثر، وتعريفهما، والفرق بينهما: وأيهما أَسْبق، وأقوال المؤرخين والعلماء في ذلك، وتوقفت عند الأدب والدراسة الأدبية.

أما الفصل الثاني فكان بعنوان: **«الخطابة»**، تحدثت فيه عن موضوعات الخطب، والآراء التي دارت حولها، وصفات الخطيب، وعرَّفتُ بأشهر الخطباء، ثم بدأت بالدراسة التحليلية لبعض النصوص المتعلقة بالموضوعات التالية: المنافرات، والحض على القتال، وإصلاح ذات البين، والمناسبات الاجتماعية، والمحافل والوفود، والإرشاد والتوجيه، وسجع الكهان، ثم أتبعتُ هذه الموضوعات بتعليق عام عليها، وأردفتُ هذا التعليق، بخصائص الخطابة في العصر الجاهلي.

وكان الفصل الثالث بعنوان: **«الوصايا»** ضمّ أربع وصايا، وعنيت بتحليلها، ودراستها، والتعليق عليها، وبيان بعض خصائصها.

أما الفصل الرابع فكان بعنوان: **«الرسائل»** ولم يحظ هذا الفصل مثلما حظيت به الفصول الأخرى بالدراسة والتحليل؛ لأسباب سيراها القارىء في مقدمة فصل الرسائل.

وجاء الفصل الخامس بعنوان: **«الحكم والأمثال»** تناولْتُ فيه آراء العلماء في مفهوم كلّ منهما، وأعطيتُ مزيداً من الأمثلة النثرية والشعرية، واختتمته بتعليق ومناقشات حولهما.

وورد الفصل السادس والأخير بعنوان: «**خصائص النثر الجاهلي**» تناولت فيه الخصائص المعنوية واللفظية للنثر الجاهلي، وهذه الخصائص قائمة على استقراء، ودراسة، وتحليل. ثم أتبعت هذا الفصل بقائمة تضمّ المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث.

وإني لآمل أن تسهم هذه الدراسة في إثراء الدراسات النثرية، وأسأل الله عزّ وجلّ أن تكون بداية لمواصلة هذا الطريق الذي رغب عنه كثير من الدارسين.

والحمد الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

**الدكتور هاشم صالح مناع**
الشارقة في رمضان ١٤١٣هـ
مارس ١٩٩٣ م

# تمهيد

## معنى كلمة الجاهلية:

قبل أن نخوض في الحديث عن معنى كلمة «أدب» والأدب الجاهلي، لا بدّ من الوقوف عند لفظة «**الجاهلية**» وتعريفها لغة واصطلاحاً، فلفظة الجاهلية مأخوذة من الجهل، و« **الجهل**» لغة:

١ ـ نقيض العلم. وتجاهل: أرى من نفسه الجهل وليس به، واستجهله: عدّه جاهلاً واستخفّه أيضاً. والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير العلم[١]. وقد ورد هذا المعنى في قول السموءل بن عادياء الغسّاني، المضروب به المثل في الوفاء: (من الطويل)

سَلِي إن جَهِلْتِ ٱلنَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ        فَلَيْسَ سَواءً عَالِمٌ وَجَهُولُ[٢]

أي: إن كنت جاهلة بنا فسلي النّاس تخبري بحالنا، فالعالم والجاهل مختلفان. وورد هذا المعنى في قول عنترة بن شداد في معلقته المشهورة، حيث يقول: (من الكامل)

هَلاَّ سَأَلْتِ الْخَيْلَ يا بنةَ مَالِكٍ        إنْ كنتِ جاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي[٣]

أي: هلا سألت الفرسان عن حالي في قتالي إن كنت جاهلة بها. والمعروف في كلام

---

(١) اللسان (جهل).

(٢) ديوانا عروة بن الورد والسموءل، ص ٩٢. والبيت من شواهد النحو، حيث قدم خبر ليس على اسمها. انظر: شرح ابن عقيل ١: ٢٧٣ (شاهد ٦٥).

(٣) ديوان عنترة، ص ٢٠٧.

العرب جهلت الشيء: إذا لم تعرفه. وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في عدة مواضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... ما كانوا لِيُؤْمِنُوا إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ولكنَّ أكثَرهم يجهلونَ﴾.[1] وقوله تعالى: ﴿قالَ يا نوحُ إنَّهُ ليسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لكَ بِهِ علم إنّي أَعِظُكَ أنْ تكونَ مِنَ الجاهلينَ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿وإذَا جاءَكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتِنَا فقلْ سلامٌ عليكم كتبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكُم سوءاً بجهالةٍ ثمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.[3]

ولا نظن أن هذا المعنى ـ وهو عدم العلم ـ هو المقصود بالجاهلية.

٢ ـ الحميّة والغضب والسَّفَه والطيش، والاضطراب في الحياة بصفة عامة، يقول صاحب اللسان (مادة جهل): «وفي حديث الإفك: ولكن اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّة أي: حَمَلَتْه الأنفة والغضب على الجهل». ونجد أن شاعراً جاهليّاً أشار إلى هذا المعنى، وهو عمرو بن كلثوم في معلقته، يقول: (من الوافر)

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ ٱلْجَاهِلِينَا[4]

أي: لا يسفهن أحد علينا فنسفه فوق سفههم، أي: نجازيهم بسفههم جزاء يربي عليه. وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولىٰ﴾[5] وأشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لأبي ذر، وكان قد عيَّر رجلاً بأمه: «إنَّك امرؤٌ فيك جاهليّة»[6].

---

(١) من الآية رقم ١١١ سورة الأنعام.

(٢) الآية ٤٦ سورة هود.

(٣) الآية ٥٤ سورة الأنعام.

(٤) شرح المعلقات السبع، ص ١٠٩، وقد سمي جزاء الجهل جهلاً لازدواج الكلام وحسن تجانس اللفظ. وهنا نسب الجهل إلى نفسه، وهو يريد الإهلاك والمعاقبة، لتزدوج اللفظتان، فتكون الثانية على مثل لفظ الأولى، وهي تخالفها في المعنى، ونجد حسن تجانس اللفظ في القرآن الكريم، يقول جل ذكره: ﴿إنَّ المنافقين يخادعونَ اللهَ وهو خادعُهُمْ..﴾ (الآية ١٤٢ سورة النساء) أي: أن المنافقين يخادعون الله بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر، وهو خادعهم أي مجازيهم على خداعهم فيفتضحون في الدنيا باطلاع الله نبيه على ما أبطنوه، ويعاقبون في الآخرة.

(٥) من الآية ٣٣ سورة الأحزاب.

(٦) رواه البخاري في صحيحه ١/١٣ (باب الإيمان). وقيل: إن الرجل المذكور هو بلال المؤذن. أنظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١/٧٢.

وتعني كلمة الجاهلية في الإصطلاح، زمن الفترة، ولا إسلام: أي: لفظة تطلق على الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله سبحانه وتعالى؛ ورسوله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكِبْر، والتَّجبُّر[١]، وشرب الخمر، والزنا، والقتل، والسرقة، والحروب، والمنازعات القبلية.. وباختصار فإن لفظة الجاهلية أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام، أو العصر السابق له مباشرة؛ والذي كانت تسيطر عليه الوثنية، والأخلاق التي قوامها الحمية، والأخذ بالثأر، واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات[٢].

## العصر الجاهلي

لقد أجمع معظم مؤرخي الأدب على أن عصر الأدب الجاهلي مرّ بفترة لا تزيد على قرنين من الزّمان قبل الإسلام، وأشار الجاحظ في كتابه «الحيوان» إلى هذه الفترة بقوله: «أما الشعر، فحديثُ الميلاد صغيرُ السِّنِّ، أولُ من نهج سبيلَه وسهَّل الطريقَ إليه: امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[٣]، وهذه إشارة قيّمة؛ لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول، ومن هنا اعتمد في تحديده هذا إلى أقدم ما وصل إلينا من ذلك الأدب، ومع هذا، فإنّ ما وصل إلينا من شعر أو نثر، قليل؛ لأنه وصلنا عن طريق الرواية والمشافهة[٤]. ومن الجدير بالذكر أنه ليس من مهمة هذا البحث أو البحوث الأدبية بصفة عامة تقصي تأريخ العصر الجاهلي بدقّة، وكلّ ما نستطيع قوله هو أن معظم الباحثين قد أجمعوا على أن تحديد العصر الجاهلي - ونقصد بذلك الأدب في هذا العصر - لا يزيد عن الفترة التي ذكرناها آنفاً. ولا يعني هذا أن امرأ القيس هو الذي اخترع نظم الشعر، أو هو الذي قصّد القصائد... فقد سبقه الكثير من الشعراء وكانوا على درجة عالية في

---

(١) لسان العرب (جهل).
(٢) د. شوقي ضيف. العصر الجاهلي، ص ٣٩.
(٣) ١/ ٧٤.
(٤) انظر: د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٨ - ٣٩.

نظمهم، اعترف الشعراء الجاهليون بها، ومنهم: امرؤ القيس الذي يقول: (من الكامل)

عُوجا على الطَّللِ ٱلمُحِيلِ لأنَّنَا    نَبْكي ٱلدِّيارَ كَمَا بَكى ٱبنُ خِذامِ [1]

وهذا عنترة بن شداد يقول: (من الكامل)

هَلْ غَادَرَ ٱلشُّعراءُ مِنْ مُتَردَّمِ    أَمْ هَلْ عَرَفْتَ ٱلدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ [2]

ويورد هذا المعنى أيضاً زهير بن أبي سلمى، إن صحت الرواية: (من الخفيف)

مَا أَرَانَا نَقُولُ إلاَّ مُعَاراً    أوْ مُعَاداً مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُوراً [3]

وبهذا، فإنَّ المعيار أو المقياس، الذي استخدم في تحديد هذه الفترة، هو أقدم النصوص الأدبية، التي وصلت إلينا عن طريق الرّواية.

---

(١) الديوان، ص ١١٤. وقوله: عوجا: أي اعطفا رواحلكما. والطلل المحيل: الذي أتى عليه حول فتغير. ولأننا: بمعنى لعلّنا. وابن خذام: رجل ذكر الديار قبل امرىء القيس وبكى عليها. ويروى: ابن حذام، وابن حمام.

(٢) الديوان، ص ١٨٦. والمعنى الذي يهمنا هو: «هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلاّ وقد سبقوا إليه».

(٣) لم يرد هذا البيت في ديوان زهير، انظر: د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٢٦.

# الفصل الأول

# الأدب وأقسامه

# الأدب وأقسامه

**الأدب لغة:** [1]

تطور معنى لفظة الأدب عبر العصور الأدبية، ويمكننا إيجاز ذلك بما يلي:

١ ـ **العصر الجاهلي**: ورد في هذا العصر اسم الفاعل (آدب) من لفظة (الأدب)، وتعني الداعي إلى الطعام، أو صانع المأدبة، وهو معنى حسي، وهذا واضح في قول طرفة بن العبد: (من الرمل)

نحنُ في المشتاة نَدْعُو الجَفَلَى ... لا ترى الآدبَ فينا ينتقِرْ [2]

٢ ـ **العصر الإسلامي**: لم ترد لفظة الأدب في القرآن الكريم، ولكنها وردت في هذا العصر، بمعنى ذهني بدلاً من المعنى الحسي، وهو المعنى التهذيبي والخلقي، وهذا واضح في قول الرسول ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[3]، وقد ورد هذا المعنى كثيراً في الشعر، من ذلك قول سهم بن حنظلة الغنوي: (من البسيط)

لا يمنعُ الناسُ منِّي ما أردتُ ولا ... أُعطيهِمُ ما أرادوا، حُسْنَ ذَا أَدَبا[4]

---

(١) انظر مزيداً من التفصيل كتابنا: روائع من الأدب العربي، ص ٩ ـ ١٧.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٥.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/ ٢٢٤.

(٤) الأصمعيات، ص ٥٦. و (اللسان، حسن). أراد بـ (حُسْنَ) حَسُنَ. يريد: آخذ ما أريد، ولا يمنعني أحد، وأعطيهم الذي يريدون، وهذا حسن أدب مني. بدليل أنها جاءت في اللسان برواية (ما) بدلاً من (لا أعطيهم) التي توهم بالنفي، بينما (ما) هذه مصدرية.

وقول شاعرة من بني هِزَّان في ابن لها عقّها: (من البسيط)

أَنْشَا يُمَزِّقُ أثوابي، يُؤَدِّبُني أَبَعْدَ شَيْبِيَ عندِي يبتغي الأَدَبَا[1]

٣ ـ **العصر الأموي**: شاع في هذا العصر المعنى التهذيبي والخلقي والتعليمي، حيث اتخذ الخلفاء الأمويون لأبنائهم «المؤدبين».

٤ ـ **العصر العباسي**: فقد شمل الأدب المعنيين: التهذيبي والتعليمي، وهذا واضح عند ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م) في كتابيه: «الأدب الصغير والأدب الكبير» وهما في السياسة والأخلاق.

٥ ـ **القرن الرابع الهجري**: شمل الأدب المعارف غير الدينية كما هو عند إخوان الصفا.

٦ ـ **القرن التاسع الهجري**: شمل جميع المعارف دينية كانت أو غير دينية، كما عرفه ابن خلدون (ت ٨٠٨/ ١٤٠٥): (الأدب: هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف)[2].

ثم أخذت هذه اللفظة تتحدد أكثر فأكثر إلى أن بلغت تعريفاً محدداً معاصراً يتبادر إلى الأذهان بمجرد نطقها.

## الأدب اصطلاحاً:

هناك محاولات كثيرة في تعريف الأدب، نأخذ منها تعريف الدكتور شوقي ضيف الذي يقول: «هو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعراً أم نثراً»[3]. والدكتور محمد حسن عبد الله الذي يقول: «إنه التعبير عن تجربة إنسانية بلغة تصويرية هدفها التأثير، وفي شكل فني جمالي قادر على توصيل تلك التجربة»[4].

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣١٦/١. والبيت من الشواهد النحوية في قطر الندى لابن هشام، ص ١٣٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٢٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ص ١٠.

(٤) مقدمة في النقد الأدبي، ص ١٨.

ونقول في تعريف الأدب: هو العمل الفني على اختلاف أنواعه ـ شعراً ونثراً ـ يبرزه الأديب من خلال اللغة المعبرة القادرة على التوغل في عقل السامع وقلب القارىء بطريقة ناجحة مؤثّرة يستطيع من خلالها تجسيد العمل الفني وإحداث التفاعل عند المتلقي الذي ينتج المتعة، أو هو: الصياغة الفنية لتجربة إنسانية.

قلنا إن الأدب يشمل الشعر والنثر، فما الشعر؟ وما النثر؟ وما الفرق بينهما؟ وأيهما أسبق؟ ولماذا يعبّر الشاعر عن فنّه بالشعر ولا يعبر بالنثر؟ ولماذا يعبّر الكاتب أو الأديب عن فنه بالنثر ولا يعبّر بالشعر؟ وهل يستطيع كل منهما ـ الشاعر أو الأديب ـ التعبير بالشعر والنثر ولكنه يفضل أحد الفنين على الآخر؟

## الشعر:

يقول قدامة (ت ٣٧٧/٩٨٧) في تعريف الشعر: «إنه قول موزون مقفى يدل على معنى»[(١)]. ويعرّف ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣/ ١٠٧٠) الشعر بقوله: «الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حدّ الشعر، لأنّ من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر، لعدم القصد والنية، كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي ﷺ وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر...»[(٢)].

ونكتفي بما ذكرناه عن الشعر، لأننا لسنا بصدد دراسته، وإنما حصلت الإشارة إليه؛ لأنه شريك النثر في أصله الفني.

## النثر:

هناك من يقول بأن النثر أقدم الأنواع الأدبية، ونحن لا نستطيع أن نقرر هذا إلاّ بعد أن نطّلع على أي الفنين أقدم الشعر أم النثر؟ وليس أمامنا ـ الآن ـ إلا أن نسوق جملة من التعريفات حتى نتعرف النثر... فما النثر؟

---

(١) نقد الشعر، ص ٦٤. وقد تبنى هذا التعريف أيضاً الزمخشري (ت ٥٣٨/ ١١٤٣) انظر ذلك في: القسطاس، ص ٢١.

(٢) العمدة ١/ ٢٤٥.

يقول صاحب اللسان: «النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقاً مثل نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نَثْرُ الحبِّ إذا بذر، وهو النثارُ، وقد نَثَره ينثُره وينثِره نَثْراً وَنِثاراً ونَثَّره فانْتَثَرَ وتناثَرَ، والنُّثارة: ما تناثر منه»،[١] فالمعنى اللغوي كما هو واضح، يعني الشيء المبعثر المتفرق، الذي لا يقوم على أساس في تفرقه وبعثرته، أي: لا يقوم على أساس من حيث الكيف والكم أو الاتساع.

والنثر: أدب إنشائي، وهو نوعان: الأول: النثر العادي الذي يدور في كلام الناس أثناء المعاملة، أو هو الذي يعرف بلغة التخاطب والتفاهم بين الناس، أو هو الكلام اليومي العادي الذي يتحدثه الناس، وهو غير فاقد نهائياً لبعض عناصر النثر الفني[٢]. والثاني: هو النثر الفني الذي يخضع لنظرية الفن، أو هو الذي يغلب عليه الأسلوب الفني، والذي يحتوي على عناصر فنية، نذكر منها: الأفكار، وحسن الصياغة، وجودة السبك، ومراعاة قواعد اللغة... ومع ذلك فإنه لا يفقد العاطفة والخيال...

والنثر الفني ينقسم بدوره إلى خطابة وعمادها اللسان، وكتابة فنية وعمادها القلم، ويحتاج هذا النوع من الأدب إلى مرحلة عالية من الرقي العقلي والثقافي. فالخطابة: «هي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة. والخطابة ترقى بعاملين وتنحطّ بفقدهما: أولهما: أن تتمتع الأمة بنصيب من الحرية في الفكر والقول، وثانيهما: أن تشعر بسوء حالتها، وتصور لنفسها صورة من الحياة أفضل مما هي عليه، ثم تنهض وتتحرك لتحقيقها... أما الكتابة الفنية عند العرب (من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث) فتشمل الرسائل والقصص، والمناظرة والجدل والتاريخ»[٣].

ونود الإشارة هنا إلى أن النثر في العصر الجاهلي ـ من خطب ووصايا وحكم وأمثال ـ قد لعب دوراً هاماً، اقتصر على قلة من الناس دون غيرهم، وقد خلفوا لنا

(١) اللسان (نثر).

(٢) انظر: الفرق بين الشعر والنثر، ص ٧.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٢٢٠.

تراثاً ضخماً على قلته. . . منه ما يصور حياتهم على اختلاف أنواعها، ومنه ما يدل على رقيهم الثقافي والعقلي. . وكان الخطيب منهم يطلق الأمثال، فيتناقلها الناس. . . . حيث كان «الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المِرفق (أي ما استعين به) والانتفاع»(١)، ولعل موقف الرسول ﷺ من الوفود التي قَدِمت عليه يعطي صورة واضحة لرقيّ النثر حينذاك، فكان يقول حين يستمع إلى بعضهم عندما يخطب: «إنّ من البيان لسحرا»(٢). أليس هذا دليلاً على فصاحة العرب وبيانهم وبلاغتهم؟

إذن الخطابة نوع من الأدب رست قواعده في الجاهلية ولا يزال إلى يومنا هذا، مع اختلاف في طريقة التناول التي تخضع لظروف العصر على اختلاف أنواعها، لذا فقد ارتأينا أن نسوق جملة من التعريفات عبر العصور، للوقوف على ماهية هذا الفن.

يقول قدامة (ت ٣٧٧/٩٨٧) « واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن يكون منثوراً. والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام»(٣)، «وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجاً أو حديثاً»(٤).

ويقارن ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣/١٠٧٠) بين الشعر والنثر بقوله: «وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ـ كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر ـ وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه ـ إذا كان منثوراً لم يُؤمن عليه، ولم يُنتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ١/٢٧١.

(٢) شرح الجامع الصغير للسيوطي ٢/٢٥٤ (رقم ٢٤٥٦، ٢٤٥٧، ٢٤٥٨).

(٣) نقد النثر، ص ٧٤. (إن صحت نسبة هذا الكتاب لقدامة، فقد نشر مرتين منسوباً لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (من القرن الرابع الهجري، الأولى: بتحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي (بغداد ١٩٦٧)، والأخرى بتحقيق د. حفني شرف (القاهرة ١٩٦٩).

(٤) المصدر السابق، ص ٩٣.

انتخب، وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الإبتذال، وأظهر لحسنه من كثرة الإستعمال»[1].

ويعرّف ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥) الشعر والنثر بقوله: «واعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين: في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تتكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون»[2] وجملة القول: إن النثر كلام إنشائي بليغ يتفق مع الشعر في بعض العناصر، فيُعبَّر عنه باللغة المعبِّرة القادرة على توصيل إحساس المعبِّر لغيره. ويختلف عنه بأنه لا يخضع إلى مَا فيه ولا وزن.

## الفرق بين الشعر والنثر

يصعب علينا تتبع أقوال العلماء في هذا الباب، ونكتفي بما وصل إليه ابن خلدون من رسم خطّ واضح يفصل فيه بين الشعر والنثر، يقول: «وكل واحد من الفنّين (أي: الشعر والنثر) يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء، وأما النثر: فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً، ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم»[3]. ثم يضيف قائلاً: «واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك»[4]. ونجده يدوّن مآخذه على المتأخرين الذين أخذوا يدمجون الفنّين، ويكاد يكون الفرق بسيطاً بينهما، يقول: «وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب

---

(١) العمدة ١/٧٣. والمزهر ٢/٤٧١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٣٢.

(٣) مقدمة بن خلدون، ص ٥٣٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٣٣.

بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه لم يفترقا إلا في الوزن»[1].

يكاد يجمع النقاد على أن عناصر الأدب بصفة عامة أربعة: العاطفة، والفكرة أو المعنى، والأسلوب، والخيال[2]. ويشترط في كل أدب أن يشتمل على هذه العناصر، ولكن تتفاوت هذه العناصر في العمل الفني حسب نوعه... وإذا جاز لنا أن نفرق بين الشعر والنثر ـ هنا ـ فنقول: إن الشعر منبعث عن عاطفة وخيال، والنثر منبعث عن فكر ورأي، ولا نعني خلو الشعر من الفكر والرأي أو خلو النثر من العاطفة والخيال... ولكن بمقدار تفاوتهما نستطيع التمييز بينهما... يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: «فن الشعر من أشهر الفنون الأدبية وأكثرها انتشاراً وربما كان ذلك لقدم عهد البشرية به، فالشعر هو الصورة التعبيرية الأدبية الأولى التي ظهرت في حياة الإنسان منذ العصور الأولى، وهذه الأقدمية التي للشعر ترجع إلى أنه كان في تلك العصور ضرورة حيوية بيولوجية.

إنه الطريقة الوحيدة التي اهتدى إليها الإنسان بحكم تكوينه البيولوجي والنفسي للتعبير والتنفيس عن انفعالاته. ومنذ ذلك الوقت تحددت لذلك الفن خصائص

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) أحمد أمين، النقد الأدبي، ص ٢٠ (انظر: معنى هذه العناصر، المرجع نفسه، ص ٢٠ ـ ٤٢).

العاطفة: هي الحالة الوجدانية التي تتميز بالاستقرار والدوام وبعدم العنف والثورة اللذين يميزانها عن الانفعال، ويترتب على وجود هذه الحال الميل إلى الشيء أو الانصراف عنه. الفكرة: عند أفلاطون: النموذج العقلي للأشياء الحسية في الوجود الحقيقي. وعند كانت: تصور ذهني يجاوز عالم الحس وليس له ما يماثله في عالم التجربة. والفكرة أو المعنى عند أنصار المذهب الحسي، وأولهم أرسطو: هي الصورة الذهنية المستمدة من العالم الخارجي. ويقول الجرجاني: المعاني: هي الصور الذهنية، والخيال: هو القدرة التي يُستطيع العقل بها أن يشكل صوراً للأشياء أو الأشخاص أو يشاهد الوجود (صمويل جونسون). ويعرفه الجرجاني بأنه قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبته المادية. والأسلوب بوجه عام: طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابة... وفي الوقت الحديث: هو تعبير عن الاختيار الذي يقوم به مؤلف النص من مجموعة محددة من الألفاظ والعبارات والتركيبات الموجودة في اللغة من قبل والمعدة للاستعمال. والأسلوب الأدبي: هو الأسلوب الجميل ذو الخيال الرائع والتصوير الدقيق الذي يظهر المعنوي في صورة المحسوس، والمحسوس في صورة المعنوي). (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٢٢ و٩٢ و١٣٥ و١٥٤).

استعطنا أن نتبينها في وضوح عندما ظهر أسلوب آخر للتعبير واستخدام اللغة هو النثر، فقد لوحظ أن الإنسان قد اهتدى إلى هذا الأسلوب عندما أراد أن يعبر عن أفكاره، ومن هنا ارتبطت «الانفعالات» بالشعر «والأفكار» بالنثر. ولكن الخطأ في الفهم يأتي عادة من النظر إلى «الانفعالات» «والأفكار» على أنها أشياء متعارضة أو متناقضة. وهذا من شأنه أن يجر إلى أخطاء كثيرة في فهم الشعر والنثر على السواء، وليس هناك تعارض، بل هو مجرد اختلاف».[1]

## أي الفنين أسبق الشعر أم النثر؟

إن الحديث في هذا الموضوع يحتاج منا إلى وقفة طويلة، لأن هناك من الباحثين من يقول: إن الشعر أسبق، والبعض الآخر يقول: إن النثر أسبق، والبحث والتنقيب والحديث عن هذا الموضوع مشوّق للغاية، وأخشى أن يكون مملاً إذا ما وقفنا وقفة متأملة متأنية، لذا، سنحاول عرض الرأيين بإيجاز...

من المعروف أن الشعر له صلة قوية بالشعور والطبع، بل هو تعبير عن العاطفة والإحساس، مع عدم حاجته إلى التقدم العلمي أو الحضاري، أو التقدم في الحياة المدنية بصفة عامة، كما عهدناه في الشعر الجاهلي، الذي صدر عن شعراء عاشوا في البادية، الخالية من التقدم المدني... وربما كان التقدم العلمي مهماً بل له الدور الفعال في تدوين الشعر، وطباعته، ونشره، ولكن لم نكن قد وصلنا إلى هذه المرحلة في العصر الجاهلي، وربما كان التقدم الحضاري مهماً أيضاً، كما هو الحال في العصور التي تلت العصر الجاهلي، ولكني أتحفظ على هذا، من حيث المستوى الفني للشعر، وأكبر دليل على وضوح هذه الظاهرة، الشواهد أو النماذج الشعرية في العصر الجاهلي ومقارنتها بالنماذج الشعرية في العصور التي تلت ذلك العصر. ولما كان التقدم العلمي أو الحضاري ينتج عن الرقي العقلي فإننا نستطيع القول بإيجاز: إن الشعر لا يتطلب الرقي العقلي؟ أو التقدم الحضاري، أو ازدهار المدنية، أو التطور العلمي، ولا نعني هنا أنه ـ أي الشعر ـ لا يتأثر أو ليس له صلة بهذا، إنه وثيق الوشائج، قوي الترابط، يضفي على الشعر نوعاً من الخصائص، ويكون الشعر

---

(١) الأدب وفنونه، ص ١٣٠.

مطبوعاً بطابع العصر، ونجد أن الشعر في كل عصر له مميزاته أو خصائصه الخاصة به، تميزه من غيره من العصور. . . وإذا اتفقنا على هذا، فإنه حريّ بنا الآن أن نستعرض الآراء التي تقول بأقدمية الشعر.

١ ـ إن الشعر هو «الطريقة الوحيدة التي اهتدى إليها الإنسان بحكم تكوينه البيولوجي والنفسي للتعبير والتنفيس عن انفعالاته. . . ومن هنا ارتبطت الانفعالات بالشعر والأفكار بالنثر»[١]؛ ولهذا كان من الضروري وجود هذا الفن، الذي يعبر عن الجانب الوجداني عند الإنسان. . ويمكن أن ندعم هذا الرأي، بجولة ميدانية في منطقة بدائية أو حتى في بعض القرى العربية وغيرها، بين من لا يتقنون القراءة، ولم تصلهم يد الحضارة أو التقدم العلمي، فإنك لا محالة، ستجد أن الناس هناك، يقومون بالتعبير عن أحاسيسهم بدق الطبول مثلاً، أو الرقص، والغناء، ولا يخفى على أحد أن الموسيقى من مقومات الشعر، والغناء مظهر من مظاهره. . قد يكون هذا النوع من الشعر غير متطور كما نعرفه نحن، أو لا يقوم على الأسس الفنية الخاصة بالشعر. . . إلا أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعر، الذي يقوم على الوزن والقافية. . . في حين لم نجد النثر الفني ـ بصفة عامة ـ يرتبط بمثل تلك الحياة أو الموسيقى والرقص. . . إذن، «فالشعر ضرورة من ضرورات الحياة في طور من أطوارها، فإذا انقضى هذا الطور أصبح الشعر عاجزاً عن أن يقوم بشيء من ذلك، وأصبح النثر خليفته يصور هذه الأشياء الجديدة»[٢].

٢ ـ قلنا: إن الموسيقى من مقومات الشعر، والغناء مظهر من مظاهره، وما دام الشعر فيه هذا، فإنه يسهل حفظه، وروايته، وبالتالي انتشاره من مكان إلى مكان، ولا حاجة لتدوينه، بدليل أن كثيراً من الأشعار وصلت عن أمم لم يصل إلينا شيء من نثرها الفني، الذي يتطلب معرفة بالكتابة من أجل تدوينه، لصعوبة حفظه، والجدير بالذكر أن الكتابة ـ دائماً ـ تأتي في مرحلة علمية وحضارية متقدمة عند أية أمة من الأمم. . . ولا نقصد بالشعر كما هو عليه الآن إنما قد يكون في مراحله الأولى.

---

(١) د. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ١٣٠.

(٢) د. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ص ٢٢.

٣ ـ إذا تأملنا تاريخ أمة من الأمم لها حياة أدبية ـ أي شعر ونثر ـ فإننا نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعراً. . . وكان لسانها الأدبي هو الشعر، فلما تطورت هذه الأمم، وارتقى عقلها، وازدهرت حضارتها، ومازجت الشعوب الأخرى، اكتشفت أن هناك أفكاراً وآراء لم تعرفها من قبل، وارتأت أن تنظم هذه الآراء والأفكار. . . ولكن الشعر عجز عن أن يعبّر عنها، فكان لا بدّ من اللجوء إلى النثر،[١] فعندما نلاحظ تاريخ الأمم كاليونان مثلاً، نجد أنها كانت شاعرة، تنشىء الشعر قصصياً ثم غنائياً ثم تمثيلياً، كما هو الحال في قصائد «هوميروس»[٢]؛ التي كانت تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر النثر الفني، وحين امتزج اليونان بالأمم الشرقية والغربية المختلفة ونشأت أفكار جديدة ـ سياسية وفلسفية ودينية ـ حاولوا التعبير عن هذه الأفكار بالشعر، فعجز الشعر عن ذلك، لذا كان النثر الفني هو الطريقة الوحيدة التي يعبر فيها عن هذه الأفكار، ومثل ذلك نجده عند الرومان[٣].

وإذا كنا قد ضربنا مثلاً بالأمتين اليونانية والرومانية فمن الأولى أن نأتي بمثال عن الأمة العربية في العصر الجاهلي، الذي وصل الشعر فيه إلى مرحلة النضج في حين لم يكن النثر في المستوى نفسه. . ولما جاء الإسلام وجدنا أن الشعر قاصر عن أن يعبر عن الدين الإسلامي الجديد، وصنوف الحياة على اختلاف أنواعها، فما كان من الأمة العربية الإسلامية إلا أن اتجهت نحو النثر، الذي كان التعبير فيه أقوى من

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) هوميروس: (القرن التاسع قبل الميلاد) ولد في آسيا الصغرى. شاعر ملحمي يوناني، قيل إنه كان أعمى نسب إليه المؤلفون اليونان أشعار «الإلياذة» و«الأوذيسة» التي أثرت تأثيراً كبيراً على مستقبل الشعر اليوناني. والإلياذة: ملحمة يونانية في ٢٤ نشيداً تروي أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطراوديين. من روائع الشعر الملحمي العالمي. عرّبها شعرا سليمان البستاني ونشرها في دار الهلال بمصر سنة ١٩٠٤ م. مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعراء اليونان والعرب وآدابهم. (المنجد في اللغة والأعلام). والأوذيسة: ملحمة يونانية تتكون من أربعة وعشرين نشيداً، وتميل إلى تجاوز حدّ البطولة إلى مستوى الخوارق والأعاجيب السحرية (المعجم المفصل في اللغة والأدب ١/ ٢٦٠).

(٣) د. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ص ٢٣. ويقول أيضاً: «وأنت تستطيع أن تلتمس الأمر عند اليونان والرومان والأمم الغربية فسترى أن هذه الأمم كلها تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال وأنت تستطيع أن تلتمس ذلك في الأمم والبيئات غير الراقية المعاصرة لنا: فسترى أمماً وحشية أو بدوية تتغنى وتنظم الشعر وليس لها من النثر حظ». في الأدب الجاهلي، ص ٣٢٦ و٣٢٧.

الشعر، بل نكاد نقول: إن الشعر قد ركدت ريحه، وضعف مستواه، وقل عدد الشعراء، في حين نجد أن النثر قد ازدهر، فزاد عدد الخطباء، وارتفع مستواه الفني، فأخذ الناس يتذوقونه أكثر من الشعر. . .

٤ ـ والقضية الأخيرة التي نريد أن نذكرها هي قضية الشعر والنثر في العصر الجاهلي. . . من المسلم به أن الشعر في الجاهلية، كان محكم الصياغة، جزل الألفاظ، ناضجاً في أسلوبه ومعانيه، يحتوي على كثير من التشبيهات والاستعارات والأساليب البلاغية، ملتحم النظم مع دقة في الموسيقى أو الوزن ومشاكلة اللفظ للمعنى، هذا هو الشعر الذي بلغنا، ولم نعرف شيئاً عن طفولة الشعر العربي، ولا يمكن أن نسلم بأن هذا الشعر قد بدأ بهذا النضج المحكم، بل لا بدّ من التسليم بأنه قد مرّ بمراحل عديدة، وهناك نماذج شعرية تدل على أن الشعر الناضج؛ المحكم الصياغة، قد سبق أيضاً المرحلة التي حددناها للعصر الجاهلي، والتي لا يزيد عمرها على مائتي سنة قبل الإسلام، فهذا امرؤ القيس يحاكي ابن خذام في وقوفه على الأطلال، وهذا عنترة، يشير إلى أن الشعراء السابقين قد استنفدوا المعاني ولم يتركوا له شيئاً يبدع فيه، وهذا زهير بن أبي سلمى أيضاً يعلن بأنه لا يبدع، بل يكرر ويعيد ويحاكي الشعراء السابقين[1].

---

(١) ليس من المعقول أن يكون المهلهل بن ربيعة أول من هلهل الشعر أي أرقّه، وأول من قصّد القصائد، وجاء من بعده ابن أخته امرؤ القيس. انظر: ابن سلام، طبقات الشعراء، ص ١٣ ـ ١٤. وانظر كذلك: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٦٤. فقد سبقهما كثير من الشعراء، وكانوا على درجة عالية في نظمهم، بدليل اعتراف الشعراء الجاهليين بذلك، منهم امرؤ القيس نفسه الذي يقول:

عُوجا على الطَّللِ المُحيلِ لأننا ... نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذامِ

(الديوان، ص ١٤٤. عوجا: أي أعطفا رواحلكما. والطلل المحيل: الذي أتى عليه حول فتغير. لأننا: بمعنى لعلنا. وابن خذام: رجل ذكر الديار قبل امرىء القيس وبكى عليها. ويروى ابن حذام، وابن حمام). وهذا عنترة بن شداد يقول:

هل غادر الشعراءُ من متردَّمِ ... أمْ هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ

(الديوان، ص ١٨٦. والمعنى الذي يهمنا هوَ: هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلا وقد سبقوا إليه). وهذا زهير بن أبي سلمى يقول (إن صحت روايته):

ما أرانا نقولُ إلاّ معاراً ... أو معاداً من لفظنا مكرورا

انظر: د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٢٦.

ويرى بعض الأدباء أن الشعر قد مرّ في مراحل كثيرة حتى وصل إلى الشكل الذي اشتهر به، والمضمون الذي عرف به، ذلك أن «العرب خطوْا من المرسل[١] إلى السجع، ومن السجع إلى الرجز[٢]، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد. فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة، وتقييداً للحكمة، وتعمية للجواب، وفتنة للسامع، وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون، زعموا أنهم مهبط الإلهام، وأنجياء الآلهة، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد، ويستلهمونها بالأدعية، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في جُمل مقفاة موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيهاً لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة»[٣].

إن القائلين أو المؤيدين لأسبقية الشعر، أكثر بكثير من القائلين بأسبقية النثر، بل هم قلة قليلة لا تذكر، وهذا الصراع قائم، لا أظن أننا نستطيع حسم القضية، على الرغم من ترجيحنا أسبقية الشعر، وعلى أية حال، سنعرض للآراء التي تقول بأسبقية النثر.

١ ـ هناك من يقول: «النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله»[٤]. وقد ورد أن الباقلاني يقول: «إن العرب بدؤوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه قد تألفه الأسماع، وتقبله النفوس، تتبعوه من بعدُ وتعمَّلوه»[٥]. في حين نجد الدكتور طه حسين يقول: «والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر

---

(١) المرسل: هو الشعر غير المقفى. وتوخاه الكهان: قصدوه.

(٢) الرجز: وزن يسهل في السمع ويقع في النفس. وقيل: سمي بهذا الاسم لتقارب أجزائه، وقلّة حروفه، وتشبيهاً له بالناقة الرجزاء، التي إذا أرادت النهوض، لم تكد تنهض إلا بعد ارتعاد شديد. (اللسان، رجز). وقد أجمع النقاد على أن أول الشعر العربي الرجز، والرجز من البحور الشائعة، يتكون من ست تفعيلات، وقد يتكون من أربع تفعيلات، إثنتين في كل شطر، ويسمى مجزوءاً، وقد يتكون من ثلاث تفعيلات، ويسمى مشطوراً، وقد يتكون من تفعيلتين ويسمى منهوكاً. (انظر كتابنا: الشافي في العروض والقوافي، ص ١٣٧ ـ ١٥٤).

(٣) تاريخ الأدب العربي، ص ٢٨.

(٤) تاريخ الأدب العربي، ص ٢٩.

(٥) إعجاز القرآن، ص ٦٣.

فني»، ثم يعود فيقول: «وإذن فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل إلينا لضعف الذاكرة، وخلوه من الوزن، هذا النثر هو الخطابة»[1]. والخطابة ـ كما هو معروف ـ نوع من النثر؛ أما الدرجة الفنية التي تحكمه فهذا أمر آخر، ولا نستطيع الأخذ بهذا الرأي القائل بعدم وجود النثر.

٢ ـ وهناك من يقول: «إن النثر أقدم نشأة ودوراناً على الألسن من الشعر»[2].. وعلينا هنا أن نفرق بين الكلام العادي الذي هو نوع من النثر، والنثر الفني الذي له خصائصه، ولا نعلم بالتحديد ما النثر الذي قصده... ولكنه يبرر قوله هذا بـ«أن النثر لما كثر أصبح مبتذلاً فلم يهتمّ العرب بروايته كما اهتموا برواية الشعر»[3]، واستند في ذلك إلى قول ابن رشيق «ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عُشْره»[4].

٣ ـ ويقال: إنه قد اجتمع الناس على أن المنثور في كلام العرب أكثر من الشعر، يقول ابن رشيق: «وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتَهُزَّ أنفُسها إلى الكرم، وتدلَّ أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلمّا تمّ لهم وزنه سمُّوه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا»[5].

٤ ـ والآن، بعد أن رأينا بعض الآراء التي تقول بأنّ النثر وجد أولاً، ثم مَر في طرق عديدة إلى أن أصبح شعراً، فإنه يمكننا القول: إن هذه الآراء اعتمدت على أساسين، هما:

---

(١) من حديث الشعر والنثر، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ١/٨٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) العمدة ١/٧٤. وانظر هذا في: البيان والتبيين ١/٢٨٧.

(٥) المصدر السابق نفسه. والمزهر ٢/٤٧٢. والأنجاد: مفردها نَجِدٌ ونَجُدٌ، الشجاع الماضي في ما يعجز غيره. والأعاريض: جمع عروض، وهو ميزان الشعر.

١ ـ «إن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر في الأدب العربي القديم».

٢ ـ «إن الكتب السماوية ضاربة في القدم، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء، ولعل هذه الكتب هي التي أدت إلى نشأة النثر الفني في العصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمن طويل»(١).

## ويمكن تلخيص القول بأسبقية الشعر بالأمور التالية:

١ ـ إن طبيعة الحياة الإنسانية في طفولتها بما فيها من غلبة العواطف على الإدراك العقلي، كانت تقتضي وجود فن قولي ـ ألا وهو الشعر ـ يعبّر عن الجانب الوجداني عند الإنسان.

٢ ـ إذا تأملنا تاريخ أدب أية أمة من الأمم رأينا الشعر أقدم فن أدبي تناقلته هذه الأمة، كما هو الحال عند اليونان والرومان.

٣ ـ كثرة الشعراء في تاريخ أية أمة وزيادتهم على كتّاب النثر، كما هو الحال في العصر الجاهلي.

٤ ـ إن النثر يتطلب الكتابة لتدوينه، والمدوّن يأتي عادة في مرحلة متأخرة من تاريخ كل أمة، في حين نجد أن الشعر يروى عصراً بعد عصر، لأن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر.

٥ ـ لا يقاس النثر الذي وصل إلينا من العصر الجاهلي بالشعر لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف.

## أما القول بأسبقية النثر فنجمله بما يلي:

١ ـ إن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر، أي: إنهم طوّروه من المرسل إلى السجع، ومن السجع إلى الرجز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد.

---

(١) د. محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، ص ٢٥١. (نقلاً عن الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، لعمر رضا كحالة، ص ١١).

٢ ـ النثر أسبق من الشعر لقرب تناوله، وعدم تقيـده، وضرورة استعماله.

٣ ـ إن الكتب السماوية ضاربة في القدم، ولعلها أدّت إلى نشأة النثر الفني في العصور القديمة قبل أن يوجد الشعر بوقت طويل.

أما السؤال الذي كنّا قد طرحناه، وهو: لماذا يعبّر الشاعـر عن فنه بـالشعر؟ فجوابه: من المسلم به أن الشاعر حين يعبّر يعبّر بالشعر ولا يعبّر بالنثر لأن الدوافع والأحاسيس والحالة الوجدانية «تجعله في وضع يكون فيه التعبير الشعـري. . . هو التعبير الوحيد الكافي، فالشعر، قبـل كل شيء، يعتمـد على ما عنـد الشاعـر من «بصيرة» شعرية وعندئذٍ لا تكون مادة الموضوع التي يستخدمها مادة شعرية في ذاتها، مستقلة عن هـذه البصيرة، ولكنهـا تكون كـذلك لأنهـا دخلت في مجـال الحـالـة الشعرية»[1]. أما بالنسبة إلى الأديب الذي يعبّر بالنثر لا بالشعر، لأن اللحظة التي يعبر فيها بالنثر هي الطريقة الوحيدة الكافية لهذا التعبير عما يجول في فكره، ولا يستطيع أن يخرجها إلا في هذا القالب النثري. . أما إذا كان الأديب قادراً على أن يخرج فنّه القولي بقالبين: شعري ونثري، فإنه لا يستطيع التحكم بأيّ من القالبين؛ لأنه لا بدّ من غلبة واحد على الآخر، وهذا خاضع لأمور كثيرة، منها: تجربته الفنية في كـل منهما، وحالته النفسية، وأحاسيسه، وطبيعة الموضوع الذي يعبر عنه الأديب. وهذا لا يمنع من أن يمزج الفنان بين الفنين في عمل واحـد، لتجسيد هذا العمل، وتوصيله إلى المتلقي.

## الأدب والدراسة الأدبية

سبق أن عرفنا الأدب، ولا داعي لسرد التعريفات مرة أخرى، وهناك من يقسم الأدب إلى قسمين:

أ ـ **الأدب الإنشائي**: هو الأدب الذي يبدعه الفنان.

٢ ـ **الأدب الوصفي**: هو الأدب الذي يظهر في مرحلة تالية للأدب الإنشائي

---

(١) د. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص ١٢٨.

ومتأخرة عنه، فهو يتناول الأدب الإنشائي بالتفسير والتحليل والتقويم أو الحكم[1]. أو هو: دراسة الأدب الإنشائي.

وهناك من يقسم الدراسة الأدبية إلى قسمين:

١ ـ تاريخ الأدب.

٢ ـ النقد الأدبي[2].

---

(١) د. طه حسين، الأدب الجاهلي، ص ٣٣ ـ ٣٦. ود. سعد ظلام، في النقد الأدبي، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر لمزيد من التفصيل: د. محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، ص ٢٩ ـ ٣٣. وأصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب، ص ٤٣ ـ ٤٥.

# الفصل الثاني

# الخطابة

# النثر الجاهلي

إن سائر العبارة في كلام العرب إمّا أن يكون منظوماً، وإمّا أن يكون منثوراً. والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام، وإذا وقعت البلاغة والإيجاز في الشعر والقول قضي للشاعر بالفوز والظفر. والعيّ والإسهاب إذا وقعا في الشعر والقول كان الشاعر أعذر، وكان العذر عن المتكلم أضيق وذلك لأن الشعر مقيد بالوزن، محصور بالقافية، فالكلام يضيق على صاحبه، والنثر مطلق غير محصور فهو يتسع لقائله.[1] فهذه ميزة كبيرة للنثر؛ لأنه غير مقيد بوزن أو قافية.. ومما لا شكّ فيه أن النثر أقل أهمية من الشعر، فقد اهتم العرب كثيراً بالشعر دون النثر، كما اهتم الرواة بعدئذ أيضاً بالشعر، ولعلّ ذلك يعود إلى أن أذن العربي كانت تلتذ لموسيقى الشعر، فيسهل حفظه. ولإيضاح هذه القضية، انظر معي، إلى ندوة أدبية ـ في وقتنا الحاضر ـ فإنك تجد أن الشاعر يجذب مجامع القلوب بشعره، وربما نجد بعض الحاضرين، وقد حفظوا ما نظم ذاك الشاعر، في حين نجد أنه من الصعب حفظ خطبة ما، لخلوها من الإيقاع والوزن والقافية.

ولم يصل إلينا من العصر الجاهلي إلا كمية قليلة من النثر، لا تكاد تخرج عن الخطابة، والوصايا[2]، والحكم والأمثال وسجع الكهان... وسنحاول ـ في هذا البحث ـ دراسة هذه الموضوعات.

---

(١) نقد النثر، ص ٧٤ ـ ٧٥. وانظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٥٣٢.

(٢) قام الأستاذ أحمد زكي صفوت بجمع خطب العصر الجاهلي ـ والعصور التي تلته ـ بكتاب وسمه بـ «جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة».

# الخطابة

لم يكن شأن الخطابة في العصر الجاهلي كشأنها في العصر الإسلامي، وهذا راجع إلى طبيعة العصر وظروفه، ولم يهتم الرواة بالنثر مثلما اهتموا بالشعر، لعلو مكانته، فهو ديوان العرب، وفيه علومهم وأخبارهم وحكمهم.

**سمات الخطابة:**

١ ـ لم نعرف أنه روي عن الجاهليين الخطب الطِّوال، وأغلب ما عندهم الخطب القصار، لقلّة تعدد الأغراض فيها، وعدم وجود الأسس والقواعد التي تقوم عليها الخطبة، كما أنهم اعتمدوا الإيجاز؛ لأنه أوقع في النفس، وأبلغ في التأثير، وأعمق في الروي والحفظ، بينما طول الكلام ينسي بعضه بعضاً.

٢ ـ تخيّر الخطباء الألفاظ المتداولة حينذاك، والمعاني المؤثرة ـ القريبة من النفوس ـ التي تسيطر على العقول والقلوب ويكون هذا عن طريق الفطرة والسليقة.

٣ ـ كثيراً ما كان الخطيب يضمّن خطبته أبياتاً شعرية؛ لبلاغتها، وإضفاء صورة جميلة عليها عهدها العربي حينذاك.

٤ ـ أما المزج بين الإيقاع الشعري والنص النثري غير الموزون، يريح الخطيب والسامع؛ فالنَّفَسُ النثري يتوقف ـ عادة ـ ليقرأ النص الشعري. ومن ثم ينقل السامع من حالة إلى حالة، فيشد انتباهَه، فالنثر ـ كما هو معروف ـ تعبير عن حقائق. ولكي يؤثر الشعر في نفس العربي، جعل الخطيب يمزج بينهما، في صورة أشد تأثيراً، وأكثر تعبيراً في غرض الخطبة. وغالباً ما يدور هذا الشعر حول الغرض نفسه، تأكيداً له، وتثبتاً منه.

لذلك كله، فإن طبيعة العصر الجاهلي كانت تتطلب الخطيب الذي يحسن نظم الشعر، بل كان لا بدّ للخطيب الناجح أن يكون قادراً على إنشاد الشعر، فالخطيب الشاعر «يكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً بيّناً»[١]، أي بليغاً. فمن الخطباء الشعراء الأبيناء الحكماء: قُس بن ساعدة الإياديّ[٢]، وما دام الشاعر يقدم على الخطيب لفرط حاجة أهل الجاهلية إلى الشاعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهول على عدوّهم[٣]، فكان لا بدّ من الخطيب أن يتسلح بالشعر ليحفظ مكانته.

## ١ ـ موضوعات الخطب[٤]:

أ ـ **المنافرات والمفاخرات**: والمنافرة: المفاخرة والمحاكمة، والمنافرة: المحاكمة في الحسب وهي أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكِّما بينهما رجلاً، كفعل عَلْقَمَة بن عُلاثَة مع عامر بن الطفيل وهما من بني عامر، حين تنافرا إلى هَرِم بن قطبة الفزاريِّ[٥]. وفيهما يقول الأعشى، يمدح عامر بن الطفيل ويحمل على علقمة بن عُلاثة: (من السريع)

قَدْ قُلْتُ قولاً فَقَضى بينَكُمْ ... وآعتَرَفَ ٱلمَنْفُورُ لِلنَّافِرِ[٦]

فالمنفور: المغلوب، والنافر: الغالب. وكانت العرب تتنافر إلى الحاكم، ويسألونه: أينا أعزّ نفراً؟[٧] وفي ذلك يقول زهير بن أبي سُلمى: (من الوافر)

فإنَّ الحقَّ مَقْطَعُهُ ثلاثٌ ... يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءُ

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق ١/٢٤١.

(٤) انظر: البيان والتبيين ٣/٦ وما بعدها. ونقد النثر، ص ٩٣ وما بعدها. والفن ومذاهبه في النثر العربي. ص ٢٧ وما بعدها.

(٥) لسان العرب (نفر). وانظر: الأغاني ١٦/٣٨٣ وما بعدها.

(٦) ديوان الأعشى، ص ١٩٣. ولسان العرب (نفر).

(٧) لسان العرب (نفر).

فالنفار: أن يتنافروا إلى الحاكم، وهو رجل يحكم بينهم[1].

ب ـ **الحض على القتال**: وهو أن يقف الخطيب في قومه ويحثهم على قتال الأعداء؛ لأي سبب كان، كتحريض هانىء بن قبيصة بن مسعود قومه بكرا في ذي قار[2].

جـ ـ **خطب إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب وحمالة الدماء**: ونعني بذلك الخطب التي تطفىء نار وهيجان الحروب، ومن ثم تحمل الديات. كخطبة قيس بن خارجة بن سنان؛ التي قالها إثر حرب داحس والغبراء، وقيل: إنه خطب يوماً إلى الليل، وما أعاد فيها كلمة ولا معنى. وقد سماها العرب «العذراء»، لأنه كان أبا عُذْرها[3].

د ـ **خطب المناسبات الاجتماعية كالزواج والإصهار**: كان من عادة العرب أن يلقي خطيب خطبةً يبيّن فيها مناقبَ الخاطب، ثم يجيب رجل من أهل المرأة. والسنة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب. يُؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ما يتصعَّدُني كلامٌ كما تتصعَّدني خطبةُ النكاح»[4]. ومن خطب المناسبات أيضاً خطب التعازي.

هـ ـ **خطب الإرشاد والتوجيه**: ونعني بذلك الخطب التي يلقيها من له منزلة رفيعة بقومه، فينصحهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الخير وهي أشبه ما تكون بالخطب الدينية، كالخطب التي خطبها كعب بن لؤيّ، وكان يخطب على العرب عامة، ويحضُّ كنانة على البرِّ، فلما مات أكبروا موته، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي إلى عام الفيل[5].

---

(١) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، ص ٦٧. والجلاء: أن ينكشف الأمر وينجلي.

(٢) كانت الغلبة فيه لبكر على العجم. وكانت هذه الوقعة وقد بُعث النبي ﷺ، وخبّر أصحابه بها فقال: «اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا». (العقد الفريد ٦/١١١ ـ ١١٧).

(٣) البيان والتبيين ١/١١٦ ـ ١١٧ و ٣٤٨. وأبو عذرها: أي أول من قالها، كأنه افتضّه أولاً، كأن تقول: أبو عذر هذا الكلام: أي أول من قاله. (اللسان، عذر). والنائرة: الحقد والعداوة والشحناء. (اللسان نير).

(٤) البيان والتبيين ١/١١٧. وتصعده الأمر: شقّ عليه.

(٥) البيان والتبيين ١/٣٥١. يقال: إن أول من قال في خطابته: «أما بعد» أي بعد دعائي لك، كعب بن لؤي=

و ـ **خطب المحافل والوفود**: وهي الخطب التي كانت تلقى في الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء، وتتضمن مفاخر القبائل ومحامدها، ومن ذلك خطب إياد وتميم اللتين لهما خصلة في الخطابة ليست لأحد من العرب؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي روى كلام قُس بن ساعدة وموقفه على جَمَلِهِ بعكاظ وموعظته، وهو الذي روَّاه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقُسْ بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث. ولذلك كان خطيب العرب قاطبة[1]. ومن ذلك أيضاً، ما نعرفه عن وفود القبائل التي قدمت إلى الرسول ﷺ، ومعها خطباؤها، من هذه القبائل قبيلة تميم، وليس لأحد في الخطابة مثل الذي لبني تميم، ومن خطبائها عمرو بن الأهتم، وهو عمرو بن سنان التميمي؛ الذي وفد على الرسول ﷺ، وأخذ يناديه من وراء الحجرات. وقد سأل الرسول ﷺ عمراً عن الزبرقان بن بدر وهو الحصين[2]. ومن خطباء وفد بني تميم ـ أيضاً ـ عُطارد بن حاجب بن زُرارة؛ الذي قام خطيباً بين يدي الرسول ﷺ، وما أكثر مثل هذه الوفود ـ لغير الرسول ﷺ ـ من أمثال كسرى الملك[3].

ز ـ **سجع الكهان**: وهو نوع خاص من ضروب الكلام، خصت به الخطابة في الجاهلية، ونهى عنه الإسلام. والسجع: هو الكلام المقفّى، أي: أن يتكلم الخطيب بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن. وسمي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله. وقد نهى الرسول ﷺ عن السجع؛ لأنه من صفة الكهان في الجاهلية، وكره

---

= ابن غالب من قريش من عدنان، (انظر: لسان العرب وقاموس المحيط): وكعب جد جاهلي، خطيب... كان عظيم القدر عند العرب، ظلّوا يؤرخون بموته إلى أن هجم الأحباش بأفيالهم على الحجاز عام ٥٧٠ م، وقد أرادوا هدم الكعبة. وكانت سدانتها إذ ذاك لعبد المطلب جدّ النبي ﷺ، فيه ولد النبي ﷺ. وكعب أول من سن الاجتماع يوم الجمعة، وكان اسمه «يوم العروبة» فكانت قريش تجتمع إليه فيه، فيخطبهم ويعظهم، من نسله: بنو سعد وبنو سهل وبنو العاص وبنو نفيل من بطون قريش. ت: ٣٧٣ ق.هـ/ ٤٥٤ م. (تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٦. والأعلام ٥/٢٢٨).

(١) البيان والتبيين ١/٥٢ ـ ٥٣. والفن ومذاهبه، ص ٢٧.

(٢) الزبرقان لقب الحصين، لقب به لحسن وجهه، والزبرقان: القمر.

(٣) انظر: البيان والتبيين ١/٥٢ـ ٥٣. والعقد الفريد: ١/٢٧٤ وما بعدها (كتاب الجمانة في الوفود). و ٤/٩٠ و ٦/١٢٣.

النبي عليه الصلاة والسلام السجع في الكلام والدعاء؛ لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه[1]. ويقول الجاحظ: وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أنَّ كهَّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدَّعون الكِهانة، وأنَّ مع كل واحد منهم رَئِيّاً من الجن مثل: حازي جهينة، وشِقّ بن أنمار بن نزار، وسَطيح بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب، وعُزّى سَلِمة بن أبي حية، وأشباههم، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[2]. وهناك العديد من هؤلاء - أيضاً - من أمثال: ضَمْرة، وهَرِم بن قطبة، والأقرع بن حابس، ونُفيل بن عبد العزى، وربيعة بن حُذار؛ الذين كانوا يحكمون وينفِّرون بالأسجاع[3].

هذه هي أهم الأغراض التي تناولتها الخطابة في العصر الجاهلي، وإني أود أن أوضح أن الشعر الجاهلي قد وصل إلينا عن طريق الرواة فحملوا ووضعوا الكثير منه، فما بالنا بالنثر الذي لم يأخذ العناية والاهتمام من الرواة كالشعر، وخاصة أنه يخلو من الأوزان والقوافي التي تسهّل عملية حفظ الشعر، فإني أرى أن قلّة من المادة النثرية تصح نسبتها إلى العصر الجاهلي، وبخاصة أن النثر قريب العهد من عصر صدر الإسلام، والذي اهتم به الرواة، وصحت نسبته.

وعلى أية حال، فإن الخطابة، تعتبر مظهراً من المظاهر البارزة في العصر الجاهلي، دلّ على فصاحة العرب وبلاغتهم وبيانهم، اتخذه العرب سبيلاً للإقناع والتأثير، وسار هذا الفن في فترة من الفترات - في العصر الجاهلي - جنباً إلى جنب مع الفن الشعري، وخير دليل على عظم قدر الخطابة وجلالتها عند العرب، «أنه لما بعث النبي ﷺ بالقرآن المعجز نظمُه، المحكم تأليفه، وأعجب قريشاً ما سمعوا منه: قالوا: ما هذا إلا سحر»... وكذلك قال النبي ﷺ في عمرو بن الأهتم التميمي لما أعجبه كلامه: «إنَّ من البيان لسحرا»[4]. أي: أن منه لنوعاً يحل من العقول والقلوب

---

(١) لسان العرب (سجع). ولمزيد من التفصيل انظر: خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، دراسة تحليلية، د. هاشم مناع، ص ١٥ - ٢٢.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٩٠.

(٤) العقد الفريد ٦/ ١٢٣. وانظر الحديث: شرح الجامع الصغير للسيوطي ٢/ ٥٢٤ (رقم ٢٤٥٦).

في التمويه محل السحر، وأن بعض البيان سحر؛ لأن صاحبه يوضح المشكل ويكشف بحسن بيانه عن حقيقته فيستميل القلوب، كما يستميل بالسحر الحقيقي، فإن الساحر بسحره يزين الباطل في عين المسحور حتى يراه حقاً، فكذا المتكلم بمهارته في البيان، وتفننه في البلاغة، وترصيف النظم يسلُبُ عقل السامع، ويشغله عن التفكير فيه، والتدبر له حتى يخيل إليه الباطل حقاً والحق باطلاً. . .[1].

## ٢ ـ أقوال في الخطب:

من مظاهر الخطابة: الخيال الذي يتجلى بقوة الإقناع والتأثير وسلب العقول والقلوب، ومن أساسيات الخطابة: البلاغة، وهي الإيجاز، ويختلف هذا من غرض إلى غرض، فالخطب في إصلاح ذات البين تتطلب الإكثار في غير خَطَل، والإطالة في غير مَلَل، ومن ثم يجب على الخطيب أن يميز في صدر كلامه فحوى حاجته، كأن يفرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة الصلح مثلاً، حتى يكون لكل فنّ من ذلك صدر يدل على عَجُزِه، فإنه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدتَ، والغرض الذي إليه نزعت[2]. وعلى الخطيب أن يكون فصيحاً، فأفصح الكلام ما أفصح به الخطيب عن معانيه، ولم يحوج السامع إلى تفسير له، شريطة أن لا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ العامة مُشْبهاً، ولذلك قال بعضهم في وصف البلاغة: «هي أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى، فلا يكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ»[3]. «ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع في موضعه، وعند سماحة القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لافي جميعه، فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه»[4]. ويقال: رأس الخطابة الطبع، أي: أن يؤتى بالخطبة من غير تكلف، وعمودها الدُّربة، أي: أن

---

(١) المناوي، فيض القدير على شرح الجامع الصغير ٢/٥٢٤.

(٢) البيان والتبيين ١/١١٦.

(٣) نقدالنثر، ص ١٠٥.

(٤) السابق، ص ١٠٧.

يكون الخطيب حاذقاً بصناعته. وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبة مقرونـة بقلّة الاستكراه[1]. يقـول أبو داود بن حَـرِيز: (من الكامل)

يَـرْمُون بـالخُطَبِ الـطِّوالِ وتارةً ... وَحْيَ المَلاَحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ [2]

ولم يكن إعداد الخطبة سهلاً، ولم تكن في معظمها ارتجالاً، بل كانت كالشعر في تجويدها، بل تفوق ذلك في بعض الأحيان. ويعقد الجاحظ مقارنة طريفة بين الشعر والخطابة في التجويد والتحبير، حيث يقول: «ومن تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة، وجوائز الملوك والسادة، في (القصائد الطّوال)... التي تنشد يوم الحفل، لم يجد بُدّاً من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام، وتركوا المجهود، ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طـوال القصائـد في صناعـة طوال الخُـطب، بل كـان الكلام البـائِت عنـدهم كالمقتضب[3]، اقتداراً عليه،... وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور، ميّثوه[4] في صدورهم، وقيّدوه في أنفسهم، فإذا (أتموا ذلك) أبرزوه محكّكاً منقحاً، ومصفىً من الأدناس مهذباً»[5].

ونجد كثيراً من الشعراء الذين وصفوا بأشعارهم، فصاحة اللسان، وبـلاغة المنطق، وبيان الكلام، منهم قيس بن عاصم المنقري الذي يذكر ما في بني منقر من الخطابة في شعره حيث يقول: (من الكامل)

إنِّي امـرؤٌ لا يَعْتَـري خُلُقـي ... دَنَسٌ يُـفَـنِّـدُهُ ولا أفْـنُ[6]

مِنْ مِنْقَـرٍ في بيتِ مَكْـرُمَـةٍ ... والأصـلُ ينبتُ حـولَـهُ الغُصْنُ

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٤. والصناعتين، ص ٧٢.

(٢) المصدران السابقان. فالملاحظ: العيون، لحظه لحظاً: نظره بمؤخر عينه. (اللسان، لحظ).

(٣) الاقتضاب في الكلام: هو التكلم من غير تهيئة له أو إعداد. أي: الارتجال. (اللسان، قضب).

(٤) ميثوه: ذللوه وأعدوه ولينوه.

(٥) البيان والتبيين ٢/١٤.

(٦) يفند: يضعف، والأفن: ضعف الرأي.

خـطبـاءُ حينَ يقـومُ قـائلُهـمْ     بِيضُ الـوجـوهِ مَصـاقِـعٌ لُسْنُ[1]
لا يَفْـطُنُـونَ لِعَيْبِ جَـارِهِـمُ     وَهُمُ لحفظِ جِـوَارهِمْ فُـطْنُ[2]

وقد أطلق العرب على خطبهم أسماء، عرفت بهـا، لجودتها وبلاغتها، فمن خطب العرب (العجوز) وهي لآل رَقَبة، ومتى تكلموا، فلا بدّ لهم منها أو من بعضها. و (العذراء) وهي خطبة قيس بن خارجـة لأنه كـان أبا عُـذْرِها[3]. ونجـد كثيراً من الأشعار في كتب الأدب، التي ذكرت الخطباء ووصفتهم[4]. ولما كان الأمر كذلك، فلا بدّ من صفات يتصف بها الخطيب حتى يكون مؤثـراً، مستميلاً لقلوب النـاس وعقولهم، ولا بد له ـ أيضاً ـ من معرفة الأعراف والتقاليـد المتبعة في شأن طبيعة الخطبة، كأن يكون الخطيب ـ مثلاً ـ واقفاً في خطبـة الإرشاد والتـوجيه، في حين يكون قاعداً في خطبة النكاح[5].

## ٣ ـ صفات الخطيب:

عرفنا أن الشعراء والخطباء كانوا يفدون إلى أسواق العرب، وكل منهم يظهر براعته، ويثبت وجوده، هذا بشعره، وذاك بخطابته، وكان من عادة العرب التجمع حول الشعراء والخطباء، وكما عرفنا من أن النابغة كان يضرب له قبة من الأَدم، فلا بدّ أن الخطباء المشهورين كانوا كذلك، أو أنهم يقفون في أماكن معروفة وبارزة، كما هو الحال بالنسبة لشعراء النقائض في المربد وغيره، حين أحيا هؤلاء الشعراء العصبية الجاهلية من جـديد.

وكان على الخطيب أن يرتدي زياً خاصاً، وأخص بالذكر العمامة؛ التي كانت من عادات العرب[6]. ويختار مكاناً يليق به، حتّى يستحوذ على قلوب جماهيره،

---

(١) المصاقع: مفردها المِصقع، العالي الصوت، البليغ، ويقال: «خطيبٌ مِصْقَعٌ» أي: بليغ.

(٢) المصدر السابق ١ (٢١٨ ـ ٢١٩). وانظر البيت الأخير في اللسان (فطن).

(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٨. وكانت هذه الخطبة في حرب داحس والغبراء. (السابق ١/١١٦).

(٤) انظر مثلاً: المصدر السابق ١/٣٤ وما بعدها، و١/١٧٦ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق ١/١١٨.

(٦) المصدر السابق ٣/١٠٠. ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «العمائم تيجان العرب». ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: «جمال الرجل في عمته». المصدر السابق ٢/٨٨.

فكلّ خطيب يخطب واقفاً، حيث يتصعد أرضاً أو ربوة أو مكاناً مرتفعاً، أو يركب دابة ويجوب بها في المواسم العظام، والمجامع الكبار، وكان يأخذ بمخصرته عند مناقلة الكلام، أي: ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه، من عصا أو عكازة وغير ذلك[١]، عند مراجعة الكلام في صخب، وكان يرفع يده ويضعها، ويستعين بالإشارة على توصيل العبارة، وغالباً ما يكون ذلك بيده، أو بما يتوكأ عليه[٢]. ومما كان يزيد في حسن الخطابة وجلالة موقعها جهارة الصوت: فإنه من أجلّ أوصاف الخطباء، وقد ذمّوا ضئيل الصوت، من أجل هذا؛ تشدقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغره[٣]؛ ولذلك قال الشاعر: (من البسيط)

إنْ صاح يوماً حَسِبْتَ ٱلصَّخْرَ منحدراً والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطمُ[٤]

ولا يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت جهيراً، مع سلامة مخارج الحروف. وليس ينبغي للخطيب أن يُحْصَرَ[٥] عند رمي الناس بأبصارهم إليه، ولا يعبأ بالكلام عند إقبالهم عليه، وينبغي للخطيب أن يتقي خيانة البديهة في أوقات الارتجال، وأن يُقِلَّ التنحنح، والسعال، والعبث باللحية، فإنّ ذلك من دلائل العيّ. ومما يدل أيضاً على الحصر وتصعُّب القولِ وشدّته على القائم به العرق حين

(١) العصا مظهر من مظاهر الخطابة، «ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعِصِيّ، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه». «والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة». (البيان والتبيين ٣/ ٣٠ و ٣٢). وقد ورد في القرآن الكريم ذكر منسأة سيدنا سليمان عليه السلام (آية ١٤ سورة سبأ). وقد أفرد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين باباً خاصاً لمخاصر البلغاء وعصيّ الخطباء، ويقول: «والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفدتها». ثم يقول: «وأما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسي كله بخصالها لفعلت». انظر كتاب العصا: (البيان والتبيين ٣/ ٥ ـ ١٢٤). وانظر: كتاب العصا لأسامة بن منقذ، تحقيق د. حسن عباس. وكتاب العصا تحقيق عبد السلام هارون.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٢٠. ونقد النثر، ص ١٠٩.

(٤) نقد النثر، ص ١٠٩.

(٥) الحصر في الكلام: العيُّ فيه.

يتصبب[1]. ويشترط في الخطيب أيضاً أن يكون لسانه سالماً من العيوب التي تشين الألفاظ، فلا يكون ألثغ[2]، ولا فأفاء[3]، ولا ذا رُتَّةٍ[4]، ولا تمتاماً[5]، ولا ذا حُبسة[6]، ولا ذا لَفف[7]، فإن ذلك أجمع مما يذهب ببهاء الكلام، ويهجّن البلاغة، وينقص حلاوة النطق[8]. ويضع الجاحظ قواعد للخطابة، حسب المقام الذي يكون فيه الخطيب، فيشترط فيه أن:

يأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام [9]،ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يقفَّ، وبالأرجاز عند المتح [10]، وعند مجاثاة[11] الخصم، وساعةَ المشاولة[12]، وفي نفس المجادلة والمحاورة. وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة[13]، واستعمال المنثور في خطب الحَمَالة[14]،وفي مقامات الصلح، وسلٍّ السخيمة[15]، والقول عند المعاقدة والمعاهدة[16]، وترك اللفظ يجري على سجيته

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) الألثغ: الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء. وقيل الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة: القاف، والسين، واللام، والراء. انظر: البيان والتبيين ١/٣٤.

(٣) الفأفاء: الذي يكثر ترداد الفاء إذا تكلم.

(٤) الرتة: أي العجلة في الكلام، وقلة أناة، وقيل: الرتة أن يقلب اللام ياء.

(٥) التمتام: من يردد التاء في كلامه.

(٦) الحبسة: تعذر الكلام عند إرادته.

(٧) اللفف في الكلام: الثقل والعيّ مع ضعف.

(٨) نقد النثر، ص ١١١ ـ ١١٢ وانظر الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٢ ـ ١٣.

(٩) المخصرة: ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه، من عصا أو رمح وغير ذلك. ومناقلة الكلام: مراجعته في صخب.

(١٠) المتح: الاستقاء من أعلى البئر.

(١١) المجاثاة: الجلوس على الركبتين للخصومة.

(١٢) المشاولة: أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرماح.

(١٣) المنافرة: المفاخرة بكثرة عدد القوم. والمفاخرة: أعم.

(١٤) الحمالة: الدية.

(١٥) السل: الانتزاع. والسخيمة: الأحقاد والضغائن.

(١٦) المعاقدة: المعاهدة والميثاق.

وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة، ولا اجتلاب تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن [١].

**ومجمل القول**: إن الخطيب الناجح هو: الخطيب الذي يستطيع أن يؤثر في السامعين، ويجذب عيون الناظرين بأسلوبه وطريقة أدائه، وإظهار ملامحه، وحركات جوارحه، وما يلزمه ـ أيضاً ـ من عُدة كأن يعتصب بعمامة، ويختصر بعصا أو رمح أو ما شابه، وأن يكون قادراً على توصيل هدفه ومقاله في مقامه وغرضه، إلى جانب وفرة ثقافته، وغزير اطلاعه بحيث يدرك ما يحيط بموضوعه الذي يتحدث عنه، ويُلمُّ بجميع الموضوعات الأخرى ذات الصلة بموضوعه وما يشابهه، ناهيك عما يجب أن يكون له من فطنة، ويتصف به من حذاقة، ويتميز به من لياقة، وحسن تصرف في الأفكار والأسلوب [٢].

## ٤ ـ أشهر الخطباء:

من يقرأ كتب الأدب والتاريخ يجدها حافلة بذكر عدد غفير من الخطباء المشهورين؛ الذين كان لهم تأثير قوي في حياة العرب في الجاهلية، وصدر الإسلام، فمنهم من عُرف بتحريضه على القتال، وتحكيمه في الخصومات، ومنهم من اشتهر بالمنافرات والمفاخرات، ومنهم من برز في إصلاح ذات البين والدعوة إلى التوحيد، ومنهم من ظهر في وفادته على الملوك والأمراء، ومنهم من عرف بالوصايا، ومنهم من اشتهر بسجعه، ومنهم من جمع بين هذه الأمور كلها.

ونجد أن كل قبيلة كانت حريصة على اتخاذ خطبائها ـ وشعرائها ـ الذين هم عماد القبيلة، وجناحها: الخطباء بخطبهم، والشعراء بقصائدهم، ينافحون، وينافرون، ويفاخرون، ويدافعون عن مكانة القبيلة. . سواء في الأسواق العربية، أو بين القبائل، أو أثناء الحروب، أو في الأماكن التي تخصص للاجتماع، والتشاور، كما هو الحال في مكة، حيث دار الندوة؛ التي بابها إلى مسجد الكعبة ـ وهي دار

(١) البيان والتبيين ٣/٦.

(٢) ارجع إلى باب «مكانة البلغاء» في هذا البحث لمزيد من التفصيل.

قصي بن كلاب ـ التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، ولا تتخذ قراراً أو تعرض مسألة إلّا فيها[١]. ومن أشهر خطبائها: عتبة بن ربيعة[٢]، وسهيل بن عمرو الأعلم[٣]، الذي قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرسول ﷺ: «يا رسول الله، انزع ثنيَّتيه السُّفْلَيَيْن حتى يدلعَ لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً[٤]، فقال الرسول ﷺ: لا أمثِّل فيمثِّل اللهُ بي، وإن كنتُ نبياً. دَعْهُ يا عمر! فعسى أن يقومَ مقاماً تحمدُه»[٥]. وهناك ـ أيضاً ـ من الخطباء هاشم بن عبد مناف، ونُفَيْلُ بن عبد العُزّى، جدّ عمر بن الخطاب؛ الذي تنافر إليه عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ وحَرْب بن أميَّة، فنفر عبد المطلب، أي: حكم لعبد المطلب[٦]، والمنافرة: المحاكمة والمفاخرة[٧].

أما خطباء المدينة فأشهرهم قَيْس بن شَمَّاس ـ من الأنصار ـ وابنه ثابت خطيب

---

(١) السيرة النبوية ١/١٢٥ و ١٣٠ و ٤٨٠.

(٢) وهو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، من أشراف قريش، خطيبها يوم بدر (انظر: السيرة النبوية ١/٢٦٤ و٢٩٣ و ٢٩٥ وأماكن أخرى متفرقة).

(٣) وهو أبو زيد بن عمرو بن عبد شمس، خطيب قريش، وكان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الإسلام، تولّى أمر الصلح بالحديبية، أعطاه الرسول ﷺ مائة من الإبل. (انظر: السيرة النبوية ٢/٦ و٣٠٨ و٣١٦ و٣١٨ و٤٩٣. والبيان والتبيين ١/٥٨، و٣١٧).

(٤) وقد ورد: «وإنما قال ذلك لأن سهيلاً كان أعلم من شفته السفلى». والأعلم: مشقوق الشفة العليا، والأفلح هو مشقوق الشفة السفلىٰ. ثنيتان: والجمع ثنايا: وهي أسنان مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل. (البيان والتبيين ١/٥٨).

(٥) البيان والتبيين ١/٥٨ و ٣١٧. وقد أورد الجاحظ أن سهيلاً هو صاحب المقولة المشهورة؛ التي قالها حين بلغه وفاة الرسول ﷺ وهاج أهل مكة. فقام وقال: «أيها الناس؛ إن يكن محمد قد مات فالله حي لم يمت. وقد علمتم أن أكثركم قَتَباً في برٍّ، وجاريةً في بحر فأَقِرّوا أميركم وأنا ضامن إن لم يتمّ الأمر أن أردّها عليكم»، فسكن الناس. (القتب: رحل صغير على قدر السنام. وعنى كثرة إبله وسفره في التجارة). انظر: البيان والتبيين ١/٣١٧. ونحن نعرف أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي قال: «إنه من كان يعبد محمداً، فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت». السيرة النبوية ٢/٦٥٦.

(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٤.

(٧) اللسان (نفر). وفيه: المنفور: المغلوب. والنافر: الغالب، ونفّر الحاكم أحدهما على صاحبه تنفيراً، أي قضى عليه بالغلبة. وكذلك أنفره، والنُّفارة: ما أخذ النافر من المنفور.

الرسول ﷺ[١]، وسعد بن الربيع، وهو الذي اعترضت ابنته النبي ﷺ فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد: سعد بن الربيع[٢]، ومنهم أيضاً خال حسان بن ثابت (مسلمة بن مخلد بن الصامت). وفيه يقول: (من الخفيف)

إنَّ خَالِي خطيبُ جابيةِ الجَوْ ... لان عند النُّعمانِ حينَ يقومُ[٣]

أمّا خطباء القبائل فأشهرهم: عمرو بن عمار الطائي، خطيب مَذْحِجَ كلِّها؛ الذي بلغ النعمان خبره، وحسن حديثه، فحمله على منادمته[٤]، ثم قتله. وقد رثاه أبو قُرْدُودة الطائي بقوله: (من البسيط)

إنِّي نهيتُ ابنَ عمّارٍ وقلتُ لـهُ: ... لا تأمَنَنْ أحمرَ العينينِ والشَّعَرَهْ

إنَّ الملوكَ متَى تنزلْ بساحتِهمْ ... تَطِرْ بنارِكَ من نيرانِهمْ شَرَرَهْ

يا جِفنة كإزاءِ الحوضِ قَدْ هَدَموا ... وَمَنْطِقاً مثلَ وشيِ اليَمْنَةِ الحِبَرَهْ[٥]

ونجد هانىء بن قَبِيصة خطيب بكر، في يوم ذي قار، وكانت الغلبة لقومه على العجم[٦]، وزهير بن جَنَاب الكلبي، خطيب وشاعر كلب وقضاعة،[٧] وربيعة بن جُذار الأسدي خطيب بني أسد[٨]، وعامر بن الظَّرِب العَدواني، كان حكيماً،

---

(١) وقد آخى الرسول ﷺ بين ثابت وعمار بن ياسر. (البيان والتبيين ١/٣٥٨. والسيرة النبوية ١/٥٠٦).

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج... من نقباء الخزرج الإثني عشر، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً. (السيرة النبوية ١/٤٤٢، ٤٥٨).

(٣) الديوان، ص ٤٣٣. والبيان والتبيين ١/٣٦٠. جابية الجولان: من أعمال دمشق. (معجم البلدان ٢/٩١). والنعمان: من بني جفنة الغساسنة. انظر الديوان، ص ٢٦٠.

(٤) كان النعمان أحمر العينين، أحمر الجلد، أحمر الشعر، وكان شديد العربدة، قتالاً للندماء، وكان أبو قردودة الطائي قد نهى عمرو الطائي عن منادمة النعمان، (البيان والتبيين ١/٣٤٩).

(٥) البيان والتبيين ١/٢٢٢، ٣٤٩. الجفنة: القصعة الكبيرة. وإزاء الحوض: مصب الدلو فيه. ومنطق: أي صاحب منطق وبلاغة. الوشي: نقش الثوب ونمنمته. واليمنة: ناحية اليمن. أي: أن الوشي منسوب لهذه الناحية، الحبرة: ضرب من برود اليمن. (اللسان، حبر).

(٦) العقد الفريد (٦/١١١ ـ ١١٧).

(٧) طبقات الشعراء، ص ١٢. والشعر والشعراء، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥. والعقد الفريد ١/٢٣٥ و ٣/٣٢٣. والمؤتلف والمختلف، ص ١٩٠. والعمدة ١/١٩٠.

(٨) البيان والتبيين ١/٢٩٠ و ٣٦٥.

وخطيباً، ورئيساً، وَحَكَم العرب بعكاظ، والجاهلية. وقيل: لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب، وهم: عامر بن الظَّرِب، وربيعة بن الحارث، وكليب بن ربيعة[١]. وكان عامر قائد معدّ يوم البيداء[٢]، حين تمذحجت مَذْحِج وسارت إلى تِهامة، وهي أول وقعة كانت بين تِهامة واليمن[٣]. وإياه عنى ذو الإصبع العَدواني حين قال: (من الهزج)

ومنهم حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ مَا يَقْضِي

يعني عامراً الظَّرِب؛ الذي كان حكماً للعرب تحتكم إليه[٤]. ويقال: إنه لمّا أسن واعتراه النسيان، أمر ابنته[٥] أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَّ عن الحكم، أي نسيه، وزاغ عن القصد[٦]. وكان يقول: «دعوا الرأي يغبّ حتّى يختمر، وإياكم والرأي الفطير». يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه[٧]. ومن الخطباء البلغاء والحكّام الرؤساء: أكثم بن صيفيّ، وهَرِم بن قُطْبة، ولبيد بن ربيعة وكان من الشعراء[٨]. فأكثم بن صيفي كان حكيم العرب، وخطيب تميم[٩]، والهَرِم بن قُطْبة بن سيّار الفَزاريّ، أحد حكام العرب، وصاحب الحكم المعروف بين عَلْقمة بن عُلاثة

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ و ٣/٣٨. والعقد الفريد ٣/٣٠٣ و ٦/٦٩.
(٢) البيداء: اسم لأرض ملساء بين مكة والمدينة. (معجم البلدان ١/٥٢٣).
(٣) العقد الفريد ٦/٦٩.
(٤) الأغاني ٣/٨٦.
(٥) كانت من حكيمات بنات العرب.
(٦) البيان والتبيين ٣/٣٨. والعقد الفريد ٣/٢٩. وقد قال عامر: «الرأيُ نائم، والهوى يقظان، فمن هنالك يغلب الهوى الرأي». (البيان والتبيين ١/٢٦٤). وقال: «يا معشرَ عَدْوان، إنَّ الخير أَلُوفٌ عَزوفٌ، ولن يفارق صاحبه حتى يفارقَه، وإنِّي لم أكن حليماً حتّى اتبعتُ الحلماء، ولم أكن سيدَكم حتى تعبَّدْتُ لكم». (البيان والتبيين ١/٤٠١ و ٢/١٩٩). وله خطبة طويلة في خطبة ابنته عَمْرة. (البيان والتبيين ٢/٧٧). وقال في الحكمة: «اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكر لك». (البيان والتبيين ١/٢٦٥).
(٧) العقد الفريد ١/٦٠.
(٨) البيان والتبيين ١/٣٦٥.
(٩) العقد الفريد ١/٨٧ و ٨٩ و ١٨٩.

وعَامر بن الطُّفيْـلِ حين تنافرا، وتناحرا على الرئاسة، وهما من بني عامر[1]، وفي ذلك يقول لبيد: (من الرجز)

يـا هَـرِمَ ابنَ الأكْـرمينَ مَنْصِبَـا
إنَّـك قَـدْ وَلِيتَ حُكْمـاً مُعْجِبَـا
فاَحكمْ وصوِّبْ رأيَ مَنْ تَصَوَّبَا[2]

وقال فيه شاعر آخر: (من الطّويل)

قَضَى هـرمٌ يـومَ الـمريـرةِ بينهـمْ ... قضـاءَ امرىءٍ بـالأوَّليَّـةِ عَـالِـمِ[3]
قضى ثمَّ ولَّى الحكمَ مَنْ كـانَ أهـلَه ... وليسَ ذُنَابَى الرِّيشِ مثلَ القوادِمِ[4]

ويقال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظر إلى الهرِمِ بن قُطْبَة، وقد عرف تقديم العرب له في الحُكم والعلم، وسأله عن منافرته بين علقمة وعامر، فلما أجابه، قال له: «لهذا العقل تحاكمت العرب إليك»[5].

أما لبيد الشاعر فقد كان شاعراً خطيباً مفوَّهاً، يقول: (من الطويل)

وَأخْلُفُ قُسّـاً لـيتنِي، وَلَـوَ آنَّـني ... وَأَعْيـا على لُقْمـانَ حُكْمُ التَّدبُّرِ[6]

ويقول: (من الرمل)

وَمَـقَـامٍ ضَـيِّـقٍ فَـرَّجْـتُـهُ ... بـبـيـانٍ ولـسـانٍ وَجَـدَلْ[7]

---

(1) انظر: الأغاني ١٦/٢١٥ وما بعدها (منافرة عامر وعلقمة). والشعر والشعراء، ص ١٥١ و١٩٢.

(2) الديوان، ص ٣٨. والبيان والتبيين ١/١٠٩. (وانظر الديوان: أرجوزة أخرى، ص ١٣٧).

(3) الأولية: مفاخر الآباء.

(4) البيان والتبيين ١/١٠٩. ذنابي الريش: أربع ريشات في جناح الطائر بعد الخوافي. والخوافي: أربع ريشات بعد القوادم.

(5) البيان والتبيين ١/٢٣٧.

(6) وقس: هو قُس بن ساعدة الإيادي. ولقمان: صاحب النسور. وحكم التدبر: ما يطلبه ويتمناه. أي: أخلف قساً ما تمناه بقوله: ليتني، ولو اني: لم يظفر بما تمنى. وأما لقمان فلم تغن عنه حكمته وتدبره شيئاً. وهذا البيت من قصيدة طويلة، قالها يذكر من فقد من قومه ومن سادات العرب، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان إزاءه. (الديوان ص ٦٧ ـ ٧٢. والبيان والتبيين ١/١٨٩).

(7) من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه ويأسى لفقد أخيه أربد. (الديوان، ص ١٤٧. والبيان والتبيين ١/٢٦٥). وانظر الديوان: قصيدة أخرى، ص ١٢١. والبيان والتبيين ١/٢٦٦ و٢/١٧٠.

ومن خطباء غَطَفَان في الجاهلية: خُويلد بن عمرو، خطيب يوم الفُجّار، والعُشَراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سُمَيّ بن مازن بن فزارة[١]. ونجد قيس بن خارجة بن سنان؛ الذي كان خطيب حرب داحس والغبراء، قد خطب يوماً إلى الليل، وما أعاد فيها كلمة ولا معنى، وقد سماها العرب: «العذراء»[٢].

وقد ذكرنا أن لإياد وتميم خصلة في الخطب ليست لأحد من العرب، «لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قُسّ بن ساعدة»[٣] ومن خطباء إياد أيضاً: لَقِيط بن معبد، وهند بنت الخُسِّ، وجُمعة بنت حابس[٤].

ومن خطباء بني تميم، عمرو بن الأهتم، وهو الذي قيل فيه: «إنما شعره حُلَلٌ منشَّرة بين أيدي الملوك، تأخذ منه ما شاءت». «ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه»[٥]. وقد وفد على الرسول ﷺ، وسأله عن الزِّبرقان بن بدر[٦]. وكان عُطارد بن حاجب بن زُرارة خطيباً عند النبي ﷺ [٧].

أما الخطباء الذين كانوا يدَّعون الكهانة، وأن مع كلٍّ واحد منهم رِئياً من الجن، فمنهم: حازي جهينة، وشِقّ بن أنمار بن نزار، وسَطِيح بن ربيعة بن مسعود بن مازن، وعُزّى سَلِمة، وضَمْرة بن ضَمْرة، وهَرِم بن قُطْبة، والأقرع بن حابس، ونفيل بن عبد العزَّى، وغيرهم كثير، وكلّهم كانوا يحكمون وينفِّرون بالأسجاع[٨]. ويقال: إن أكهن العرب وأسجعهم سَلمة بن أبي حيَّة، وهو الذي يقال له عُزّى سَلمة.

ومن خطباء اليمن الصَّبَّاح بن شُفَيّ الحميريّ؛ الذي كان أخطب العرب، وكان منهم الخطيب الأسود بن كعب، الكذاب العنسيّ[٩]، وطليحة بن خويلد الأسدي،

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ ـ ١١٧ و ٣٤٨.
(٣) المصدر السابق ١/٥٢.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق ١/٣٥٥.
(٦) المصدر السابق ١/٥٣.
(٧) المصدر السابق ١/٣٢٨.
(٨) المصدر السابق ١/٢٩٠.
(٩) كان قد تنبأ بصنعاء ومسيلمة الكذاب تنبأ باليمامة. (السيرة النبوية ٢/٥٩٩ ـ ٦٠٠).

الذي كان خطيباً وشاعراً وسجّاعاً كاهناً ناسباً[1].

ونجد طائفة أخرى من الخطباء والكهان، أمثال المأمور الحارثيّ، والدّيّان بن عبد المدان. ثم نجد بعض القدماء في الحكمة والرياسة والخطابة، مثل: عُبيد بن شريّة الجرهمي، وأسْقُفُ نجران، وأُكيدِرُ صاحب دومة الجندل، وأُفَيْعَى نجران، وذَرِب بن حَوْط، وعُلَيم بن جناب، وعمرو بن ربيعة وهو لُحَيٌّ بن حارثة بن عمرو مُزَيقياء، وجَذيمة بن مالك الأبرش[2]. ونكتفي بهذا القدر من ذكر أسماء الخطباء، لننتقل إلى دراسة بعض النماذج من خطبهم، وخطب غيرهم ممن لم نذكرهم في هذا الموضع.

## مكانة البلغاء:

قد يتسرع القارىء بالحكم على مكانة الشعراء على مكانة البلغاء؛ فإذا طلب منه تفضيل فئة على أخرى، قد لا يبدو له الأمر سهلاً هيناً، ولكشف حقيقة هذا الأمر لا بدّ من تسليط الضوء على قضية النثر ـ لا الشعر ـ لأنها هي المعنية بالدراسة.

يقول أبوعمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوِّف من كثرة عددهم... فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبةً ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، **صار الخطيب عندهم فوق الشاعر**[3].

ويناقش المرزوقي قضية تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء بإسهاب، ويرجع ذلك إلى ما يلي[4]:

١ ـ إن ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتنان فيها،

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩. تنبأ طليحة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. (تاريخ اليعقوبي ٢/١٢٩). وقد أورد اليعقوبي، أسماء كثيرة من خطباء العرب. (انظر تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٨).

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٢.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١.

(٤) شـرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ١/١٦ ـ ١٨.

ويَعُدّونها أكملَ أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة. فإذا وقف أحدُهم بين السِّماطيْن[١] لحصولِ تنافرٍ أو تضاغُنٍ أو تظالم أو تشاجر، فأحسن الاقتضاب[٢] عند البداهة، وأنجعَ في الإسهاب وقت الإطالة، أو اعتلى في ذِرْوة منبرٍ فتصرّف في ضروب من تخْشين القول وتليينه، داعياً إلى طاعةٍ أو مستصلحاً لرعية، أو غير ذلك مما تدعو الحاجةُ إليه، كان أبلغَ عندهم من إنفاق مالٍ عظيم، وتجهيز جيشٍ كبير.

٢ ـ كان الملوك يأنفون من الإشتهار بقرض الشعر،[٣] ويعدُّونه دناءةً. وقد كان لامرىء القيس في الجاهلية مع أبيه حَجر بن عَمْرٍو، حين تعاطى قولَ الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقت، وحالاً بعد حال، ما أخرجه إلى أن أمر بقتله، وقصته مشهورة. ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني[٤]، مما يؤكد رأي المرزوقي في ترفع مرتبة البلغاء على الشعراء.

٣ ـ إن الشعراء اتخذوا الشعر مَكْسَبَةً وتجارة، وتوصَّلوا به إلى السُّوَق كما توصلوا به إلى العِلْية، وتعرَّضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم، حتى قيل: «الشعر أدنى مروَّة السرِيّ، وأَسْرَى مروَّة الدّنيّ»[٥].

٤ ـ إذا كان شرفُ الصانع بمقدار شرف صناعته، وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر، وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البليغ.

ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم، أن الإعجاز من الله تعالى والتحدي من الرسول عليه السلام وقَعَا فيه دون النظم؛ يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء عليهم السلام في أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أُممهم يولعون به في حينهم، ويغلب على طباعهم... فلما كان زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة والبيان، جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه، فتحدّاهم بالقرآن كلاماً منثوراً، لا شعراً

---

(١) السِّماطان مثنى السِّماط، والجمع: السُّمُط. وسماط القوم: صفّهم.

(٢) اقتضاب الكلام: ارتجاله، أي: تكلم به من غير تهيئة أو إعداد له.

(٣) أنظر: الشعر والشعراء، ص ٣٧ وما بعدها.

(٤) البيان والتبيين ٢٤١/١. وانظر: العمدة ١٠٩/١ وما بعدها.

(٥) انظر البيان والتبيين ٢٤١/١. (يقول: إن الشعر يحطّ من قدر الإنسان الرفيع المختار، ويرفع من قدر الإنسان الخسيس).

منظوماً. وقد قال الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾[1]. ويختتم المرزوقي قوله: ولما كان الأمر على ما بيَّناه وجب أن يكون النثر أرفع شأناً، وأعلى سَمْكاً وبناء من النظم، وأن يكون مزاولُه كذلك، اعتباراً بسائر الصناعات وبمزاوليها.

٥ ـ نباهة البلغاء وخمول الشعراء، لذلك قلّ عدد أولئك وكثر عدد هؤلاء، ويعلق المرزوقي على هذه القضية بقوله: إن المترسِّل محتاج إلى مراعاة أمورٍ كثيرة، إن أهملها أو أهمل شيئاً منها رجعت النقيصة إليه، وتوجهت اللائمة عليه، منها: [2].

أ ـ تبيُّنُ مقادير من يكتب عنه وإليه، حتى لا يرفع وضيعاً، ولا يضع رفيعاً.

ب ـ وزن الألفاظ التي يستعملها في تصاريفه، حتى تجيء لائقةً بمن يخاطب بها، مفخّمة لحضرة سلطانه التي يصدر عنها.

جـ ـ أن يعرف أحوال الزمان، وعوارض الحَدَثان، فيتصرف معها على مقاديرها في النقض والإبرام ـ والبسط والانقباض.

د ـ أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والإيجاز والتخفيف، فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار، حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدارَ القصائد الطويلة، ويتفق أيضاً ما تُغْني فيه الإشارة، وما يجري مجرى الوَحْي في الدلالة.

فلما كان الأمر على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعز، وعددهم أنزر.

٦ ـ وقد احتج البعض بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتّاب، ولا تجد كاتباً يخدم

---

(١) يس: ٦٩. يقول صاحب العمدة (٧٥/١): ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي ﷺ غير شاعر... ويرى أنه أبلغ في الحجة، وبَلَغَ الحاجة، والذي عليه في ذلك أكثر مما له، لأن الله عز وجل إنما بعث نبيّه أمّياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة، آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً بالقرآن للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً، لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبّه من الكلام: وتحدّى به جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله، فأعجزهم ذلك.

(٢) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي ١٩/١ ـ ٢٠.

شاعراً[1]. وقد وسمتهم الكتابة بشرفها، وبوّأتهم منزلة رياستها، فأخطارُهم عالية، بحسب علوّ صناعتهم، ومعاقد رياستهم، وشدةِ الفاقة إلى كفايتهم[2].

(١) العمدة ١/٧٦.

(٢) شرح ديوان الحماسة ١/٢٠.

# دراسة تحليلية

# أ ـ المنافرات[1]

## منافرة عبد المطلب بن هاشم[2] وحرب بن أمية:[3]

تنافرَ[4] عبدُ المطلبِ بنُ هاشمٍ وحربُ بنُ أميةَ إلى النجاشيِّ ملكِ الحبشةِ،[5]

---

(١) المنافرات: جمع المنافرة، وهي المحاكمة في الحسب، والمفاخرة. والنافر: الغالب. والمنفور: المغلوب. ونفَّر الحاكم أحدهما على صاحبه تنفيراً، أي: قضى عليه بالغلبة، وكذلك أَنْفَرَهُ، والنُّفارةُ: ما أخذ النافرُ من المنفور، وهو الغالب. وقيل: بل هو ما أخذه الحاكم. (اللسان، نفر).

(٢) عبد المطلب: كان سيد قريش وشريفها، وهو الذي وقف في وجه أبرهة الأشرم حين قدم لهدم الكعبة، وكانت معه السقاية والرفادة بعد عمه المطلب. وهو الذي قام بحفر بئر زمزم وأقام سقايته للحجاج. انظر: السيرة النبوية ١/٤٨ و ٥٠ و ١٣٧ وما بعدها.

(٣) حرب بن أمية: هو أبو سفيان، وابنته أم جميل (حمالة الحطب امرأة أبي لهب) وكان من سادة العرب وفرسانها وقوّادها، وكان على رأس بني أمية وأحلافها بمكة. يقال: إنه إذا حضر ميتاً لم يبكه أهله حتى يقوم. انظر: المعارف، ص ٧٣. وثمار القلوب، ص ٢٨٩. وجمهرة أنساب العرب، ص ١١١.

(٤) تنافر: تحاكم. وكان السبب في تنافرهما، أن عبد المطلب كان له جار يهودي يقال له: «أذينة»، يعمل في التجارة وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية، وكان نديم عبد المطلب، فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه، ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار، وصخر بن عمرو بن كعب التيمّي، جدّ أبي بكر رضي الله عنه، فلم يعرف عبد المطلب قاتلَيه، فلم يزل يبحث حتى عرفهما، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه فأخفاهما، فتغالظا في القول، حتى تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة، فلم يدخل بينهما، فجعلا بينهما نُفيل بن عبد العُزّى العَدويّ جدّ عمر بن الخطاب فنفر عبد المطلب عليه، فترك عبد المطلب منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جُدْعان التَيْميّ، وأخذ من حرب مئة ناقة، فدفعها إلى ابن عمّ اليهودي، وارتجع ماله إلّا شيئاً هلك، فغرمه من ماله. (الكامل في التاريخ ٢/١٥).

(٥) النجاشي: مات سنة ثمان للهجرة. (المعارف، ص ١٦٣). وانظر أخباره في السيرة النبوية في مواضع كثيرة متفرقة.

فأبى أن ينفِّرَ بينهما، فجعلا بينهما نُفَيْلَ بنَ عبدِ العُزّى بنِ رياحٍ[1]، فقال لحربٍ: «يا أبا عمروٍ! أتنافرُ[2] رجلاً هو أطولُ منكَ قامةً[3]، وأعظمُ منكَ هامةً[4]، وأوسمُ منك وسامةً[5]، وأقلُّ منكَ ملامَةً[6]، وأكثرُ منكَ ولداً، وأجزلُ منك صَفَداً[7]، وأطولُ منكَ مِذْوَداً[8]، وإني لأقولُ هذا وإنكَ لبعيدُ الغضب، رفيعُ الصوتِ[9] في العربِ، جَلْدُ المريرةِ[10]، جليلُ العشيرةِ، ولكنَّك نافرتَ مُنَفَّراً» [11].

فغضبَ حربٌ، وقال: إنَّ مِنَ انتكاسِ[12] الزمان ـ أَنْ جُعِلْتَ حَكَماً[13].

**الفكرة العامة**: تدور حول الاحتكام إلى حكم يحكم بين الطرفين المتنازعين، وهما: عبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية.

---

(1) نفيل بن عبد العزى: هو جد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: جمهرة أنساب العرب، ص ١٥٠. والمعارف، ص ١١٣.

(2) تنافر: تحاكم.

(3) القامة واحدة القامات، وهي القدّ.

(٤) الهامة واحدة الهامات. والهام: رأس كل شيء وتطلق على الجثة. وهي رئيس القوم وسيدهم.

(٥) الوسامة (مصدر): الحسن والجمال.

(٦) الملامة واحدة الملاوم: وهي ما يستحق الرجل عليه اللوم.

(٧) الصفد واحد الأصفاد: العطاء.

(٨) المذود: اللسان، ومن قوله: «وإني لأقول... إلى قوله: منفراً» لم يرد في تاريخ الطبري.

(٩) رفيع الصوت: أي شريف، مسموع الكلمة.

(١٠) المريرة واحدة المرائر: العزيمة. والمريرة من الحبال: ما اشتد فتله. ورجل مرير: قوي ذو عزم.

(١١) نفّر الحاكم أحدهما على صاحبه، أي: قضى عليه بالغلبة، فالحاكم هو المنفِّر، والمقضي له بالغلبة هو المنفَّر. وعلى هذا يكون معنى قوله: نافرت منفَّراً، أي: جئت تقاضي عبد المطلب بن هاشم المشهود له بالغلبة (منفَّراً).

(١٢) رواية تاريخ الطبري: «... فنفره عليه فقال حرب؛ إن من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً». (وانتكث الحبل وغيره: انتقض).

(١٣) ورد النص في: تاريخ الطبري ٢/١٨١. والكامل في التاريخ ٢/١٥. (أن وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب اسم إن المؤخر، وخبرها شبه الجملة من انتكاس) (الجار والمجرور). وتاء جعلت: نائب فاعل الجعل. وحكما: مفعول به منصوب.

## المضمون:

هذه منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، حين حكم بينهما نفيل بن عبد العزّى الذي ابتدر حرباً بقوله: «يا أبا عمرو! أتنافر رجلاً هو أطول منك قامةً»؟! وهذا إستفهامٌ إنكاري. الغرض منه أنه أعظمُ قدْراً، و «أعظم منك هامة»، وهامة الشيء رأسه، وقد عنى بقوله ذلك، أي: أكبر مقاماً وعقلاً «وأوسم منك وسامة» عنى بها شرف النسب، وجمال الأصل، «وأقل ملامة» أي: أنه قليلاً ما يخطىء؛ فتوجه إليه الملامة، «وأكثر منك ولداً» أي: من حيث أنصارُه وذريتُه وذووه، «وأجزل صفداً» أي: كرماً وسخاءً، «وأطول مذوداً» كنايةً عن رجاحة العقل، وَسَدَاد الرأي، فلا يقول هَـذَراً.

ثم يلتفت في القول إلى حرب بن أمية، ويقول له: إنني في هذا الحكم لعبد المطلب بن هاشم لا أنقصُكَ قَـدْرَكَ ولا أحطُّ مِنْ شأنِك، فأنت بعيدُ الغضب، أي: إن لك إذا غضبت من ينصُرك ويؤيدُك ويمشي وراءك، رفيع الصوت في العرب، أي شريف وذو مكانةٍ، وجاه. «وجلد المريرة» كناية عن العزيمة والقوة والإقدام، «جليل العشيرة»، أي: ذو أصل وَحَسبٍ مشهورٍ معروف، ولكنك رغم كلّ هـذه الصفات باريت ونافست مُغَلَّباً مشهوداً له بالغَلَبَةِ والفضل[١].

فغضب حربٌ وقال قولته المشهورة محتجاً على هذا الحكم: إنَّ من انقلاب الزمان وانتقاضه أن تكون يا نُفيلُ حكماً. وبذلك يكون حرب رافضاً لحكم الحاكم، غير قابل بالمنافرة، ومن ثم فالمقولة هذه نقد قاس، وردّ جارح على تحيّز الحاكم لعبد المطلب، ويرى حرب في ذلك الجورَ والظلمَ في حقّه، وعدم أهلية الحاكم، وعدم استحقاق عبد المطلب هذه المنافرة.

## الأسلوب:

لقد كانت ألفاظ هذا النص مختارةً موحية تَقْرَعُ أسماعنا مثلَ قَرْعِ الطُّبول، ذات

---

(١) في قوله: «نافرت منفراً» أي: مغلَّباً على أنها اسم مفعول، فإذا كانت اسم فاعل فإنها تعني أنك احتكمت إلى قاضٍ عدلٍ «منفِّر» مشهودٍ له بالحصافة والاستقامة.

موسيقى عنيفةٍ، وإيقاعٍ مجلجلٍ، كما في قوله: «أطولُ قامةً» و «أعظمُ هامةً» و «أقلُّ ملامةً». وكذلك في قولِه للطرفِ الآخر: «بعيدُ الغضب، رفيع الصوتِ في العرب».

وكانت هذه المنافرة تعتمد على الأسلوب الإنشائي الذي يخرج في أغلب الأحيان إلى الاستنكار أو التقرير، كما في النداء: «يا أبا عمرو!»، والاستفهام في «أتنافر؟!».

ويؤكد عباراته بمؤكداتٍ متنوعة كقوله: «وإني لأقول هذا»، «وإنك لبعيد الغضب»، فقد استعمل نوعين من التأكيد هما: «إن» و «لام التأكيد» حيث إن التقدير: (وإني لأقول هذا القول) فالقول: بدل عن هذا. وكذلك في الفقرة الثانية: «إنك» و «اللام». و «بعيد» خبر إن والكاف اسمها، و «رفيع الصوت» خبر ثانٍ، و «جلد المريرة» خبر ثالث، و «جليل العشيرة» خبر رابع.

وقد شاعت الكناية في النص، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن نفيلاً هذا كنّى في أكثر عباراته عن مدلولات، مما جعل الأسلوب أبعدَ أثراً، وأعمق غوراً في النفوس، كقوله: «أطول قامة وأعظم هامة» كناية عن المجد والشرف. و «أطول مذوداً» كناية عن الفصاحة والحصافة، وكذلك في قوله: «بعيد الغضب» كناية عن قوة جماعته، وكثرة أعوانه، وقوله: «رفيع الصوت في العرب» كناية عن الشرف، وقوله: «جلد المريرة» كناية عن التحمل والعزيمة إلى آخر ما هنالك من كنايات.

وكان للسجع أثر موسيقي بعيدٌ، كقوله: «قامةً وهامةً، ووسامةً وملامةً»؛و «ولداً وصفداً»؛ وكلها في الإعراب تمييز منصوب، والجملة الاسمية من المبتدأ أو الخبر (هو أطول) في محل نصب صفة لـ (رجلاً)، ونجد السجع كذلك في: «الغضب» و «العرب»؛ و «المَريرة» و «العشيرة».

كما أننا نجد في النص التوازن وحسن التقسيم؛ إلى آخر ما هنالك من زخارف لفظية كالجناس الناقص في: «قام» و «هام»، والمعنوية كالطباق بين: «أقل» و «أكثر» مما يدخل على النص بهجةً وجمالاً على أن هذه الزخارف جاءت مرصوفة مطبوعة عفوية بعيدة عن الصنعة والتكلف.

## العاطفة والخيال:

العاطفة ذاتية واقعية صادقة؛ لأنها تفصل بين خصمين، وتقضي بين متخالفين، وهي عنيفةٌ ومؤثرةٌ استطاع نُفيلُ بنُ عبد العزّى أن ينقلنا من خلال نصِّه هذا إلى جوٍّ التحكيم، وقدسية القضاء، وجعلنا نعيش معه كلماتِه الحكيمة جملةً بجملةٍ، وكلمةً بكلمةٍ، وهو يمجّدُ بعبدالمطلب بن هاشم، ولا ينتقص من قدر حرب بن أمية ومكانته، ونحن نضع أيدينا على قلوبنا ننتظر صدور الحكم الذي ينطق به نُفيل بكلمة واحدة حينما يقول: «ولكنك نافرت منفراً» فيقضي بالغلبة والفوز لعبد المطلب بن هاشم.

من أجل هذه الواقعية لم نجد مجالاً للخيال في هذا النص، وما ورد من الأساليب البلاغية كان عفوياً غير متكلف.

# ب ـ الحض على القتال(١)

## خطبة هانىء بن قبيصة الشيبانيّ(٢) يوم ذي قار(٣) يحرضُ قومه على الحرب:

يا معشرَ بكْرٍ(٤)، هالِكٌ معذورٌ، خيرٌ مِنْ ناجٍ فَرُورٍ، إنّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ

(١) نعني بذلك: إثارة الغضب للكرامة المهدورة في نفوس أبناء القبائل، وتأجيج الحقد على الأعداء، وإشعال النخوة للأخذ بالثأر، واستنهاض الهمم للتضحية من أجل تحقيق النصر وما إلى ذلك.

(٢) هو هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني، كان من فرسان الجاهلية، وسيد بني شيبان حينذاك، وكان شريفاً عظيم القدر، وكان نصرانياً وأدرك الإسلام فلم يسلم، ومات بالكوفة. انظر: الاشتقاق، ص ٣٥٩. والمعارف، ص ١٠٠. وجمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٤. والعمدة ٢/٢١٧ ـ ٢١٩.

(٣) ذو قار: ماء لبكر قريب من الكوفة. (معجم ما استعجم ٣/١٠٤٢. ومعجم البلدان ٤/٢٩٣. والقاموس المحيط، قار). كان هانىء صاحب يوم ذي قار وسيد بكر بن وائل، أخذ يحرض قومه في يوم ذي قار حين التحمت جيوش كسرى ملك الفرس بالقبائل العربية التي توحدت كلمتها، واستحر القتل، وحمي وطيس المعركة، وقد استطاعت شيبان مع حلفائها أن تحقق النصر لصالحها على كسرى أبرويز. وكان ذلك هو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم. (انظر: العمدة ٢/٩٢٩. ومعجم البلدان ٤/٢٩٣. والمعارف، ص ١٠٠. والكامل في التاريخ ١/٤٨٢ وما بعدها).

ويقول صاحب العقد الفريد (٦/١١١ ـ ١١٣): كانت وقعة ذي قار يوم بُعث النبي ﷺ، وخبر أصحابه بها فقال: (اليوم أول يوم انتصف به العرب من العجم وبي نصروا). وهناك رواية أخرى للمسعودي وهي: (ونُصِرَتْ عليهم بي) ويقال: كانت وقعة ذي قار لتمام أربعين سنة من مولد رسول الله ﷺ وهو بمكة بعد أن بعث. وقيل: بعد أن هاجر. وقيل: إنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر ورسول الله ﷺ بالمدينة. وكانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهرمزان صاحب كسرى أبرويز. انظر: (مروج الذهب ١/٢٧٨). أما ياقوت الحموي فيقول: كانت وقعة ذي قار عند منصرف النبي ﷺ، من وقعة بدر الكبرى، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبرسول الله، ﷺ، انتصفوا، وهي من مفاخر بكر بن وائل. (معجم البلدان ٤/٢٩٤).

(٤) بكر: يريد بكر بن وائل ومن حالفها من القبائل العربية. كانت من القبائل العربية العدنانية المشهورة،=

القَدَرِ، وإنّ الصَّبرَ مِنْ أَسبابِ الظَّفرِ، المنيّةُ ولا الدّنيّةُ، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدْبارِهِ، الطَّعنُ في ثُغَرِ[1] النُّحورِ، أَكرمُ منهُ في الأَعجازِ والظُّهورِ. يا آلَ بكرٍ، قاتِلُوا فما للمنايا مِنْ بُدٍّ[2].

## الفكرة العامة:

تحريض بني بكر على الحرب وحثّهم على الثبات في أرض المعركة، واستنهاض هممهم للتضحية بالنفوس.

## سمات الأفكار:

يمكن تقسيم الفكرة العامة إلى فكرتين رئيستين، تتضح السمات من خلالهما، وهما:

١ ـ فكرة تمهيدية برهن فيها الخطيب على أنّ الإقدام هو شيمةُ الكرام، وأنَّ الإحجام لا يرضاه غيرُ اللئام. والكلّ يعلم بأنه مَا من المنايا بدّ.

٢ ـ طلب الانخراط في المعركة والإقدام على الحرب في يوم ذي قار، وهي معركة سجلها التاريخ من ألفٍ وخمسمئة عام، فكانت أول معركة انتصر فيها العرب على العجم.

## المضمون:

يقول هانىء محرضاً قومه على الحرب: يا معشر بكر! مَنْ يَهْلِك في معركتنا هذه مع الأكاسرةِ، يَعْذُرُه الناسُ والتاريخ، وهو خيرٌ وأفضلُ من أن ينجو بنفسه هارباً من سيف المنايا، ورحى الحروب، وإنَّ الحذرَ لا ينفع شيئاً في وقوع القدر، ومن نجا

= وديارها من غرب دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين.

(١) الثُغر: مفردها ثُغرة، وهي نقرة النحر بين الترقوتين.

(٢) ورد النص في أمالي القالي ١/١٦٩. (ما للمنايا من بد: ما: حجازية تعمل عمل ليس. وللمنايا: جار ومجرور شبه جملة في محل نصب خبر مقدم. من: حرف جر زائد. وبد: اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه اسم ما. والتقدير: ما بدٌ للمنايا.

مرةً لا ينجو في كلِّ مرة، ثم يقول: إنَّ للظفرِ أسباباً في مقدمتها الصبر، وإنّ العاقل يفضلُ المنيةَ ألف مرة على الفرارِ والعارِ؛ لأنّ الفِرار دنيَّةٌ لا يرضىٰ بها شهمٌ ولا مغوار، ومن يستقبل الموت خيرٌ ممن يستدبره، فالموت لاحقٌ ببني البشر جميعاً، واستقباله لا يعجلُ به ولا يسرع في وصوله، كما أن استدباره لا يدفعُهُ ولا يؤخِّرُهُ. والطعن في الصدور خيرٌ وأشرف من الطعن في الظهور.

وَيَخْلُصُ الخطيب إلى قرارٍ قد مهَّدَ له، ونتيجةٍ حتميَّةٍ لا بدَّمنها ألا وهي: الإقدامُ لا الإحجامُ، والقتال لا الفِرار، والثبات لا التردّد. فيرفع صوته عالياً، منادياً، مستنهضاً، قائلا: (يا آل بكر! قاتلوا فما للمنايا من بُدٍّ). ويعلل حكمه هذا بتلخيصٍ موجز للمقدمة التمهيدية التي ساقها من قبل بقوله: (فما للمنايا من بدّ) كأنما يشير إلى قول المتنبي: (من الخفيف)

وإذا لـم يكـنْ مِـنَ الـمـوتِ بُـدٌّ  فمنَ العجْـزِ أنْ تـكـونَ جبـانـا[1]

## الأسلوب:

أسلوب أدبي خطابي مركّز، ألفاظُه منتقاة، وجمله قصيرة موجزة رصينة، ومدلولاتها عميقة، قوية الأثر، شديدة التأثير، يظهر فيها حسن التقسيم مع التوازن، والتزام السجع، لا تعرف إلى الإسهاب أو الإطناب سبيلاً، وإنما تتصف بالدقّة والإيجاز، ولعلَّ هانىءَ بن قبيصة تعمّد ذلك لتكونَ أوقعَ في النفس، وأسهلَ في الحفظ، وأبعدَ في الأثر.

وفي النصِّ على قلّةِ عدد حروفه، وكثرةِ عدد معانيه، طباقات، ومقابلات، وسجع، وأسلوب جزل كأنه التوقيعات.

كان النص إنشائياً في افتتاحه بالنداء واختتامه بالنداء أيضاً، الذي أتبعه بفعل بالأمر (قاتلوا) المبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة، وفاعله واو الجماعة، وضمن ما بين الأسلوبين الإنشائيين أسلوباً خبرياً، كأنه الوابلُ الصيِّبُ يُتْبِعُ

---

(١) شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي ٤/٣٧٢. ولعل هناك رواية للشطر الثاني تقول:

* فمن العار أن تموت جبانا *

جمله تباعاً من غير تريُّثٍ ولا تمهّل؛ ليكونَ أكثرَ وقعاً في النفس، وأشدَّ تأثيراً في الفكر. وهذا الذي كان بالفعل حيث انتصر العرب في ذي قار بمعركة فاصلة سجّلها لهم التاريخ بأحرف من نور.

ونلاحظ أن أسلوبه الإنشائي منه والخبري قد خرج إلى الإرشاد والتحريض على الحرب بطريقة الحجة والإقناع.

وكانت الجمل أكثرها اسمية من مبتدأ وخبر، كقوله: (هالك معذور)، وقد سوّغ الإبتداء (بهالك) مع أنها نكرة، وَصْفُها (بمعذور)، وخبرها (خير). و (أكرم) خبر للمبتدأ (الطعن). والمنية: مبتدأ خبره محذوف تقديره: (في هذا الموقف). (ولا الدنية) (فيه) فالواو حرف عطف، و (لا) نافية لا عمل لها.

أما السجع فنجده في قوله: (معذور، وفرور)، و (الحذر، والقدر)؛ و (المنية والدنية)، و (النحور والظهور). وأما الطباق ففي قوله: (هالك، وناج) و (استقبال، واستدبار) و (نحور، وظهور) ونجد الجناس الناقص في قوله: (منية، ودنية).

وكان للكناية حظ وافر في هذا النص، ففي قوله: (الطعن في النحور) كناية عن الإقدام والاستبسال ومجابهة الأعداء. وقوله: (. . . في الأعجاز والظهور) كناية عن الفِرار من أرض المعركة. وقوله: (فما للمنايا من بد) كناية عن أن القدر محتوم لا بدّ منه.

أما الاستعارة فنجدها في قوله: (الطعن أكرم) و (الحذر لا ينجي) و (استقبال الموت) كلها مكنية شبهها بإنسان.

**العاطفة والخيال:**

العاطفة حماسية نوعها عاطفة إرشاد ونصح، وهي صادقة عميقة مؤثرة؛ لأنها تنبع من قائد يشعر بمسؤوليته التاريخية أمام قومه، وما ستسجله الأيام من شواهد تبقى على مرّ الزمان.

أما الخيال: فلا مجال له في خطبة واقعيةٍ حماسية متتابعةِ الأفكار، متلاحقةِ المعاني.

# ج - إصلاح ذات البين

خطبة مَرْثَد الخير في شأن إصلاح ذات البين بين سُبَيْعِ بنِ الحارث وميثَمِ بنِ مُثَوِّب:

كان مَرْثَد الخير بن يَنْكَف قَيْلاً(١)، وكان حَدِباً(٢) على عشيرته، محِبًّا لصلاحهم، وكان سُبَيع بن الحارث(٣) ومِيثَم بن مثوِّب بن ذي رُعَين تنازعا الشرف، حتى تَشَاحنا، وخيف أن يقع بين حَيَّيْهما شرٌّ، فيتفانى جِذْماهما(٤)، فبعث إليهما مَرْثَد، فأحضرهما ليصلح بينهما، وخطب فيهما(٥)، وأعطى فرصة لكل منهما ليلقي كلمته(٦)، ثم قام فقال:

---

(١) القَيْل مفرد الأقْوال والأقْيال، وهم ملوك اليمن دون الملك الأعظم، ويكون القَيل ملكاً على قومه، وقد سمي قَيْلاً لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله: أي: الملك النافذ القول والأمر. (اللسان، قول).

(٢) حَدِبَ حَدْباً عليه: تعطف وَحَنا.

(٣) سبيع أخو عَلَس، وعَلَس هو ذو جَدَن. (الأمالي ١/٩٢) وذو جَدَن: قَيْل من أقيال حِمْير، وقيل: من مَقَاوِلة اليمن. وقيل: اسم ملك من ملوك حِمْيَر. وأجْدَنَ الرجلُ: إذا استغنى بعد فقر. (اللسان، جدن) وقيل: جَدَنٌ مفازة باليمن، وقيل: إن ذا جدن ينسب إليها. (معجم البلدان ٢/١١٤).

(٤) الجذم: الأصل وكذلك الجذر.

(٥) حضرا إلى مجلسه بعد مخاصمة ونزاع كبير وقع بينهما، وكادت الحرب أن تقع بينهما، فقام، وخطب، خطبة حثهما فيها على رأب الصدع، قبل انحلال العقد وتشتت الألفة، وانقطاع الوسيلة، وطلب منهما تلافي الأمر والهوة قبل انتكاث العهد، ومما جاء في خطبته: «فقد عرفتم أنباءَ من كان قبلكم من العربِ: ممّن عصى النصيحَ، وخالف الرشيدَ، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلتْ إليه عواقبُ سوءِ سَعْيهم، وكيف كان صَيُّور (أي: عاقبة) أمورِهم، فتلافوا القرحةَ (أي: الجرح) قبل تَفَاقُم الثَّأي (أي: الإفساد والجراح والقتل)، واستفحالِ (اشتداد) الداءِ، وإعوازِ الدواءِ، فإنَّه إذ سُفكتِ الدماءُ، استحكمتِ الشحناءُ، وإذا استحكمتِ الشحناءُ، تَقَضَّبَتْ (أي: تقطعت) عُرَا (جمع عروة) الإبقاء، وشَمِلَ البلاءُ».

(٦) ثم أعطى مرثد فرصة لسُبيع ليقول مقالته، ومما جاء في خطبته قوله: «وقد علم بنو أَبِينَا هؤلاءِ، أنّا لهم رِدْءٌ =

لَا تُنْشِطُوا[1] عُقُلَ الشَّوَارِدِ[2]، وَلا تُلْقِحُوا الْعُونَ الْقَوَاعِدَ[3]، وَلا تُؤَرِّثُوا[4] نِيرَانَ الأَحْقَادِ، فَفِيهَا المَتْلَفَةُ المُسْتَأْصِلَةُ، وَالجَائِحَةُ[5] وَالأَلِيلَةُ[6]، وَعَفُّوا[7] بِالحِلْمِ، أَبْلَادَ[8] الْكَلْمِ، وَأَنِيبُوا إلى السَّبِيلِ الأَرْشَدِ، والمَنْهَجِ الأَقْصَدِ، فَإِنَّ الحَرْبَ تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ[9] الْغُرُورِ[10]، وَتُدْبِرُ بالويلِ والثُّبُورِ[11]، ثم قال الملك: [من الطويل]

أَلا هَلْ أَتى الأَقوامَ بَذْلي نصيحةً ... حَبَوْتُ بها مِنّي سُبَيْعاً ومِيثَما

وقلتُ اْعلما أنَّ التَّدابُرَ غادَرَتْ ... عواقبُهُ للذُّلِّ والقُلِّ جُرْهُمَا[12]

---

= (أي: عون) إذا رهبوا ،وغيثٌ إذا أجدبوا، وعَضُدٌ إذا حَارَبُوا، وَمَفْزَعٌ إذا نُكِبُوا».

ثم قام يتم، فقال: أيها الملك: إنَّ مَنْ نَفِسَ على ابنِ أبيهِ الزعامةَ، وَجَدَبَهُ (أي: عابه) في المقامة (أي: المجلس)، واستكثَرَ له قليلَ الكرامةِ، كان قَرِفاً (أي: خليقاً) بالمَلَامةِ، ومُؤَنَّباً على تَرْكِهِ الاستقامةِ، وإنَّا واللهِ ما نَعْتَدُّ لهم بِيَدٍ إلا وقدْ نالَهُم مِنَّا كِفاؤُها، ولا نَذْكُرُ لهم حسنةً إلاّ وقد تَطَلَّعَ مِنَّا إليهم جزاؤُها، ولا يتفيَّأُ لهم علينا ظلُّ نعمةٍ إلاّ وقد قوبلوا بِشَرْوَاهَا (أي: مثلها)... ومقاطعُ الأمورِ ثلاثةٌ: حَرْبٌ مُبيرةٌ (أي: مهلكة)، أو سَلْمٌ قَرِيرةٌ، أو مُدَاجَاةٌ وغَفِيرَةٌ. (أي: مساترة وغفران). (الأمالي ١/٩٢-٩٣).

(١) الأنشوطة: عقدة يسهل انحلالها، وقد نَشَط الأنشوطة يَنْشُطُها نَشْطاً ونشَّطها: عقدها وشدّها. وأنشطها: حلها ونشطت الحبلَ، أَنْشُطه نَشْطاً: ربطتُه، وإذا حللتَه فقد أنشطْتَه. (اللسان، نشط).

(٢) العُقُل جمع العِقال، وهو الحبل. والشوارد: الإبل الشاردة أي المتفرقة، في الصحراء.

(٣) يقول صاحب الأمالي: هذا مَثَلٌ، وأصله في الإبل، يقال: لَقِحَت الناقةُ إذا حَمَلت وألقحها الفحلُ، ثم ضرب ذلك مثلاً للحرب إذا ابتدأت. والعُون: جمع العَوَان وهي الثيب، يقال للحرب: عَوَانٌ إذا كان قد قوتِل فيها مرةٌ بعد مرة.

(٤) تؤرثوا: تُذكوا، وتهيجوا.

(٥) الجائحة: الإستئصال.

(٦) الأليلة: الثُّكْل.

(٧) عَفُّوا: أي: أَطْلِقوا سراحهم، وعاملوهم بالحلم والأناة، وترفعوا عن سوء الأخلاق في التعامل معهم.

(٨) الأبلاد جمع بَلَدٌ، وهي الآثار، وكذلك النُّدُوب جمع النَّدَب. والكلم: الجرح.

(٩) الزبرج: السحاب الذي تَسْفِرُه الريح. ولا يقال زبرج إلا أن تكون فيه حُمْرة. ويقال: هو السحاب الخفيف الرقيق، وقيل: هو الأحمر منه. والرقيق من السحاب الذي لا ماء فيه. وزبرج الدنيا: غرورها وزينتها. والزِّبرج: كل شيء حسن، وقيل: الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك. (اللسان، زبرج).

(١٠) الغُرور (بالضم): الأباطيل كأنها جمع غَرٌّ مصدر غَرَرْتُهُ غَرّاً. (اللسان، غرر).

(١١) الثبور: الهلاك والويل.

(١٢) جرهم: قبيلة عربية قديمة قيل: إنها جاءت من اليمن. منها البائدة والعاربة، أما العاربة فكانت تقيم في مكة. والقل: القلة. والذل: الذلة.

فــلا تَقْــدَحَــا زَنْــدَ العقوقِ وأبْـقِيــا    على العِــزَّةِ القَعْسـاءِ أَنْ تتهــدَّمـا [1]
ولا تَجْنيــا حَــرْبــاً تجُــرُّ عـليكـمــا    عــواقبُها يــومــاً من الشَّــرِّ أشــأمــا
فــإنَّ جُنـاةَ الحــرْبِ للحَيْنِ عُـرضــةٌ    تُفَـوِّقُهمْ منهـا الـذُّعـافَ المُقَشَّمــا [2]
حَــذَارِ، فــلا تَسْتَنِبثُــوهــا، فــإنهــا    تُغــادرُ ذا الأنْفِ الأَشـمِّ مُكَشَّمــا [3]

فقالا: لا، أيها الملك. بل نَقْبَلُ نُصحكَ، ونُطِيعُ أَمرَكَ، ونطفىءُ النائرةَ [4]، ونَحُلُّ الضغائنَ، ونثوبُ إلى السِّلْمِ [5].

**الفكرة العامة:**

إصلاح ذات البين بين مِيثَم وسُبَيْع، ونـزع فتيل الحــرب بينهمـا، ونبـذ الخلافات، والدعوة إلى رأب الصدع، والعودة إلى الحب والوئام.

**المضمون:**

يقدم مرشـد مجموعـة من النصائـح والإرشادات للطرفين المتنـازعين، مقيماً الحجج والبراهين، مبيناً ما للحرب من نتائج وخيمة وآثارٍ أليمة، حاثاً القـومَ على وحدة الصفِّ، وجمع الكلمة، والتصافي فيما بينهم، والتصالح والتسامح.

ثم ينظم بعد ذلك أبياتاً يصف فيها عواقب الخلاف، ومـا يصيب النـاس من تشتيتٍ وإتلاف، محذراً الجميع مما تُعْقِبُـهُ من أضرارٍ مـاديةٍ ومعنوية، تتـرك الأرضَ حصيـداً زَلَقاً، وتنشـر القحط والمرض، وتعمـل بالـويل والثبـور، وتخلف الثكـل والدمار، وتزرع الخوف والفقـر، فلا تبقي ولا تذر، مما جعلهم يستمعـون القول،

---

(١) الزند واحد الزِّناد والأزند والأزناد: العود الأعلى الذي يقتدح به النار. والقعساء: الثابتة.

(٢) تفوقهم: تسقيهم الفُواق (وهـو ما بـين الحلبتين). والـذعاف: السم. والمقشم: المخلوط. والحـين: الهلاك.

(٣) يقول صاحب الأمالي: هذا مثل. أي: لا تخرجوا نبيثتها، وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت. يريد لا تثيروا الحرب. ومكشم: مقطوع.

(٤) النائرة: العداوة والشحناء. والضغائن جمع الضغينة: الحقد.

(٥) ورد هذا النص في الأمالي ١/٩٣.

ويتأثرون بالموعظة، ويقبلون النصح، ويتوبون إلى السلم.

## الأسلوب:

لقد كان الأسلوب أسلوباً خطابياً موجزاً سيطرت عليه الحكم والأمثال، واستعمل فيه مَرْثَد كثيراً من الكلمات اللغوية؛ التي تسوقنا إلى المعاجم بحثاً عن عميق معناها، فنحن منذ السطر الأول من الخطبة نطالع في المعجم على التتالي: نشط، وعقل، ولقح، وعون، وقعد، وورث وهكذا في بقية الأسطر إلى نهاية النصّ.

وليس معنى هذا أننا نتّهم النصّ بالغموض، أو الجفاف، أو التعقيد، بل على العكس من ذلك، فالنصّ واضح بشكل إجمالي لولا هذا البعد عن المعاني اللغوية الأصيلة في تراثنا الأدبي. ونجد التراكيب متسلسلة متناسقة آخذ بعضها برقاب بعض، ويكاد يُفصح بعضها عن بعض، فأنت تقرأ فكرة ولا تكاد تنتهي منها حتّى تُسْلمَك إلى الفكرة التي تليها كقوله: (أنيب إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأقصد) فإذا به يهدّد ويبين خطورة عدم الالتزام بهذه الإنابة فيقول شارحاً ويلات هذه الحرب، وذاكراً ثمارها، ومبيناً نتائجها: (فإن الحرب تقبل بزبرج الغرور، وتدبر بالويل والثبور) وهو يكرر شعراً كل المعاني التي قدّمها نثراً، ويقصد بهذه المزاوجة بين الشعر والنثر زيادة التأكيد، وقوة التأثير، وبلوغ الغاية من الإنذار والتحذير، حتّى تحقق له ما أراد، فأطاعت لنصحه جميع الأطراف.

وورد في النص كثير من الصور البلاغية والمحسنات البديعية، وسنوضح بعضاً منها في هذا الباب. وأول ما يجبهنا ذلك السجع الذي ألزم به نفسه من أول النص من (الشوارد) و (القواعد) إلى آخره من (الغرور) و (الثبور). كما تميز النصّ بحسن التقسيم والموازنة في الجمل المتناسقة كقوله: (عَفّوا بالحلم/ أبلاد الكلْم)، و (السبيل الأرشد/ والمنهج الأقصد).

وقد استعمل الكناية منذ بدأ خطبته في قوله: (لا تنشطوا عقل الشوارد) كناية عن إطلاق الشرارة الأولى، وبدء اللقاء، والالتحام بالقتال. وكذلك في قوله: (لا تلقحوا العون القواعد) كناية عن ابتداء الحرب واستمراريتها وما تخلّفه من حقد وانتقام يتكرر بين الفرقاء المرة تلو المرة؛ ليورّث الثُّكل واليتم والدمار. ونجد في

قوله: (عفوا بالحلم أبلاد الكلم) كناية عن مداواة الجروح بالعفو والصفح، وحسن الحلم، ورحابة الصدر.

ثم إنه استعمل الاستعارة في قوله عن الحرب: (إنهاتقبل وتدبر) مشبهاً الحرب بالكائن الحي، حذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية. وفي قوله: (تلقح العون) استعارة تصريحية، حيث شبه تكرار القتال أخذاً بالثأر المرة بعد المرة بالنياق تلقح المرة بعد المرة فتلد لكم، وقد صرح بالمشبه به وهي العون والقواعد.

ونجد نصيباً للمقابلة، وذلك في قوله: (الحرب حين تقبل بزبرج الغرور) ثم (إنها تدبر بالويل والثبور).

وكان الحظ الأوفر لاستخدام الأساليب الإنشائية من نهي وأمر، فقد ابتدأ خطبته بأسلوب إنشائي، وهو النهي في قوله: (لا تنشطوا عقل الشوارد)[١] ثم تتابعت هذه الأساليب كأنها السيل المنهمر، وذلك في قوله: (ولا تلقحوا...) و(ولا تُؤرثوا...)؛ لينتقل إلى نوع آخر من الإنشاء هو الأمر وذلك في قوله: (عَفوا...)[٢] و(أنيبوا...)[٣] خرجت كلّها إلى النصح والإرشاد والوعظ والتنبيه، وخلل بين النهي والأمر بأسلوب خبري أكَّد فيه بشاعة الحرب في إقبالها وإدبارها، حيث قال: (فإن الحرب تقبل...) وقد خرج عن معنى الإخبار إلى الترهيب والتحذير وبيان الآثام والشرور؛ لما تخلفه الحروب من ويلات وخراب ودمار.

---

(١) لا: ناهية. وتنشطوا: فعل مضارع مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل. وعقل: مفعول به، وهي مضاف. والشوارد: مضاف إليه. وقد جاءت الجمل التالية لها على وتيرتها. أمّا ما ورد في جملة: (ولا تؤرثوا نيران الأحقاد، ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة والأليلة) فالفاء في ففيها: رابطة لجواب الشرط المقدر الذي يكمن خلف النهي وتقديره: (إن تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة)، وفيها: جار ومجرور متعلقان بالخبر المقدم تقديره كائنة. والمتلفة: مبتدأ مؤخر. والتقدير: المتلفة كائنة فيها. والمستأصلة: صفة. والجائحة: الواو عاطفة. والجائحة مبتدأ ثان معطوف. والتقدير: الجائحة العامةُ. والأليلة: مبتدأ ثالث، وجميع هذه المبتدآت أخبارها الجار والمجرور المتقدمة عليها، وهو (فيها) والتقدير: ففيها المتلفة المستأصلة، وفيها الجائحة العامة، وفيها الأليلة المدمرة.

(٢) عفوا: فعل أمر مبني على حذف النون؛ لأن مضارعه من الأفعال الخمسة (يعفّون) والواو: فاعل. والألف للتفريق.

(٣) أنيبوا: معطوفة على عَفَوا.

ثم ينتقل مَرْثَـد إلى تأكيد ما أورده نثراً ليصوغه نظماً مستخدماً البحر الطويل؛ الذي يبثّه آهاته تلك التي يخرجها من أعماق فؤاده، باعتباره البحر الـوحيد الـذي تجتمع فيه حروف المدّ جميعاً.

ويبدؤها بأداة الاستفتاح (ألا) مستعملاً أداة الاستفهام (هل) التي جاءت بمعنى (قد) للتحقيق والتأكيد[١]، والأسلوب خبري خرج إلى معنى الإنذار والتحذير وإقامة الحجة. وفي البيت استعارة مكنية، شبه النصيحة بشيء مادي يُتداول ويبذل. وكذلك في لفظة (حبوت) أي: أعطيت النصيحة.

وفي البيت الثاني أسلوب إنشائي في قـوله: (اعلمـا)[٢] أمر خـرج إلى بيان مساوىء الحرب وما تخلفه من ويلات بقصد الابتعاد عنها. وفي قـوله: (عـواقبه) استعارة مكنية حيث شبه العواقب (أي: الأواخر) بَعقِب أو كعب كائن حي، أي: شبه نهايات الحروب بعقب الإنسان، أي: نهاية جسمه. وهناك استعارة أخرىٰ في قوله: (غادرت) حيث شبه نهاية الحروب بكائن حي يغادر على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي البيت الثالث أسلوب إنشائي نهي خرج إلى النصح والإرشاد، وهو لا يخلو من معنى التهديد والوعيد. وهناك أسلوب إنشائي آخر جاء بصيغة الأمر (أبقيـا)[٣] خرج إلى معنى النصح والإرشاد. وفي البيت استعارتان مكنيتان. الأولى في قوله: (تقدحا زند العقوق) والأخرى في قوله: (الإبقاء على العـزة القعساء من الهـدم). والبيت كناية عن إشعال فتيل الحرب، أي: البدء بها والتسبب بانتشارها.

وفي البيت الرابع أسلوب إنشائي نهي خرج إلى النصح والتحذير لأنه قد جمع

---

(١) جاءت للتحقيق؛ لأن الفعل بعدها فعل ماضٍ. وجملة (حبوت) في محل نصب صفة لـ (نصيحة)، وكلمة نصيحة مفعول به منصوب للمصدر بذلي. و (سبيعاً وميثما) مفعول به لحبوت.

(٢) اعلما: فعل أمر مبنيٍ على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة وفاعله الألف، وأنَّ وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب مفعول به لـ «اعلما». وقوله: (إعلما) وما بعدها جملة مقول القول في محل نصب.

(٣) أبقيا: فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعة (يبقيان) من الأفعال الخمسة، والألف الفاعل.

بين النصح الواضح في قوله: (تجر عليكما)[1] والتحذير المتضمن معنى (النهي). وفي البيت استعارة في قوله: (تجنيا) شبه الحرب بثمار تجنى على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي البيت الخامس: أسلوب خبري خرج إلى الحكمة[2]. وفيه أيضاً استعارة مكنية حيث شبه الحرب بالمرضع.

وفي البيت السادس: أسلوب إنشائي في قوله: (حذار)[3] خرج إلى العِظَة والتنبيه. وفي قوله: (لا تستنبثوها) أسلوب إنشائي نوعه نهي خرج إلى معنى النصح والإرشاد. وفي قوله: (فإنها تغادر ذا الأنف الأشم مكشماً)[4] أسلوب خبري خرج إلى معنى إقامة الحجة وإجراء الحكمة وضرب المثل. وفي قوله: (الأنف الأشم) كناية عن الرجل كريم الأصل، رفيع العماد، وجيه بين الناس. وقوله: (المكشم) كناية عن الهزيمة الساحقة، وإلحاق الذل به والعار.

ويعود مرثد في نهاية الخطبة ليختمها بسجع جميل يقع في نفس السامع موقعاً حميداً معجباً، وذلك في قوله (نصحك وأمرك) وبحسن التقسيم في قوله: (نقبل نصحك) و (نطيع أمرك) و (نطفىء النائرة) و (نحل الضغائن) و (نثوب إلى السلم). فالمتأمل في هذه الأفعال الخمسة: نقبل - ونطيع - ونطفىء - ونحل - ونثوب يجدها متفرعة من أصل معنوي واحد يدعو إلى السِّلم والإذعان والرضوخ وقبول الصلح والطاعة، وهي جمل خبرية خرجت بمضمونها إلى تحكيم الطاعة، والرضا بالقناعة، وتصفية القلوب، ونبذ الأحقاد، وتوطيد أواصر الصداقة والمودة بينهم.

وفي قوله: نطفىء النائرة: استعارة تصريحية، حيث شبه إخماد الحرب بإطفاء

---

(١) جملة (تجر) في محل نصب صفة لحرب. وأشأم: صفة ليوم. ويوم: مفعول به منصوب للفعل تجر، وفاعل تجر العواقب.

(٢) البيت: (فإن....) الفاء واقعة في جواب الشرط في البيت السابق، والتقدير: إن تجنيا حرباً فإنه جناء عليكم. وعرضة: خبر إن مرفوع. وللحين: جار ومجرور متعلق بالخبر عرضة. والضمير في تفوقهم مفعول به أول. والذعاف: مفعول به ثانٍ. والمقشبا: صفة.

(٣) حذار: اسم فعل أمر.

(٤) ذا: مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة. ومكشما: حال منصوب.

النار. وفي قوله: (نحل الضغائن) كناية عن التحابب والتوادد والمصالحة.

## العاطفة والخيال:

العاطفة صادقة كل الصدق عميقـة غايـة العمق استطاع مـرثد فيهـا أن ينقل أحاسيسه ومشاعره إلى الآخرين، بدليل قبولهم حكمه، ونزولهم على رأيـه، وهي عاطفة أخوة وعظة وحسن نصيحة، وهي مؤثرة وعميقة حيّة دافئة؛ بما تحمله من معانٍ سامية، وأخلاق نبيلة، كل ذلك جعل النص خالداً إلى يـومنا هـذا، تردده الألسن ويتناقله الباحثون، وتدوّنه الأقلام، وتحفظه الكتب.

وليس في هذا النص مجال للجنوح في الخيال؛ لأنه واقعي، وما جاء من صور بلاغية، ومحسنات بديعية فهي عفوية غير متكلفة، لم يقصدها الخطيب، ولم يبحث عن إبرازها في نصّها؛ لذلك جاءت تزين النص، وتجسد المعاني، وتجمل الخطبة.

# د ـ خطب المناسبات الإجتماعية

## خطبة أبي طالب بن عبد المطلب في زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة(١):

خطب أبو طالب حين زواج النبيّ ﷺ بالسيدة خديجة فقال:

«الحمد لله الذي جعلنا منْ زرعِ إبراهيم، وذريّة إسماعيل(٢)، وجعل لنا بلداً حَرَاماً(٣)، وبيتاً محجوجاً، وجعلنَا الحكّامَ عَلَى الناس. وإن(٤) محمدَ بنَ عبدِ الله

---

(١) كانت خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة مع ما أراده الله من كرامتها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ - فيما يروى - فعرضت عليه نفسها، وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأكثرهن مالاً وشرفاً، وكل قومها كان حريصاً على أن يحصل على ذلك منها لو قدر عليه. فلما أرسلت إلى النبي ﷺ، قالت له: يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (أي من الوسط) في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه. فأبلغ أعمامه، وخرج معه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته حتى دخل على خُويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها، وأَصْدَقَها عشرين بَكْرةً، وكان عمر الرسول ﷺ خمساً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: ثلاثين، وقيل: سبعاً وثلاثين، وقيل غير ذلك. وكان عمر خديجة رضي الله عنها إذ ذاك أربعين سنة، وقيل: خمساً وأربعين. وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفتها وصيانتها، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها، وولدت له: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم وبه كان يكنى، وعبد الله، والطاهر، والطيب. وقيل: إن عبد الله وُلد في الإسلام هو والطاهر والطيب، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه. انظر: السيرة النبوية ١/١٨٧ وما بعدها. والاستيعاب ٤/١٨١٧ وما بعدها. والكامل في التاريخ ٢/٣٩ وما بعدها. والبداية والنهاية ٢/٢٩٤. وتاريخ الطبري ٢/١٩٦.

(٢) وفي رواية: «ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل».

(٣) وفي رواية: «وحرماً آمناً».

(٤) وفي رواية: «ثم إن».

ابنَ أخي لا يُوازَنُ به فتىً من قريش إلاّ رَجَحَ عليهِ[1]: برًّا وفضلاً، وكرماً وعقلاً[2]، ومجداً ونُبلاً، وإن كان في المال مُقِلاً[3]، فإنّ المالَ ظلٌ زائلٌ، وعاريةٌ مُسْتَرْجَعةٌ[4]، وله في خديجةَ بنت خُوَيلد رغبةٌ، ولها فيهِ مثلُ ذلك، وما أحببتُم[5] من الصَّداقِ فعليَّ» [6].

## الفكرة العامة:

تدور حول طلب يد خديجة رضي الله عنها لمحمد ﷺ. وتعتبر هذه الخطبة من المناسبات الاجتماعية.

## المضمون:

تقوم هذه الخطبة على ثلاث أفكار رئيسة:

**الأولى**: يحمد الله على ما أولى به من نعمه على بني عبد المطلب وذريته إسماعيل وإبراهيم.

**والثانية**: الثناء على ابن أخيه محمد ﷺ وبيان بِرِّه وفضله ومكانته ونبله.

**والثالثة**: الدخول في الموضوع الذي هو سبب هذه الخطبة وهو زواج محمد ﷺ من خديجة رضي الله عنها.

## الأسلوب:

يتميز أسلوب هذه الخطبة بالسلاسة والوضوح والعذوبة والرقة وشدة التركيز

---

(١) وفي رواية: «من لا يوازن بأحد إلا رجحه ولا يعدل بأحدٍ إلا فضَله».

(٢) وفي رواية: «بركة وفضلاً وعدلاً». والنبل: الذكاء والنجابة.

(٣) وفي رواية: «قِلّ» أي: قلة. وقل هنا فاعل لكان على اعتبار أن كان: فعل ماضٍ تام. أما (قلّا) فهي خبر كان. وإن: حرف شرط جازم. وكان في المال. . . : جملة فعل الشرط. والفاء: واقعة في جواب الشرط. والمال: اسم إن. وظل: خبر أول. وزائل: خبر ثان. ولنا أن نعربه صفة للظل.

(٤) وفي رواية: «فإن المال عاريةٌ مسترجعةٌ، وظل زائل».

(٥) وفي رواية: «وما أردتم».

(٦) ورد هذا النص في: إعجاز القرآن، ص ١٥٣. وصبح الأعشى ١/٢١٣. وهناك رواية: «وما كان من صداق ففي مالي، وله نبأ عظيم وخير شائع».

وعدم التكلف والتعقيد، وقد بلغ من روعة الإيجاز ما استطاع به أن يجمع الموضوع كلّه في ثلاث جمل هي قوله:

١ ـ إن محمد بن عبد الله بن أخي لا يوازن به فتى من قريش إلّا رجح عليه: براً... [١]

٢ ـ له في خديجة بنت خويلد رغبةٌ ولها فيه مثلُ ذلك[٢].

٣ ـ وما أحببتم من الصداق فعليّ[٣].

ابتدأ خطبته بأسلوب إنشائي نوعه دعاء، ثم أتبع هذا الإنشاء بجمل قصيرة خبرية متتالية خرجت إلى الفخر والاعتزاز، ثم أتبع ذلك بجملة خبرية وصفية يتحدث فيها عن ابن أخيه محمد ﷺ معدداً صفاتِه وفضائلَه بأساليب خبرية خرجت إلى المباهاة والاعتداد، إلا ما كان من قوله: (وإن كان في المال مُقِلّاً فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة...) فهو أسلوب خبري خرج إلى بيان الحقيقة والواقع.

أما قوله: (وما أحببتم من الصداق فعلي) فهي جملة شرطية إنشائية وجوابها خبري خرجت إلى معنى الالتزام.

وفي قوله: (ذرية إسماعيل وزرع إبراهيم) حسن تقسيم، ونجد في قوله: (فضلاً وعقلاً ونبلاً ومُقلاً) سجعاً.

---

(١) لا: نافية. ويوازن: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع للتجرد. وبه: جار ومجرور متعلقان بالفعل يوازن. وفتى: نائب فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف المقصورة للتعذر. ومن قريش: جار ومجرور متعلقان بصفة لـ «فتى» تقديرها: معدود أو منتسب. وإلا: أداة حصر. ورجح: فعل ماض والفاعل ضمير هو. وعليه: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبله (رجح). وبراً: تمييز منصوب. وما بعده معطوف على (براً).

(٢) له: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف تقديره: كائنة له معدودة في خديجة أو معتبرة فيها. ورغبة: مبتدأ مؤخر. وهذا التقديم هو الذي سوغ الإبتداء بالنكرة.

(٣) ما: اسم موصول مبتدأ، وخبره الجملة التي تعلق بها الجار والمجرور (علي) والتقدير: الذي أحببتم ردّوه علي. وجملة (أحببتم) لا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول. والفاء استئنافية. أو تعرب (ما): اسم شرط جازم. وأحببتم: جملة فعل الشرط. والفاء: رابطة لجواب الشرط. والجار والمجرور متعلقان بجواب الشرط المحذوف تقديره: فاتركوه عليّ، أو جملة اسمية فهو عليّ.

أما الاستعارة فهي في قوله: (زرع إبراهيم) حيث شبه النسل بالزرع، وفي قوله: (لا يوازن به فتى) استعارة أخرى، حيث شبهه بشيء يوزن فيرجح. وتجد تشبيهاً بليغاً في قوله: (ظل زائل)، وكذلك الأمر في قوله: (فإن المال عارية)[1].

وهناك كنايات تجدها في قوله: (ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل) كناية عن الاعتزاز والاعتداد بالأصل وشرف النسب. وكذلك في قوله: (وجعلنا الحكام على الناس) كناية عن الشرف والوجاهة، ورفعة القدر وعلو المكانة.

أما قوله: (وله في خديجة... رغبة) ففيه تقديم الخبر الجار والمجرور (له) المتعلق بالمحذوف (كائنة له...)، وذلك للتأكيد.

## العاطفة والخيال:

لقد كانت عاطفة أبي طالب في هذه الخطبة عاطفة تملؤها حرارة صدق، مفعم بالمحبة، واستعداد كامل لتحمل المسؤولية، وهي عميقة مؤثرة، استطاع أن ينقل إلينا دفء هذا الصدق، في حين نعيش معه أحداث هذه الخطبة خطوة بخطوة، مقدرين شهامته ونبل أخلاقه، سائلين الله عزّ وجلّ له المغفرة وحسن الثواب.

وأما الخيال فلا مجال له في خطبة واقعية، وما ورد من صور بلاغية كانت عفوية غير متعمدة.

---

(١) العارِيَة والعاريَّة مفرد العَوَار والعَواريّ: الإعارة وما تعطيه غيرَكَ على شرط أن يعيده لك.

## هـ ـ خطب المحافل والوفود

### خطبة أكثم بن صيفيّ[1] يعزّي عمرو بن هند[2] ملك العرب في موت أخيه:

أيُّها الملكُ: إنَّ أهلَ هذه الدَّارِ سَفْرٌ لا يَحُلُّونَ عَقْدَ الرِّحَالِ إلاّ في غيرِها، وقد أَتاكَ ما ليسَ بمردودٍ عَنْكَ، وارتَحَلَ عنكَ ما ليسَ براجعٍ إليكَ، وأَقامَ معكَ مَنْ سيَظْعنُ عَنْكَ ويَدَعُكَ، واعلم أَنّ الدُّنيا ثلاثةُ أيّامٍ: فأَمْسِ عِظَةٌ، وشاهدُ عدلٍ،

(١) انظر ترجمة أكثم في باب الوصايا، الوصية رقم ٣.

(٢) عمرو بن هند: ملك الحيرة، سمي بـ مضرط الحجارة لشدة وطأته وصرامته، وسمّي بالمحرّق لأنه أحرق ثمانية وتسعين رجلاً من بني دارم بالنار وكملهم مئة برجل من البراجم وبامرأة نهشلية، ولهذا قيل: (إن الشقي وافدُ البراجم) وكان رجل منهم قتل ابنا له خطأ، فهذا مثل يضرب في الشقاء والجبن. ويروى أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند انصرف ذات ليلة من مجلس صفائه وهو ثَمِل، فرمى رجلاً من بني دارم بسهم فقتله، فوثب عليه بنو دارم فقتلوه، فغزاهم عمرو بن هند، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم أقسم ليحرقن منهم مئة فبذلك سمّي محرّقا، وأخذ تسعة وتسعين رجلاً منهم،فقذفهم في النار وأراد أن يُبر قسمه بمن تكمل به العدة، فمر رجل يقال له عمّار، فتشمم رائحة اللحم، فظن أن الملك قد اتخذ طعاماً للأضياف، فعرج إليه، فأتى به، فقال: من أنت؟ فقال: أنا وافد البراجم، فقال عمرو: إن الشقيَّ وافدُ البراجم، فصار مثلاً للشقي يسعى بقدمه إلى مَراقِ دمه، ثم أمر بقذفه في النار تَحِلَّةً لقسمه.

ويروى أن هند بنت الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار ولدت ثلاثة متتابعين: عمرو بن هند وقابوساً والمنذر بن المنذر، وكان الأخير على الحيرة إلى أن غزا الحارث بن أبي شَمر الغساني، وهو الحارث الأعرج الحيرة فقتله الحارث الأعرج بالخِيار. ولا نعرف أي أخوته الذي مات، وذهب أكثم لتعزيته به. والجدير بالذكر أن عمرو بن هند اللخمي هو الذي أمر بقتل طَرَفة بن العبد، وهو أيضاً الذي قتله عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة. انظر هذه الأخبار في: الأغاني ٤٧/١١ وما بعدها. وثمار القلوب ص ١٠٧ ـ ١٠٨ و٢١٦ ـ ٢١٧. والمعارف، ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩. ووفيات الأعيان ٩٢/٦ ـ ٩٣.

فَجَعَكَ بنفسِهِ، وأَبْقَى لكَ وعليكَ حكمَتَهُ. واليومَ: غنيمةٌ وصديقٌ، أَتاكَ ولَمْ تأْتِه، طالتْ عليكَ غيبَتُهُ، وستُسرعُ عنكَ رحلَتُه. وَغداً: لا تدري مَنْ أَهلُهُ، وسيأْتيكَ إنْ وَجدَكْ! فَمَا أَحسنَ الشكرَ للمنعمِ، والتسليمَ للقادرِ! وقد مضتْ لنا أُصولٌ نحنُ فروعُها، فما بقاءُ الفروعِ بعدَ أُصولِهَا؟ وآعلمْ أَنَّ أعظمَ مِنَ المصيبةِ سوءُ الخَلَفِ منها. وخيرٌ مِنَ الخيرِ مُعْطِيهِ، وشرٌّ من الشرِّ فاعلُهُ[1].

## الفكرة العامة:

مجموعة من الحكم المتتالية تتتابع كالوابل الصيب، كانت بمثابة تعزية لعمرو بن هند ملك الحيرة، استطاع فيها أكثم أن يثبت للملك الحقائق التالية:

١ ـ إن هذه الدنيا إلى فناء، وليس فيها بقاء.

٢ ـ إن هذه الدنيا يمثلها أيام ثلاثة:

أ ـ **الماضي**: وهو عظةٌ وشاهد، لا بدّ من الاستفادة منه واكتساب الخبرة والتجربة من خلاله.

ب ـ **الحاضر**: غنيمةٌ يجب حسن التعامل معها واستغلالها.

جـ ـ **الغد**: غيبٌ لا يعلمُ أحد مَنْ أهلُه وعلى من يَقْدَمُ، وأن العاقل من سلَّم لهذا الصانع الحكيم وشكر فضلَه العميم.

٣ ـ شذرات تحمل في طياتها حِكَماً متفرقةً... كقوله: نحن فروع لأصول مضت. فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ وأعظم من المصيبة سوءُ الخلف. والخير خيرٌ لمعطيه، والشرُّ شرٌّ لفاعله.

## المضمون

يبدأ أكثم تعزيته بـ (أيها الملك) وهي مخاطبة القريب، كل من يعيش في هذه الدنيا مسافر لا يترك عصا الترحال ما دام في هذه الدار، إلا بالرحيل عنها؛ والذي نزل بك لم يكن ليرحل عنك، وهو موت أخيك ومفارقتك له. وهذا الذي فارقته لن يعودَ

---

(١) ورد هذا النص في العقد الفريد ٣/ ٢٦٠.

إليك أبداً، حتّى الـذين يجلسون معـك، ويجتمعون من حـولك سيـرحلون عنك ويدعونك وحيداً، تلك هي سُنَّة الحياة.

واعلم أيها الملك بأن هذه الدنيا أيامٌ ثلاثة: فأمسِ الدابر، كلُّه عبرةٌ وعظةٌ، وشاهد على أعمالنا، ومرتحل عنا، خلَّف لنا حكمةً ودرساً. وهذا اليوم أخٌ وغُنْمٌ، وصديقٌ حميم، جاءنا ولم نأته، ووصل إلينا بعد طول غياب، كذلك سيرحَلُ عنّا، ويسرعُ في الإياب. أما اليومُ الثالث فهو الغد الذي لا ندري من يدركُه ويَسْلَمُ له، ستدركه إن بقيتَ له، وسيصلُك إنْ وجَدَك، وليس أفضلُ من شكرِ القادر والتسليم للمنعم.

إن الآباء والأجداد الذين رحلوا عنّا تركونا في هذه الحياة، وليت شعري مـا للفروع بقاءً بعد الأصول. واعلم أيها الملك أن أفحش المصيبة وقعاً على المرءِ سوءُ الذّريَّة، وبشاعة الخَلَفِ، إن أفضل من الخير هو الذي يفعل الخير، وأسوأ من الشر هو الذي يرتكبه ويصرُّ عليه.

## الأسلوب:

أسلوب بلاغي موجز يحمل بين طياته مَسْحةً من الحزن، تتكىء على أسلوب منطقي للإقناع، وإقامة الحجة. يَبْتَدِرُه أكثم بصورةٍ خيالية ما يزال يجسِّمُها حتى تكاد تصبح حقيقةً واقعةً: الناس مسافرون، وكأنه يريد أن يقول: هذا في غرفته مرتحل، وذاك على سريره مسافر، وثالث يسافر على كرسي وراء مكتبه، والبشر كلهم في سفر لا يتوقفون عنه، حتّى تنتهي بهم هذه الدار. وهذا تشخيص مؤثر بلغ به أكثم ذُرْوَةَ الوصفِ وجمال الخيال.

أما الكاف التي ترددت في الكلمات الآتية: أتاك وعنك وإليك ومعك وليـدعك فهي حرف همسٍ فيه مسحةُ حزنٍ ورقةُ موسيقى وعذوبةُ لفظ.

ونجد حسن التقسيم في قوله: الأمس واليوم والغد ومايصير إليه كلُّ واحدٍ من هذه الأقسام.

يتخلل ذلك كلّه نصح وإرشاد وحكمة، فما أروع قوله: (غدٌ لا تدري من أهله

وسيأتيك إن وجدك) في استعارة مكنية تجعل من هذا الغد: إنساناً يَعْقِلُ ويفكِّرُ، وقد حذف المشبه به وهو الإنسان. وكذلك في أمسِ واليومَ استعارتان مكنيتان بتشبيههما بالإنسان.

وهل تجد معي أيها القارىء أرفع حكمة وأجملَ عظةً من قوله: فما أحسنَ الشكر للمنعم والتسليم للقادر؟ أو أبين مقالاً وأعمق أثراً من قوله: (مضت الأصول فما بقاء الفروع) أي: أن الفروع ستتبع الأصول؟ وهل هناك أجمل من تشخيصه للمضي والبقاء وتجسيده لهما؟

ويختتم خطبته بجملتين رائعتين فيهما حسن التقسيم، وجمال التوازن حيث يقول: (خير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله) أساليب خبرية خرجت إلى حكمةٍ خالدةٍ، وعظةٍ لا تزول.

## العاطفة والخيال:

عاطفة حزن يغلب فيها عنصر الحكمة، ويسيطر عليها المنطق، وقد أقام الخطيبُ أكثم الحجة فيها على زوالِ الدنيا وفناءِ هذه الحياة، واستطاع أن ينقل تأثُره إلينا بلهجة صدقٍ، وحنكةِ مجرِّب، وأسلوب حكيم.

ولم تظهر الرسمية فيها لفرط مهارةِ صاحبها في المزج بين الشكل الرائع، والمضمون العميق المعبِّر بانسجام ساحرٍ، وتوازنٍ أخاذ، ولم يكن فيها مجالٌ للخيال، لأنها حكمٌ وأمثالٌ تعتمد الواقعية، وتركز على المنطق، وتقيم الحجة والإقناع والدليل. أما ما أتى من الخيال فيها، فكان عفو الخاطر غير متعمد وغير مقصود.

## تعليق:

لقد أحسن أكثم صنعاً حين عزّى الملك بهذه الحكم والعبر والنصح والإرشاد، وكنت أتوقع حين قرأت وفود أكثم على الملك لتعزيته، أن يتبنى مبدأ الرثاء؛ الذي عهدناه في الأدب العربي من تعداد مناقب الميت، ولكنه لم يفعل كما رأينا، والشاهد على ذلك ما أورده قدامة بن جعفر عن نعت المراثي بقوله: «إنه ليس بين المرثية

والمدحة فصل إلّا أن يذكر في اللفظ ما يدلّ على أنه لهالك، مثل: «كان» و «تولى» و «قضى نحبه» وما أشبه ذلك، وهذا لا يـزيـد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير «كان» وما جرى مجـراها، وهو أن يكون الحيّ وُصِفَ مثلاً بالجود، فلا يقال: «كان جواداً» ولكن بأن يقال: «ذهب الجود» أو «فمن للجود بعده» ومثل: «تولى الجود» وما أشبه هذه الأشياء»[1].

إذن نحن أمام ظاهرة جديدة لم نألفها في الشعر ـ تلك الظاهرة التي فتح بابها النثر ـ تستحق الدراسة والوقوف عليها، وقد اهتمت هذه القضية بأخذ العبر من موت الملوك وأبنائهم وكل الناس، لا الاهتمام بمناقب الميت وذكر إيجابياته، والبكاء على مفارقته.

والممعن في هذا النص لا يجد الحزن العميق، ولا البكاء ولا العويل، إنما يتلمس مسحة من الحزن حين يعرف أنه قيل في باب التعزية، لذلك كلّه كان تأثيره واضحاً، في ألفاظه ومعانيه وأسلوبه وعاطفته.

---

(١) نقد الشعر، ص ١٠٠.

# و ـ خطب الإرشاد والتوجيه(١)

## خطبة(٢) قُس بن ساعدة الإيـادي(٣) في سوق عكاظ(٤):

(١) نعني بذلك خطب التأمل والنصح، وهي تلك الخطب التي كانت تلقى في المحافل بالأسواق المعتمدة عند العرب، مثل سوق عكاظ.

(٢) تصرفت في ربط الخطبة من مصادر متعددة؛ لأنها لم ترد كاملة في مصدر واحد.

(٣) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن إياد، خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها، يقال: إنه أول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا، وهو أول من خطب على الراحلة. ويقال: إنه أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأظهر التوحيد بمكة، وهو أول من حرَّم في الجاهلية الخمرة والسكر والأزلام. وهو أيضاً أول من قال في كلامه: «أما بعد» أي: بعد دعائي لك. أدرك الرسول ﷺ قبل النبوة، ورآه بعكاظ، فكان يؤثر عنه كلاماً سمعه منه [وقد قمت بتحقيق مخطوطة بعنوان «حديث قس بن ساعدة الإيادي» ونشرها بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ـ العدد الثاني ١٤١١ هـ/ ١٩٩١. وتضم المخطوطة ثلاث روايات: رواية الشعبي عن ابن عباس. ورواية أبي صالح عن ابن عباس. ورواية الحسن البصري عن الجارود] وقد ورد في هذه الروايات أن النبي ﷺ، سأل وفد بكر بن وائل الذي قدم عليه: هل فيكم أحد يعرف قسَّ بن ساعدة؟ قالوا: كلنا يعرفه. قال: ما فعل؟ قالوا: هلك. قال: ما أنساه بعكاظَ على جمل أحمر في شهر حرام، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، وذكر الخطبة. ويقال: إن الرسول ﷺ قال: يرحم الله قسَّ بن ساعدة، إني لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحـده. والأمة: الرجل المنفرد بدين. ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «إنه كان على دين أبي إسماعيل بن إبراهيم». (فيض القدير ٤/ ١٩).

وكان يضرب به المثل، وفد على قيصر ملك الروم، زائراً، فأكرمه وعظمه، وقس معدود في المعمرين، قيل: إنه عَمَّر سبعمئة سنة، وقيل: ستمئة، وقيل: ثلاثمئة وثمانين، توفي قبل البعثة نحو سنة ٢٣ ق. هـ/ ٦٠٠ م. انظر: الأغاني ١٥/ ١٩٢. وجمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٨. والمحبر، ص ١٣٦. وخزانة الأدب ٢/ ٩٠. وإعجاز القرآن، ص ١٦٩. ومجمع الأمثال ١/ ١١١. والأوائل ١/ ١٠٧. وثمار القلوب، ص ١٢١. وكتاب العصا، ص ٧٨. ودلائل النبوة ٢/ ١٠٧. وعيون الأثر ٥/ ١٩٦. وغيرها كثير، انظرها في: مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، العدد الثاني، ص ٢٠٢ ـ ٢٣١.

(٤) عكاظ: اسم موسم للعرب كانوا يجتمعون فيه، ويتسوقون به كل سنة، ويتفاخرون بأيامهم، ويتناشدون =

أَيُّها الناسُ اسمعُوا وعُوا(١)، مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فاتَ(٢)، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ(٣)، آياتٌ مُحكَمَات(٤)، مَطَرٌ ونَبَاتٌ، وآباءٌ وأُمّهاتٌ، وذاهبٌ وآتٍ(٥)، ضوءٌ و ظلامٌ، وبِرٌّ وآثامٌ، ولباسٌ ومَرْكَبٌ. ومَطْعَمٌ ومَشْرَبٌ، ونجومٌ تمورُ(٦)، وبحورٌ لا تغورُ(٧)، وسقفٌ مرفوعٌ(٨)، ومِهادٌ موضوعٌ(٩)، وليلٌ داجٍ(١٠)، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ(١١)، إنّ في السماءِ لَخبراً(١٢)، وإنّ في الأرضِ لَعِبَراً(١٣)، ما بالُ الناسِ يذْهَبُونَ ولا يَرْجِعُونَ؟ أَرَضُوا بالمُقام فأَقاموا؟ أَم تُرِكوا فنَامُوا؟

يا مَعْشَرَ إيادٍ! أَينَ ثمودُ وعادُ؟ وأَينَ الآباءُ والأَجدادُ؟ أَينَ المعروفُ الذي لم

---

= الأشعار ويتواعدون، فأبطل الإسلام ذلك. وعكاظ: اسم مؤنث معرفة، ولذلك لا ينصرف، ويقال: إنه مشتق من قولهم. تعكظوا، إذ تدافعوا وازدحموا. ويقال: لأن العرب كانت تجتمع فيها، فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة، أي: يدعك. وسوق عكاظ بالقرب من مكة. انظر: لسان العرب، عكظ. ومعجم البلدان ٤/٢٤٢. وحديث قس بن ساعدة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ص ٢٠٦.

(١) عوا: من قولك: وعيت القول: إذا فهمته وحفظته.

(٢) هذا وعظ وتنبيه على الاعتبار، ودلالة على الصانع الخالق العظيم لما ركب في الخلق من الموت والحياة.

(٣) هذا إثبات للقدر، ولأن ما خُلق يأتي، والأقدار تأتي. أي: كل آت لا مفر منه.

(٤) الآيات جمع الآية؛ وهي العبرة. ومحكمات: مفصلة، واضحة بيّنة.

(٥) لعله قصد بالذاهب: الميت، وبالآتي: المولود.

(٦) تمور: تذهب وتجيء، تجول وتسبح، والمَوْر: سرعة الحركة. ولولا أن لها مصرفاً ومدبراً لما مارت.

(٧) تغور: يذهب ماؤها. تقول: غار الماء: ذهب في الأرض.

(٨) يريد: السماء.

(٩) المهاد: الأرض المنخفضة. يقول الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [النبأ: ٦] أي: مبسوطة.

(١٠) داج: مظلم.

(١١) بروج السماء: صور تقع في هيئة حيوان، وهي اثنا عشر برجاً، وهي دائرة ترسمها الشمس في سيرها في السماء في سنة كاملة. وسماء: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي سماء. وذات: صفة. وأبراج: مضاف إليه.

(١٢) في هذا ردّ على الملحدين وأهل التعطيل الذين يزعمون أن ليس غير السماء والأرض وما بعدهما، فدل على أن في السماء لخبرا غير ما تعلمون. ونعني بالملحدين وأهل التعطيل: هم الذين قالوا بصدور العالم عن غير خلق، وإيجاد من الله سبحانه وتعالى، وأن الطبيعة هي التي أوجدت نفسها بنفسها، وهذا يؤدي إلى تعطيل الصانع عن خلق العالم. انظر: كتاب تلبيس إبليس، لابن الجوزي في ردّه على الطبائعية والدهرية والفلاسفة القدماء، ص ٤١ و٤٣ و٤٥.

(١٣) في هذا حجة للردّ على الملحدين، ودليل على أن الأرض فيها عبرة على خبر السماء، فالشاهد منها يدل على ما غاب من خبر السماء.

يشكر، والظّلمُ الذي لم يُنْكَر؟ يُقسِمُ قُسٌّ باللهِ قَسَماً لا إثم فيه إنَّ لله ديناً هو أَرْضَى له وأفضلُ من دينكُم الذي أَنتم عليه ، فطُوبى(١) لمن أَدْرَكَـهُ فـاتَّبَعَهُ، وويـلٌ لِمَنْ خَالَفَهُ.

(ويروى أن قسّاً أنشأ بعد ذلك يقول) : (من مجزوء الكامل المرفل)

فـي الـذّاهـبـيـن الأوَّلـيـ ـنَ مِنَ القُرونِ لنا بَصَائِرْ (٢)
لـمّـا رأيـتُ مَـوارِداً للمـوتِ ليسَ لهـا مصـادرْ (٣)
ورأَيـتُ قَـوْمـي نَـحْـوَهَـا يَمْضِـي الأَكـابـرُ والأَصـاغِـرْ
لا يـرجِـعُ الـمـاضـي ولا يَبْقَى مَنَ البـاقيـنَ غَـابِـرْ (٤)
أَيْـقَـنْـتُ أنـي لامَـحَـا لَةَ حيثُ صارَ القـومُ صـائرْ (٥)

## الفكرة العامة:

هي فكرة الموت الـذي لم يبق على أحد، وقـد سيطرت هـذه الفكرة على الخطيب من أول النص إلى آخره، ووجد في قضية المـوت فرصـة ليرشـد الناس

(١) الطوبى: الغبطة والسعادة والخير. تقول: طوبى لك: أي لك الحظ والعيش الطيب. وأصلها: شجرة في الجنة. (اللسان، طيب).

(٢) أي: لنا عبرة في الأمم التي هلكت وزالت.

(٣) الموارد: جمع المورد، وهو طريق الواردة إلى الماء. والمصادر: جمع المصدر، وهو المرجع، وهو ضد المورد.

(٤) الغابر: الباقي. يقال لمن مات: مضى، ولمن عاش: غبر.

(٥) انظر هذا النص في: الكامل في ضعفاء الرجال ٢١٥٥/٦. وكشف الأستار ٢٨٦/٣ - ٢٨٧. والمعجم الكبير ٨٨/١٢ - ٨٩. وتنزيه الشريعة المرفوعة ٢٤١/١. وكتاب الموضوعات ٢١٣/١. وتاريخ بغداد ٢٨١/٢. والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٩٠٩/٤. ونقد النثر، ص ٩٩. ومروج الذهب ٦٩/١. ومجمع الأمثال ١١١/١. والعقد الفريد ٢١٥/٤. ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد المجلد الخامس ٤١٨/٩ - ٤١٩. وثمار القلوب، ١٢١ - ١٢٢. وإعجاز القرآن، ص ١٦٨. وعيون الأثر لابن سيد الناس ٨٦/١. وخزانة الأدب للبغدادي ١٨٩/٩. وكتاب العصا، ص ٧٨. ودلائل النبوة ١٠٢/٢. والأوائل ١٠٧/١. والبيان والتبيين ٣٠٨/١. والأغاني ١٩٣/١٥. وصبح الأعشى ٢١٢/١. وأنوار الربيع ٣٠٦/٤. والزهرة ٣١/٢. وغيرها كثير، انظرها في: مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، العدد الثاني، ص ٢٠٣ - ٢٣١.

ولا محالة: مَفْعَلة من الحول والحيلة. وقد تستعمل «لا محالة» بمعنى: لا بدّ، وأحياناً بمعنى: لا حيلة.

ويوجههم وينصحهم للتأمل في هذا الكون الذي يدل على قدرة الخالق العظيم. وكان ذلك كله من خلال إلقائه هذه الخطبة في المحافل التي أقيمت في سوق عكاظ.

## المضمون:

يتحدث خطيب العرب قس بن ساعدة عن مظاهر الكون؛ التي تشير إلى الصانع العظيم. ويضرب لذلك أمثالاً من واقع المكان والزمان، ويستشهدُ التاريخَ متمثلاً بعادٍ وثمودَ، وبالآباء والأجداد. ثم يلقي بعد ذلك قسمه المعظم حاثاً الناسَ على اتباعه وعدم مخالفته.

ويقول بعد ذلك شعراً حتى لكأنه يعيد صياغة هذه المعاني النثرية بكلامٍ منظوم موزون، متكئاً فيه على مجزوء الكامل، مستعملاً حروف المدِّ ينفثُ فيها كوامن صدره، وَيَزْفِرُ من خلال حروفها ما رسخ من إيمان فكره، مدللاً بذلك على عمق عقيدته، وخالص إيمانه بالله الواحد الأحد، وبأنَّ هذا الكونَ حادثٌ ومصيرُه إلى زوال. وكأنما يبكي الخطيب نفسَه وهو يرى مصيرَه الزائل، ويصوغ ذلك شعراً؛ ليكون عبرةً في النفوس، وأثراً خالداً على الزمن، حينما يأتي بجواب الشرط لقوله: لما رأيتُ موارداً... فيجيب: أيقنت...

## الأسلوب:

لقد كان أسلوبُ قس بن ساعدة أسلوب الرصانة والانتقاء والاصطفاء، ألفاظه مختارة، جمله قصيرةٌ مركزة، تنشُر معانيَ غزيرةً بألفاظ قليلة، يستعمل فيها التنكير؛ لأنه أعمُّ وأشمل، انظر إلى قوله: (آياتٌ محكمات إلى قوله... وسماءٌ ذات أبراج) كلها نكرات، والنكرة تفيد العموم، فهي أشمل وأعم. فكلمة آيات خبر لمبتدأ محذوف تقديره الكون أو هي آيات محكمات، ومحكمات صفة لآيات، وهكذا.

كما يستند الخطيب إلى الإيقاع الصوتي مكثراً من: الطباق والجناس والمقابلة والسجع وحسن التقسيم. فالجناس الناقص في قوله: (اسمعوا وعوا) و(مات وفات). والطباق في قوله: (عاش ومات). وحسن التقسيم في هذه الجمل المتتالية حتى قوله: (وكل ما هو آت آت). والمقابلة في قوله: (سقف مرفوع، ومهاد

موضوع). وكذلك في قـولـه: (ليل داج، وسماء ذات أبراج). وفي قوله: (إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً). وأخيراً في قوله: (طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه).

أما السجع فينسحب على النص جميعه من أوله إلى آخر كلمة في النَّثر. أنظر مثلاً إلى قوله: آيات محكمات، مطر ونبات. . . وهكذا.

وقد كان للصور البلاغية نصيب في هذا النص، فمثلاً، قوله: (ما بال النـاس يذهبون ولا يرجعون؟) كناية عن عجز المخلوق. وقوله: (سقف مرفوع) كناية عن السماء. وقوله: (مهاد موضوع) كناية عن الأرض. وقوله: (طوبى) كناية عن الخير والحسنى والسعادة والهناءة.

ويراوح الخطيب في أسلوبه بين الخبر والإنشاء؛ ليكون أعمق أثراً وأكثرَ دلالةً، فيبتدىء خطبته بالنداء: (أيها الناس) ليلفت الأنظار إليه، ثم بالأمر: (اسمعوا وعوا) الذي خرج إلى معنى شدِّ الانتباه، واستعمال الحكمة بما يذيله في هـذا الأمر من قوله: من عاش مات[1]، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. . . . فهذه جمل خبرية خرجت إلى معنى إظهار الحقيقة وإثبات الواقعية، وخرجت عن احتمالها للكذب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الأسلوب الخبري من قوله: (آيات محكمات) إلى قوله: (إن في الأرض لعبرا) وقد خرجت هذه الأخبار جميعها إلى الوعظ والإرشاد وحسن التذكر.

ثم يعـود إلى أسلوب الإنشاء في الاستفهـام: (ما بـال النـاس يـذهبـون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟)[2] هذا الاستفهام الذي خرج إلى

---

(١) من: اسم شرط جازم. وعاش: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ومات: فعل ماضٍ مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط.

(٢) ما: استفهامية في محل رفع مبتدأ. وبال: في محل رفع خبر وهي مضاف. والناس: مضاف إليه. ويذهبون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنـه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل. ولا يرجعون: الواو حرف عطف. ولا: نافية. ويرجعون مثل يذهبون. وأرضوا: الهمزة للاستفهام. ورضوا: فعل ماضٍ مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعـة. والواو: فاعل. وبالمقام: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبله. فأقاموا: الفاء حرف عطف. وأقاموا مثل ناموا. وأم: حرف عطف. وتركوا: فعل ماضٍ مبني للمجهول. والواو نائب فاعل. فناموا الفاء: عاطفة. وناموا: فعل ماضٍ وفاعل.

بيان الحقيقة والواقع، فهو استفهام تقريري، يحمل معنى التعجب.

ويتابع أسلوبه الإنشائي بندائه: (يا معشر إياد!) وفي الاستفهام المتتالي: (أين ثمودُ وعادُ؟ وأين الآباءُ والأجدادُ؟ أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر؟)، فقد خرجت هذه الاستفهامات إلى التقريع والتحدي والتنبيه والإرشاد. ثم يتبع هذه الإستفهامات بِقَسمٍ أعدَّ له وهيّأ بمقدمة طويلة ليطرح هذه الحقيقة؛ التي يريد الوصول إليها: (إن لله ديناً هو أرضى له وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه) مستعملاً أسلوب التوكيد:

أ ـ بالقسم.

ب ـ والوصف (لا إثم فيه) (لا: نافية للجنس، وإثم: اسمها. وفيه جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف تقديره كائن أو موجود. والجملة في محل نصب صفة لـ «قسماً»).

جـ ـ تأكيد بإن.

د ـ وتقديم الخبر(لله) على المبتدأ (دين).

هـ ـ والوصف، وذلك بوصف (الدين) بالجملة الإسمية (هو أرضى). وفي قوله؛ (طوبى . . .) جملة إنشائية غرضها التطمين والإشعار بالسعادة[1].

* * *

وأما في الشعر، فقد استعمل التأكيد ـ وهو من أفضل صفات الخطب الناجحة ـ في التقديم والتأخير منذ البيت الأول، حيث قال: (في الذاهبين) خبر مقدم،

---

(١) فطوبى: الفاء استئنافية. وطوبى: مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف المقصورة للتعذر. ولمن: اللام حرف جر. ومن: اسم موصول في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف. والتقدير: طوبى كائنه لمن. . . وأدركه فعل ماض مع مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وجمله أدركه لا محل لها من الإعراب صلة الموصول. فاتبعه: الفاء حرف عطف. واتبعه: فعل ماض والهاء مفعول به. والفاعل ضمير مستتر هو. والجملة معطوفة على جملة أدركه. وويل: مبتدأ. ولمن: جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف تقديره كائن. وخالفه: فعل ماضٍ والهاء مفعول به والفاعل محذوف. ويجوز إعراب طوبى وويل خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمرُ طوبى، والحالة ويلٌ.

و (بصائر) مبتدأ مؤخر. وكذلك شبه الجملة (لنا) التي تقدمت على المبتدأ نفسه (بصائر)، والتقدير (بصائر كائنة لنا معدودة في الذاهبين الأولين من القرون) فيكون المبتدأ بصائر قد أخذ خبرين: (لنا) و (في الذاهبين)، وأما الجار والمجرور الثالث (من القرون) فهو متعلق باسم الفاعل (الذاهبين) وتكون كلمة (الأولين) صفة للذاهبين.

وفي البيت الثاني نلاحظ: الطباق بين الموارد والمصادر، والاستعارة المكنية فيهما، لأن الموارد والمصادر لا تكون للموت، إنما للشيء المحسوس كالماء مثلاً الذي يَرِدُه الظِّماء. والصدور نقيض الموارد. و (لما) هنا شرطية ظرفية، و (رأيت) جملة فعل الشرط وجوابها جملة (أيقنت) في البيت الأخير. وهناك تأكيد بعدم وجود المصادر للموت بتقديم خبر ليس على اسمها.

وفي البيت الثالث: استعارة مكنية في (يمضي) فقد شبه سيطرة الموت على الناس بمضيهم إليه، واتجاهم نحوه، وهنا صورة تشخيصية للموت. وفي البيت أيضاً طباق بين الأكابر والأصاغر.

وفي البيت الرابع: استعارة مكنية في قوله: (يرجع) شبه الماضي بكائن حي. ومقابلة بين: (لا يرجع الماضي) و (لا يبقى غابر).

وفي البيت الأخير: كناية عن إيمانه بالموت، وأنه مصيرُ كلِّ حي.. وأكد ذلك بالتقديم والتأخير، حيث قدم (لا محالة) على (صائر)، وحقّه أن يقول (أني صائر حيث صار القومُ لا محالة)، والتقدير: (أني أيقنت بأنني صائرٌ حيث صارَ القومُ لا محالةَ في ذلك)، وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب مفعول به لأيقنت.

## العاطفة والخيال:

هذه خطبة صادقة العاطفة؛ لأنها عاطفة نصح وتوجيه وإرشاد، يرفرف الإيمان على كلِّ جانب من جوانبها بأسلوب شبيه بالأسلوب العلمي، يستعمل فيه قسُّ بن ساعدة الحجج الدامغة، والبراهين القاطعة؛ ليدلل على أحقية الموت، وحتمية اليوم

الآخر. والعاطفة عميقة مؤثرة؛ لفرط صدقها، وجلال القسم فيها في مكانه المناسب في نصٍّ جعل قسٌّ خاتمتَه أبياتاً من الشعر الغنائي المؤثر؛ الذي يزيد دفء الحرارة فيه، رثاؤه لنفسه، وهو يقول:

أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

وإن الأسلوب العلمي المتأدب في هذا النص مع الطريقة المنطقية؛ المدعمة بالحجج والبراهين الواقعية لم تمكِّن الخطيب أن يحلق في الخيال الذي يتنافى مع واقعية النصح والإرشاد.

# ز ـ سجع الكهان

## شافع بن كليب الصدفيّ(1) يتكهن بظهور النبي ﷺ:

(قدم على تُبَّعٍ الآخِرِ ملكِ اليمن(2)، قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كليب الصدفيّ، وكان كاهناً، فقال له تُبَّع: هل تجد لقوم مُلْكاً يوازي مُلكي؟ قال: لا، إلا

(1) لم أعثر على ترجمة له. يبدو أنه كان كاهناً مشهوراً، يجالس الملوك، فيأخذون برأيه، ويستنيرون بعلمه، وكان متبحراً بالكتب السماوية، مطلعاً على ديانات العرب وعاداتهم.

(2) تبع مفرد التبابعة، وهم ملوك اليمن، سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته. وفي الحديث: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه أول من كسا الكعبة». قيل: هو ملك في الزمان الأول اسمه: أسعدُ أبو كرب، وقيل: كان ملك اليمن لا يسمى تُبَّعاً حتى يَمْلِكَ حَضرَمَوْت وسبأ وحمير. (اللسان، تبع). يقول ابن إسحاق: وكان قد جعل طريقه ـ حين أقبل من المشرق ـ على المدينة وكان قد مرّ بها في بدايته فلم يَهِج أهلَها، وخلَّف بين أظهرهم ابنا له، فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع على إخرابها، واستئصال أهلها، وقطع نخلها، فجمع له هذا الحيّ من الأنصار وخرجوا لقتاله... فبينا تُبع على ذلك من قتالهم؛ إذا جاءه حَبْران من أحبار اليهود... عالمان راسخان في العلم، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك، لا تفعل، فإنك، إن أبيتَ إلا ما تريد حِيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ فقالا: هي مهاجَرُ نبيّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، واتبعهما على دينهما... وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن... ودعا قومه إلى الدخول فيما دخل فأبوا عليه. (سيرة ابن هشام 1/20 ـ 27) ويقال: إن تبعاً هذا هو الذي آمن برسول ﷺ وقال: (من المتقارب)

شهدتُ على أحمدَ أنه ... رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُد عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عمّ

انظر: المعارف لابن قتيبة، ص 631. وملك اليمن: بدل من تبع.

مُلْكَ غسَّانَ[1]، قال: فهل تجد مُلكاً يزيد عليه؟ قال:

أَجِدُهُ لِبَارٍّ مبرورٍ، ورائدٍ بالقَهورِ[2]، ووصفٍ في الزَّبُورِ[3]، فُضِّلَتْ أُمَّتُه في السُّفُورِ[4]، يُفَرِّجُ الظُّلَمَ بالنورِ، أحمدَ النبيَّ، طوبى لأمتِهِ حينَ يجيءُ أحدُ بني لُؤيٍّ، ثم أحدُ بني قُصيٍّ[5].

(فنظر تبع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي ﷺ)[6].

## الفكرة العامة:

تـدور حول مناقشة وحـوار بين ملـك اليمن (تبع الآخـر) والكاهن (شـافـع الصَّدفي) وهي من سجع الكهان.

---

(١) يريد: الغساسنة أو آل جفنة، وهي سلالة عربية يمنية الأصل، امتلكت بلاد الشام. وجملة هل تجد لقومٍ ملكاً: مفعول به مقول القول لقال. وجملة (يوازي) صفة (للملكاً) لأن الجمل بعد النكرات صفـات. وغسان: مضاف إليه مجرور بالفتحة عوضاً عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف والمانع العلمية، ووزن فعلان.

(٢) يريد أن الرسول ﷺ سيكون رائداً لأمته يرتاد لها الخير، وبالفعل، ردّد هذا في أول خطبة له بمكة حين قال: «إن الرائد لا يكذب أهله». والقهور: لعلها جمع «القَهْر»: موضع ببلاد بني جَعْدة (اللسان، قهر) وفي معجم البلدان: القهر: أسافل الحجاز مما يلي نجدا. يبدو أنه جمع القهر حتى يستقيم له السجع، وهناك رواية: (أُيِّد بالقهور).

(٣) الزبور واحد الزُّبُر، وقد غلب الزبور على صحف داود، يقول الله تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**﴾[الأنبياء:١٠٥] فالزبور ما أنزل على داود عليه السلام من بعد الذكر، أي من بعد التوراة. والزُّبور: التوراة والإنجيل والقرآن. (اللسان، زبر).

(٤) في (اللسان، سفر) الأسفار جمع السِّفر، الكتب الكبار. ولعل الكاهن أتى بالجمع (السفور) حتى يستقيم لديه السجع. وفضلت: فعل ماض مبني للمجهول. وأمته: نائب فاعل وهي مضاف والهاء مضاف إليه.

(٥) يـريد نسـب الـرسول ﷺ: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم (عمـرو) بن عبـد منـاف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالـب. . . بن مضر بن نزار بن معـد بن عدنان. . . (السيرة لابن هشام ١/١ ـ ٣).

و(أحد) يجوز فيها الرفع والنصب والجر كما هو الحال في قوله: (أحمد النبي) فأحمد: خبر لمبتدأ تقديره هو أحمد. والنبي: صفة (لأحمدُ) مرفوعة، أو منصوبة على الإختصاص لفعل أخصُّ المحذوف. والتقدير (أحمد أعني النبي) ويجوز بأحمد الجر أيضاً على أنها عطف بيان أو بدل (لبارٍ) المجرورة و(رائد). وجملة (يجيء) في محل جر بالإضافة. وبني: مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة (بنون). وقصي: مضاف إليه مجرور.

(٦) ورد هذا النص في: الكامل في التاريخ ٤١٧/١.

تتجلى هذه الفكرة من خلال ردّ الكاهن شافع على تبع زَهْوَهُ وَفَخَارَهُ، وكبْـرَهُ واعتلاءَه، بأن النبي محمداً ﷺ هو أعلى ملكاً، وأرسخ قدماً، وأن ذلك مذكور في الكتب السماوية الأخرى. ونظر الملك تبع في الزبور فوجد أن ذلك صحيحٌ وواقع،

## المضمون:

يصرّح تبع ملك اليمن مفاخراً: إنه لا يوجـد ملكٌ يوازي مُلكي، فيـردّ عليه الكاهن شافع، بل إنه ليوجد ملك النبي أحمد ﷺ الذي جاء وصفه في التوراة والزبور والإنجيل فيقرّ ملك اليمن بذلك وتنتهي المناظرة.

## الشرح والتحليل:

في قول تبّع للكاهن شافع: «هل تجد ملكاً يوازي ملكي» سؤال إنكاريٌ فيه كثير من الزَّهْوِ والفخر، وفي جواب شافع أسلوبٌ واقعي مبسط حين أقرَّ له بَعَظَمةِ ملكه، واستثنى من ذلك ملك غسان الذين كانت جذورهم ضاربةً في الأرض، ممتدة في الأعماق، يبسطون سلطانهم على بلاد الشام كلها.

ثم يتابع ملك اليمن تبع زَهْوَه وافتخاره فيسأل ثانية: هل تجدُ ملكَاً يزيد عليه؟! أي: يزيد على مُلك غسان. فيقول: نعم. إنه ملكُ النبي محمد ﷺ الذي جاء ذكره في جميع الكتب السماوية.

## الأسلوب:

هو أسلوب حوارٍ تميز بالبساطة والوضوح والإيجـاز، ما خـلا بعـض كلمات تحتاج إلى شرح وبيان، كالقهور: جمع القهر، والسفور جمع السِّفر، وهو الكتاب الكبير الذي يبيّن ويوضح ويشرح ويَهدي.

استعمل في أسلوبه السجـع وحسن التقسيم والطبـاق. فالسجـع في قولـه: (مبرور) و (قهـور) و (زبور) و (سفور). وحسن التقسيم في قوله: (بارٍ مبرور) و (رائد للقهور) و (وصف في الزبور). . . الخ. والطباق كما في قوله؛ الظلم والنور.

وقد كانت جمله خبرية خرج أكثرها إلى الإعجاب والفخر والمديح. واستعمل

أيضاً الكنايات، كما في قوله: (فضلت أمتُهُ في السفور) كناية عن الكتاب، أي: القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. وقوله: (يفرج الظلم بالنور) فالظلم كناية عن الضلال والجهل، والنور كناية عن الهداية والعلم. وكلمة (طوبى) أصلها شجرة في الجنة واستخدمت هنا كناية عن السعادة والفرح والسرور والهناءة.

كما أنه كنّى ببني لؤي وبني قصي عن أجداد الرسول ﷺ الذين ينتهي إليهم نسبه الشريف.

## العاطفة والخيال:

العاطفة صادقة؛ لأنها تنتهج الأسلوب الواقعي، ومؤثرة؛ لأنها أسلوب ديني استطاعت أن تنقل قناعات المتحاورين إلينا في هدوء وثقة وحسن إقناع مما أدى إلى إيمان ملك اليمن تبع بعد النظر في الزبور بصدق الرسالة المحمدية.

ولا نجد في هذا النص مجالاً للخيال الممتد والصور العميقة، إلا ما جاء منه عفو الخاطر في جزئيات بسيطة كقوله: «يفرّج الظلم بالنور». على أنه يشبه الجهل بالظلم والعلم بالنور.

## تعليق على موضوعات الخطابة:

١ ـ إن الخطيب الجاهلي بدائي في فطرته وموهبته، يكشف العالم ـ من حوله في خطبه، إن صحت روايتها أو نسبتها إليه ـ من خلال المقابلة والاستنتاج، وهو ـ في الوقت ذاته ـ يدرك معاني الأشياء، في إطارها الحسي أو في أشكالها الظاهرة، ومن ثم ينقلها بطريقته ـ الخاصة ـ المؤثرة إلى السامع، فتترك بصماتها ـ الخاصة على عقله، وفي قلبه.

٢ ـ ومما لاشكّ فيه، أن الخطيب الناجح، هو الذي يقدم لفكره العام الذي يؤمن به، ويؤكد على فكرته المطروحة، من خلال عرضها، وتوضيحها دون لبس وغموض، بمعنى آخر أن يميز في صدر كلامه فحوى حاجته كأن يفرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة الصلح مثلا حتّى يكون لكل فنٍّ من ذلك صدرٌ يدلُّ على

عجزه[١]. ومن مهارة الخطيب وبلاغته أن يستخدم السجع في بعض كلامه لا في جميعه؛ لأن السجع في النثر كالقافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه[٢]، فهي ضرب من ضروب البلاغة.

٣ ـ ولم يكن الخطيب دائم الإعتماد على الارتجال في خطبه، فإنه قد تُلْزِمُه بعضُ الموضوعات والمواقف إلى الإعداد والتقييد، والتنقيح، ليخرج مجوّداً محكّكاً منقّحاً، وخاصة في الموضوعات التي تتعلق في معاظم التدابير، ومهمات الأمور[٣].

٤ ـ وموضوع خطب الإرشاد والتوجيه، وإصلاح ذات البين، يعتمد على النبرة الهادئة؛ القريبة من النفس؛ لأنه يميل إلى طابع الإرشاد، والدعوة إلى الخير، والحضّ على البرّ، والثورة على الضلال والفسق والجهالة وتوجيه المجتمع إلى الأفضل والأكمل. من هنا كان لا بدّ من إيراد الحجج والبراهين والأدلة والبينات، ليكون لها التأثير والإقناع من خلال الترغيب والترهيب.

٥ ـ أما خطب المنافرات والمفاخرات، فإنها تمثل طبيعة الإنسان العربي الجاهلي، فالمنافرة هي المحاكمة في النسب، وبالتالي فهي نموذج سيء يظهر العيوب، ويزرع الأحقاد والضغائن، وربما يؤدي إلى عواقب وخيمة، لا تُحْمَد عقباها، وهي في طبيعتها تعرية للأطراف المتنافرة كما هو الحال في منافرة عَلْقَمة بن عُلاَثَة وعامر بن الطّفيل[٤]. وهي تختلف اختلافاً كلياً عن المفاخرة؛ التي تظهر الجوانب الإيجابية، «فإذا كان للمفاخرات وجه إيجابي في كثير من المواقف، فليس للمنافرات إلّا وجه سلبي. فقد يدفع الفخر للتنافس في الخير، بينما تدفع المنافرة إلى المواجهة العدائية بين المتنافرين»[٥]. وهذا جلي واضح حين نجد أن المتنافرين في بلاط كسرى، وقد جمعتهم الجوانب الإيجابية في المفاخرة.

٦ ـ وطبيعة خطب المناسبات الاجتماعية، تبرز في إظهار المفاخر والأحساب

(١) البيان والتبيين ١/١١٦.

(٢) نقد النثر، ص ١٠٧.

(٣) البيان والتبيين ٢/١٤.

(٤) انظرها في: الأغاني ١٦/٢١٥ وما بعدها. وصبح الأعشى ١/٣٨٢ ـ ٣٨٦.

(٥) صبح الأعشى ١/٤٦٥. (النص لعبد القادر زكار).

والأنساب، وهي وجه إيجابي للإنسان العربي حينذاك. أما خطب التعزية، فإنها تقوم على مواساة الفقيد في آلامه وأحزانه، وتدلّ على إيمانهم بعدم البقاء، من خلال سياقهم الأدلة، وعرضهم البراهين.

٧ ـ أما سجع الكهان، فإنّ له أسلوبه الخاص الذي يتميز به، من حيث البدء بالقسم بالسماء والأرض والهواء والرياح والنجوم والكواكب وما شابه ذلك، ثم ذكر الرؤيا، وتفسيره من خلال اتصالهم بالجن ـ على حدّ قولهم ـ والإدعاء بمعرفة علم الغيب. وقد وقف المسعودي صاحب كتاب «مروج الذهب»، عند الكهانة وما قيل في ذلك، وما اتصل بهذا الشأن مما يراه الناس، وقال: ذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن، وكانوا يدّعون العلوم بالغيوب، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صَفَت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة، وعلى ما تريد أن يكون منها. وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة ـ وهي الجن ـ تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صَفَت حتّى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة[١].

وذهب قوم من النصارى إلى أن السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور، ويخبر عن الأشياء قبل كونها؛ لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب، ولو كانت تلك النفس في غيره من الأشخاص الناطقين لكانوا يعلمون بالغيب. ولا كانت أمة خلت إلا وقد كان فيها كهانة[٢].

وطائفة ذهبت إلى أن التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع، وقوة النفس ولطافة الحس. وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانت تسترق السمع، وتلقيه على ألسنة الكهان، فيؤدون إلى الناس الأخبار، بحسب ما يرد إليهم[٣]. وقد أخبر الله عزّ وجلّ بذلك في كتابه: ﴿**وأَنَّا لَمَسْنَا السماءَ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً. وأنّا كنّا نَقْعُدُ منها مَقَاعِدَ للسمعِ فَمَنْ يستمعِ الآنَ يجدْ له شِهَاباً رَصَداً**﴾[٤]. وقوله

(١) مروج الذهب ٢/١٧٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) (المصدر السابق ٢/١٧٣.
(٤) الآيتان ٨ و ٩ سورة الجن.

تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكلِّ نبي عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجنِ يوحي بعضُهم إلى بعض زُخرفَ القولِ غُرورا. . . .﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿. . . . وإن الشياطينَ لَيُوحونَ إلى أَوليائهم لِيُجادِلوكم. . .﴾[2]. والشياطين والجن لا تعلم الغيب، وإنما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة، يقول الله تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موته إلا دابَّة الأرضِ تأكلُ مِنْسَأَتَهُ، فلمّا خَرَّتبيَّنتِ الجنُّ أَنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[3].

وذهبت طائفة إلى أن وجه سبب الكهانة من الوحي الفلكي. وذهب كثير إلى أن علّة ذلك علل نفسانية، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة، وأبانت للإنسان كل سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة، فاقتنصتها وأبرزتها على الكمال[4]، ثم يتابع المسعودي قوله: والكهانة أصلها نفسيّ؛ لأنها لطيفة باقية ومقارنة لإعجازات باهرة،وهي تكون في العرب على الأكثر، وفي غيرهم على وجه الندرة؛ لأنه شيء يتولد من صفاء المزاج الطبيعي، وقوة مادة نور النفس، وإذا أنت اعتبرت أوطانها، رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة، وإدمان التفرد، وشدة الوحشة من الناس، وقلة الأنس بهم، وذلك أن النفس إذا هي تفردت فكّرت، وإذا هي فكرت تعدّت، وإذا تعدّت هطل عليها سُحُبُ العلم النفسي، فنظرت بالعين النورية، ولحظت بالنور الثاقب، ومضت على الشريعة المستوية، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به وعليه، وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها[5]. قد نتفق مع المسعودي في قوله، ولكننا نختلف معه، من حيث أن النفس الإنسانية تشرف على دراية الغائبات قبل ورودها، ونقول: إذا تم وحصل هذا، فإنه من محض الصدفة، ومن سبيل التوقع؛ لأن الغيبيات، هي غيبيات لا يعلم بها البشر.

---

(١) الآية ١١٢ سورة الأنعام. أي: يوسوس بعضهم إلى بعض زخرف القول مُمَوَّهة من الباطل ليغروهم.

(٢) الآية ١٢١ سورة الأنعام.

(٣) الآية ١٤ سورة سبأ. وصاحب العصا سيدنا سليمان.

(٤) مروج الذهب ٢/١٧٠ ـ ١٧٤.

(٥) مروج الذهب ٢/١٧٥. ويقف وقفة طويلة مع الرؤيا وأسبابها. انظر ذلك: ٢/١٧٥ ـ ١٧٩.

## خصائص الخطابة في العصر الجاهلي:

يمكننا الآن تدوين بعض خصائص الخطابة في العصر الجاهلي، بعد أن درسنا بعض النماذج الخطابية في موضوعات شتى:

١ ـ تمتاز هذه الخطب، بالنبرة الخطابية الهادئة التي تعتمد على التأمل، وسياق الأدلة والبراهين للتأثير على السامع، من خلال إيمان الخطيب بنظراته الصائبة، والآراء الحكيمة؛ التي تمثل في نظره الفضيلة ونبذ الرذيلة، كما هي الحال في خطب إصلاح ذات البين، والإرشاد والتوجيه. في حين نجد النبرة الخطابية الصاخبة في خطب الحض على القتال والأخذ بالثأر.

٢ ـ قدرة الخطيب على ارتجال خطبه، وقوة فطرته وموهبته، التي تقوم على طبيعته البدائية. وقد نجد الخطيب يعدّ ويستعدّ، يضيف ويحذف ويبدّل، حتّى يطمئن إلى خطبته؛ التي أصبحت محككة منقّحة.. وتنم هذه الخطب على عمق بلاغة الخطيب وفصاحته وبيانه وحكمته.

٣ ـ تمتاز هذه الخطب بقصر الجمل أو الفواصل وتوازنها في الطول والقصر، وهي أشبه ما تكون بشطر من الشعر.

٤ ـ تخيّر الألفاظ حسب طبيعة الموضوع ـ وحياكتها بأسلوب بسيط، سهل التناول، مع الصدق، وعدم المبالغة، أو الجنوح إلى عالم الخيال، مع عدم فلسفة المعاني وتعقيدها.

٥ ـ قد نلاحظ إنقطاع الصلة بين الجملة والأخرى، مع غرابة اللفظ؛ حيث يبدو لنا غريباً، ولكنه كان ـ حينذاك ـ سهلاً قريب التناول. وإن لم يكن كذلك، فإن للخطيب ـ كما هو الحال بالنسبة للشاعر ـ عذره، بأن يترفع عن اللغة اليومية الدارجة إلى لغة فنيّة سامية، تُحدث في النفس متعة.

٦ ـ المزاوجة بين الخبر والإنشاء، ولا سيما حين يسوق بعض الحقائق التي استمدّها من خلال تجاربه في الحياة، أو حين نجده يتساءل عن المصير..

٧ ـ استخدم بعض الخطباء السجع دون تكلّف وتعمّد، وإيراده في سياق سهل

ممتع، نجد له ضرورة، فالسجع قافية النثر. إلاّ أننا نجد السجع المملول الممجوج؛ الذي يثقل النص، يتعمّده الكاهن، ويجهد نفسَه في البحث عنه، حتّى لنجد أن البحث عنه، والتكلف فيه، والإكثار منه، يفقد الخطبة التماسك، وينفر النفس، ويبعد اللفظة عن أداء معناها، ويحمّل المعنى أكثر مما يحتاج إليه من الألفاظ[1]. وما أجمل القول حين يكون اللفظ بقدر المعنى، والمعنى بقدر اللفظ، وهي ميزة بلاغية تميزت بها الخطابة، والبلاغة هي الإيجاز. ويبقى هذا الضرب من الأضرب الشائعة المتداولة حينذاك، وربما لو تجاوزها الكاهن، فإنه يفقد المميزات الخاصة بالكهنة. وقد انقرض هذا النوع بظهور الإسلام.

٨ ـ الإكثار من القسم بالأرض والسماء، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والتراب، والسحاب والماء، والإبل والأنعام، والهواء وما شابه. . . وغالباً ما يأتي بها الكاهن للسجع، وللتأكيد على الحقائق؛ التي يأتي بها ـ من وجهة نظره ـ وبعدها عن الخيال[2].

٩ ـ لاحظنا أن بعض موضوعات الخطابة لها أوجه إيجابية كخطب الإرشاد، والتوجيه، وإصلاح ذات البين، والدعوة إلى الخير، والمفاخرة، والمناسبات الاجتماعية، في حين نجد الأوجه السلبية متمثلة في إثارة الأحقاد والضغائن، والتعرية، والطّعن في الأحساب والأنساب في خطب المنافرات[3]، والحضّ على القتال والأخذ بالثأر.

١٠ ـ توظيف الشعر؛ الذي صدر عن موهبة فذّة، نمت على إحساس عميق بتأثير النظم ـ أكثر من النثر ـ في مقام الموضوع ـ ولا نجد نصّاً نثرياً في ثنايا الشعر ـ

---

(١) انظر سجع الكاهن سواد بن قارب في: (الأمالي ٢/٢٨٩ ـ ٢٩٠). وسجع سطيح في: (السيرة النبوية ١/١٦ ـ ١٧). وسجع شقّ في: (السيرة النبوية ١/١٧ ـ ١٨. والعقد الفريد ١/٢٩٣ ـ ٢٩٥. وتاريخ اليعقوبي ٢/١٤٢). وانظر سجع بعض الكهان في: (الأمالي ١/١٣٤ ـ ١٣٥ ـ و١٤٢ ـ ١٤٣. وجمع الأمثال ١/٤٥ ـ ٤٦. والبيان والتبيين ١/٢٩٠. ومروج الذهب ٢/١٩٢. والسيرة النبوية ١/١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) انظر مثلاً: تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٦. وإعجاز القرآن، ص ١٦٧. ومجمع الأمثال ١/١١١. والأمالي ١/٩٣. و٢/٢٩٠. والعقد الفريد ١/٢٩٣ ـ ٢٩٥.

ويبدو أن الخطيب يجد في نفسه العجز التام عن إيصال فكرته بالمادة النثرية ؛ لذا كان لا بدّ من اللجوء إلى الصياغة الشعرية ؛ التي تكون أكثر تعبيراً ؛ لأنها هي اللغة الفنية الوحيدة التي يستطيع أن ينطق بها الخطيب حينذاك، كما هو الحال عند قسّ بن ساعدة وغيره. ولا نشك في أن توظيف الشعر في النص النثري، يعطي السامع نوعاً من الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، وهذا يساعد في جذب انتباه السامع. ويقاس هذا على ترويج خبر ما ـ في أيامنا هذه ـ من خلال عرض فيلم سينمائي ـ مثلاً ـ أو قصة. والأهم من هذا، هو المقدرة الفنية، والمهارة البلاغية، وقوة البراعة ؛ التي تظهر من خلال توظيف هذا الشعر في خدمة المضمون نفسه.

# الفصل الثالث

# الوصايا

# الوصايا

الوصايا ضرب من ضروب الخطب، والوصيّة: ما أوصيت به. والوصيُّ: الذي يُوصِي والذي يُوصىٰ إليه، وهو من الأضداد. وقد سميت الوصيّة وصيّة؛ لاتصالها بأمر الميت[1]. ويتضح لنا من خلال هذا، أن الوصيّة: هي ما يوصي بها شخص إلى شخص آخر، وغالباً ما يكون قريباً أو صديقاً، وذلك حين السفر أو الزواج أو الموت أو ما شابه ذلك. ولا تقتصر الوصية على أشخاص دون غيرهم، فالوصيّة جائزة لكل إنسان، ولكننا نقصد بالوصية ـ هنا ـ الوصيّة التي تكون قد نبعت من الموصي من خلال تجاربه النظرية والعملية، بأسلوب فني متميز، يميّزه عن غيره من الوصايا العادية، الصادرة عن الإنسان العادي؛ والذي لم يقصد بوصيته الجوانب الفنية أو البلاغية ـ كما هو معروف في تاريخ أدبنا العربي عن بعض الخطباء المشهورين الذين خلّدوا وصاياهم بأسلوبهم الأدبي المميز ـ وغالباً ما تركز الوصية على الإرشاد والتوجيه، والتمسك بالأخلاق الحميدة؛ التي تقود الموصى إليه إلى السعادة والحياة الأفضل والأكمل.

تتفق الخطبة والوصية من حيث توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح، وردعه عن الضلال والفساد، إلا أنهما تختلفان من حيث المتلقىٰ، فالخطبة، تكون على ملأ من الناس غالباً، حتى تعمّ الفائدة، في حين نجد الوصيّة ـ غالباً ـ توجه إلى إنسان معين في زمن معين، ولا حاجة لوجود جمهور بجانب الموصى إليه، في الوقت ذاته، لا يمنع من وجود بعض الناس، إذا دعت الضرورة، وربما تكون هذه الوصيّة صالحة

---

(١) (اللسان ، وصي).

لشخص آخر في زمن آخر، إذا توافقت المناسبة، أي: (إنَّ ذكرَ الشيء بالشيء يُذكر)، بمعنى إذا اتفقت الحالتان معاً في طبيعة الموضوع، بغض النظر عن الزمان والمكان، فلا مانع من الاستشهاد بالقول السابق إذا دعت الحاجة إليه في الحاضر.
ونجد أن الوصيّة تتفق مع الكهانة ـ إلى حد ما ـ من حيث إنهما بخصوص شعب معين في زمن معين. وبالطبع تختلفان من حيث الموضوع والأسلوب، إلا أنهما ضربان من ضروب الخطابة. ولكن آثرنا إفراد الوصايا وفصلها عن الخطابة؛ لأهميتها، وشفافيتها، ودقة موضوعاتها، ونبلها، وشرفها، وجمال حِكمها، وسهولة ألفاظها، وعدم تكلفها، وقوة عاطفتها وصدقها، وواقعيتها وبعدها عن الخيال، وهذا ما سنجده من خلال دراستنا لبعض الوصايا.

# ١ ـ وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد[١]

لمّا احْتُضِرَ ذُو الإِصْبع[٢] العَدوانيّ، دَعَا آبْنَهُ أَسيداً[٣]، فقالَ لَهُ:

يا بُنَيّ، إنْ أَباكَ قدْ فَنِيَ وَهْوَ حَيٌّ، وَعَاشَ حَتَّى سَئِمَ العَيْشَ، وإنّي مُوصِيكَ بِمَا إنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ فِي قَوْمِكَ مَا بَلَغْتُهُ، فآحْفَظْ عَنِّي: أَلِنْ جَانِبَكَ لِقَوْمِكَ يُحِبُّوكَ، وَتَوَاضَعْ لَهُمْ يَرْفَعُوكَ، وآبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ يُطِيعُوكَ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ[٤] عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ يُسَوِّدُوكَ، وأَكْرِمْ صِغَارَهُمْ كَمَا تُكْرِمُ كِبَارَهُمْ، يُكْرِمْكَ كِبَارُهُم، وَيَكْبَرْ عَلَى مَوَدَّتِكَ صِغَارُهُم، وآسمَحْ بِمَالِكَ، وآحْمِ حَرِيمَكَ، وأَعْزِزْ جَارَكَ، وأَعِنْ مَنِ آسْتَعَانَ بِكَ، وَأَكْرِمْ ضَيْفَكَ، وَأَسْرِعْ النَّهْضَةَ في الصَّرِيخِ[٥]، فإنَّ لكَ أَجَلاً لَا يَعْدُوكَ، وَصُنْ وَجْهَكَ عَنْ مَسْأَلَةِ[٦] أَحَدٍ شَيْئاً. فبِذلِكَ يَتِمُّ سُؤْدُدُكَ[٧]. ثمّ أَنْشَأَ يقول: (من مجزوء الكامل المرفّل).

---

(١) هو حُرْثان بن الحارث بن عدوان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وله غارات كثيرة في العرب ووقائع مشهورة. سمي ذا الإصبع لأن حية نهشته بإصبعه فتشنجت. وهو من المعمرين، عُمّر عمراً طويلاً حتى خرف (أي: فسد عقله من الكبر وصار خرفاً) وكان يفرّق ماله، فعذله أصهاره ولاموه، وأخذوا على يده (أي: حجروا عليه ومنعوه مما يريد أن يفعل). يقال إنه توفي نحو سنة ٢٢ ق. هـ/٦٠٠ م. انظر: الأغاني ٣/٨٥ ـ ١٠٤. والشعر والشعراء، ص ٤٤٥. والاشتقاق، ص ٢٦٨.

(٢) الإصبع مثلثة الهمزة والباء.

(٣) أَسِيد وأُسَيْد: إسهان (اللسان، أسد) وأُسَيْد: تصغير أسد، وقد وردت (أسيد) في المصادر بفتح الهمزة وكسر السين.

(٤) تستأثر بشيء: تستبدّ به، وتخصّ به نفسك.

(٥) الصريخ: نداء المستغيث.

(٦) المسألة مفرد المسائل: الحاجة والمطلب.

(٧) السؤدد: السيادة وكرم المنصب والقدر الرفيع.

أَأَسِيدُ إنْ مَالاً مَلَكْـ ـتَ فَسِرْ بِهِ سَيْراً جَمِيلا
آخِ الكِرَامَ إنِ آسْتَطَعْـ ـتَ إلى إخَائِهِمُ سَبِيلا
وآشْرَبْ بِكَأْسِهِمُ وَإنْ شَرِبُوا بِهِ السُّمَّ الثَّمِيلاَ[1]
أَهِنِ اللِّئَامَ وَلاَ تَكُنْ لإخَائِهِمْ جَمَلاً ذَلُولاَ
إنَّ الكِرَامَ إذَا تُوَا خِيهِمْ وَجَدْتَ لَهُمْ فُضُولاَ[2]

## الفكرة العامة :

هي وصية تدور حول دعوة إبنه أسيد إلى التمسك بالنصائح المذكورة في الوصية لبلوغ المجد والسيادة في قومه؛ وحثه على التمسك بالأخلاق والقيم الحميدة.

## المضمون :

لقد عاش أبوك يا أسيد تجارب الحياة حتّى أفنته، وهو ما يزال حياً تتردد روحه بين جنبيه وقد امتدّ به العمر حتّى سئم الحياة، وَخَلُصَ منها بتجارب وخبراتٍ، ومن أجل ذلك دعا ولدَه إلى وصايا متعددة لو قام بتنفيذها بلغَ من المجد والسيادة ما بلغه أبوه في قومه، وتتمثل هذه الوصايا بما يلي :

١ ـ طلب إليه التسامح مع قومه، واللينَ في معاملته لهم بحيث يكسَبُ محبتَهم واحترامهم.

٢ ـ التواضع في تعامله معهم حتّى يرتفع مقامَه بينهم فيجلُّونه ويقدرونه.

٣ ـ أن يكون معهم سَمْحَ الوجه، مستبشر القَسَمَات، فيكسب طاعتهم.

٤ ـ أن يشاركهم في كلِّ شيءٍ فلا يستأثر لنفسه بشيء دونهم فيكون سيداً بحقّ.

٥ ـ أن يكرمَ صغارَهم كما يكرم كبارَهم فإذا بهولاء الصغار ينشؤونعلى محبته، ومودته.

(١) الثمال والمثمل: السمُّ المنقع. أي: الذي أُنقع أياماً حتى اختمر.

(٢) ورد النص في الأغاني ٣/٩٤ ـ ٩٥. والقصيدة طويلة، اكتفينا بهذه الأبيات.

ويتابع ذو الإصبع وصاياه لابنه قائلاً:

١ ـ إبذل مالك في قومك بحكمة وحسن تصرف دون أن تنتظر ما يقابله من ردّ الجميل.

٢ ـ حافظ على عِرضك وشرفك، فإن من لا عِرض له لا شرفَ له.

٣ ـ إحم حِماك، وارفع من قدر جيرانك فإنّ من عَزّ جارَه عَزَّ نفسه وسادَ في عشيرته.

٤ ـ ولبِّ المستجيرَ بك فإنها من النخوة والشهامة.

٥ ـ وافتح قلبك، وابسُط مالك لضيفانك، ولا تبخل عليهم بشيء من جاهك ومالك.

٦ ـ وأجب الصريخ فإن إجابته من المروءة والنبل.

٧ ـ وإياك والمسألة مهما صَغُرت، فإن بذل ماءِ الوجه يُورث الفاقةَ ويفضي إلى الندامة.

ثم يحثّ ابنه على التمسك بهذه الوصايا، والأخذ بها، ووضعها نصب عينيه دائماً، وتطبيقها، قائلاً: فإن فعلت ذلك كلّه يا بني، فلن يتقدم بك الأجل ساعة، ولن يتأخر؛ لأنه محتوم ومحدد. وإنك في إقامة هذه المُثل، وتحقيق تلك القِيم، والتمسك بأخلاق الكرام، فإنها لا تلحق بك عجزاً وفقراً، ولا تزيدك إلاّ فخراً وشكراً.

فما كانت وصية ذي الإصبع إلا ليكتمِل مجدُ ولده، ويخلُدَ سؤدُده، ويخلُفَ بحقٍّ آباءه وذويه.

ثم يلخص هذه التجارب والخبراتِ، وينظمها شعراً، فيقول:

١ ـ يا بني: إذا ملكت المال، فأحسن تصرُّفَك فيه وإنفاقه في وجوه البرِّ والخير.

٢ ـ والزم الكرام تكن منهم ولا تبتعد عنهم قيد أنملةٍ، بل جالسهم وآكلهم وشاربهم وأصدر عن رأيهم فإنهم هم الرجال.

٣ ـ وباعد بينك وبينَ اللئام ولا تكن لهم مطيّةً يقضونَ حوائجهم عليها ثم

يرفدونها، ويتخلوْنَ عنها كعادتهم لأنك: كما قال الشاعر: (من الطويل)

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكتَه وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

٤ ـ ومرةً أخرى يعود إلى توصيته بمصاحبةِ الكرام، ويُلحُّ ويؤكد فضلَهم وطيبَ معشرهم، والأصالة التي نبتوا منها؛ وعاشوا من أجلها، وقضوْا في سبيلها، فكان لهم المجد والخلود.

## الأسلوب:

كان أسلوب ذي الإصبع العدواني في وصيته هذه موجزاً مركزاً لا مجال فيه للحشو والإطناب؛ لأنه يعتمد الحكمة وفصل الخطاب، وبما أنه أسلوب واقعي لا مجال فيه للخيال، كأنه أشبه بالتوقيعات المتلاحقةِ المتتابعةِ، استمع معي إلى قوله: واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارَك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك... إلى ما هنالك من هذه الجمل الإنشائية التي تعتمد الأمر أو النهي أو الاستفهام لتفيد التقرير وتَمْحَضَ النصح وتتوخّى الإرشاد.

أما البلاغة في هذا النص فقد كانت عفوية ليس فيها تصنّع ولا تكلّف مما أضفى على النصّ بهجةً وجمالاً ففي النداء: يا بنيَّ! أسلوب إنشائي خرج إلى التحبب والتدلل، وفي قوله: (إن أباك قد فني وهو حيّ)[1] أسلوب خبري خرج إلى معنى التأكيد والتحقيق وجاءت فيه (إنَّ) و (قد) و الوصف بالجملة الحالية (وهو حي) وفيه طباق بين: فني وحي.

ونجد في قوله: (حفظته) كناية عن الصيانة والحرص والتنفيذ. ويمكن أن نجريها على سبيل الاستعارة المكنية على أن يكون الحفظ بمعنى الادخار والحفظ المادي لاستخدامه وقت الحاجة.

ونلاحظ في هذا النص أيضاً كنايةً في قوله: (ألن جانبك) عن انبساط السريرة وطلاقة الوجه والبشر.

---

(١) إن: حرف توكيد وناسخ. وأباك: اسم إن. وقد للتحقيق. وجملة وفني: خبر إن. والواو: حالية. وهو: مبتدأ. وحي: خبر. والجملة في محل نصب حال.

وفي قوله: (يرفعوك) استعارة مكنية شبه المعنوي وهو الاحترام ورفعة المقام بالمادي الذي ترفعه إلى مكان عال.

وفي قوله: (وابسط لهم وجهك) كناية عن سماحة اللقاء وطيب المقابلة.

وفي قوله: (أسرع النهضة) كناية عن النجدة والإغاثة. وفي قوله: (صن وجهك) كناية عن العزّة، والعفة.

وفي قوله: (فإنّ لك أجلًا لا يعدوك) استعارة مكنية شبه الأجل بكائن حي يركض. وفي قوله ( يتم سؤددك) استعارة مكنية شبه السؤدد الذي هو معنوي بالشيء المادي يتم وينقص.

وكذلك نجد مجازاً في قوله: (أسرع النهضة في الصريخ) فالنهضة مجاز علاقته الجزئية حيث يطلق الجزء وهو مجرد الإنهاض ويريد الكل وهو تمام المساعدة والإنقاذ معنوياً ومادياً. وهناك مجاز آخر في قوله: (وصن وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً) أطلق الوجه وهو الجزء المادي المحسوس، وأراد به الأعمال وهو الكل المعنوي.

ونلاحظ بعض المحسنات البديعية تتجلى في النّص، وذلك في قوله: (فني وهو حي) طباق، و(صغارهم وكبارهم) طباق، و(أكرم صغارهم يكرمْك كبارُهم) مقابلة.

ونجد حسن التقسيم في قوله: (ألن جانبك) إلى قوله: (يسوّدوك) ومن قوله: (واسمح بمالك) إلى قوله: (في الصريخ...).

كما نجد لفّاً في قوله: (وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم) ونشراً مرتباً في قوله: (يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم).

ويبدو السجعُ واضحاً في نهاية الجمل: (يحبوك) و(يرفعوك) و(يطيعوك) و(يسودوك) وسجع آخر في قوله: (مودتك) و(مالك) و(حريمك) و(جارك) و(ضيفك).

ونلاحظ الطلب في أكثر الجمل من أمر ونهي وجواب الطلب مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، كقوله: (يحبوك) و(يرفعوك) و(يطيعوك)

و (يسودوك) إذ الأصـل يحبونك. . . إلخ[1].

أما الأبيات الشعرية فقد بدأها بالتصغير والنداء بقوله: (أأسيد) للتحبب وصدق الحنان، وقد استخدم همزة النداء بدلاً من (ياء) لأنها خاصة بنداء القريب.

وقد قدّم المفعول به (مالاً) على الفعل والفاعل (ملكت) للتأكيد والاهتمام به. و(إنْ) في البيت شرطية جازمة والفعل الماضي بعدها في محل جزم (وليس مجزوماً كما في المضارع) وكذلك جواب الشرط الواقع بعد الفاء التي هي رابطة للجواب في محل جزم. (فسر به سيـراً جميلاً). وسر: فعل أمر. وسيراً: مفعول مطلق. وجميلاً: صفة. والجملة هذه كناية عن حسن التصرف في الإنفاق.

وفي البيت الثاني: أسلوب إنشائي نوعه أمـر، خرج إلى النصـح والإرشاد. و (آخ): فعل أمر منبي على حذف حرف العلة وهو الياء. و (إن) شرطية غير جازمة كسابقتها لأن فعل الشرط فعل ماضٍ.

والبيت الثالث كناية عن المشاركة وحسن المؤاخاة، وفي قوله: (وإنْ شربوا به السمَّ الثميلا) مبالغةٌ وتناهٍ في الإلحاح على المشاركة، أي: أن السمّ حقيقة، لا يدعوه والده في حالة شربهم أن يشرب معهم.

وفي البيت الرابع تشبيه مؤكد بحذف الأداة، ومفصل بذكر وجـه الشبه وهـو ذلول، بجامع الإنقياد في كل منهما والمشبـه: اسـم كـان وهو ولده، والمشبه بـه (الجمل). وفيه أسلوب إنشائي نوعه أمر، ونهي، خرجا إلى معنى النصح والإرشاد.

أما البيت الخامس ففيه تأكيد بـ (إنّ) إذ الأصل أن يقول: إذا آخيت الكرام وجدت لهم فضلاً. وهناك تأكيد ثانٍ بتكرار الكرام وذلك بالضمير المتصل بـ (تواخي) وهو هم[2].

---

(١) ألن جانبك يحبوك: إذ الأصل (إن ألنت جانبك أحبوك) ولما حذف إن الشرطية فقد بقي الشرط وجوابه، فصار الطلب وجواب الطلب. فجواب الطلب مجزوم دائماً سواء كان الطلب أمراً أو نهياً كقوله: (لا تستأثر يسودوك) فألن: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة أصلها (يلين) وجانبك: مفعول به، ومضاف إليه. ويحبوك: فعل مضارع من الأفعال الخمسة حذفت النون لأنه مجزوم بجواب الطلب. والواو: فاعل. والكاف: مفعول به. وكذلك الأمر بالنهي.

(٢) الكرام: اسم إن. وإذا: شرطية. وتواخيهم: فعل الشرط. ووجدت: جـواب الشرط. وجملة (إذا. . . .) خبر إن.

**العاطفة:**

هي عاطفة أبويّةٌ ذاتية شديدةُ الصدقِ، عميقةُ الأثر، غزيرة المعـاني، بعيدةُ المدلول. استطاع ذو الإصبع العَدواني أن ينقل إلينا تأثرَه وانفعالَه في إسداء النصح والإرشاد لولدِه الأكبر، وفلْذةِ كبده في هذه الحياة، يورّثه الفضائلَ والمُثلَ التي هي من شيمة العرب، والتي هي أفضل من المال والعيال، يلقّنه فيها خلاصة تجاربه وتجارب الناس؛ الذين عاصروه وعـاصرهم، فـأخذوا منـه، وأخذ منهم، حتى أصبـح عمرُه مجموعةً من الخبرات والتجارب والحِكم والقيم والمُثل العليا والأخلاق الحميدة. لعلك تجدُ ذلك في مقدمة وصيته حينما يقول: (يا بني! إن أباك قد فني وهي حي) أي: أنه رغم وجود روحه في جسده، وتردّدِ نَفَسِه في صدره فقد أفنتـه التجارب، وعلمته الأحداث، وعركته الأيام، وحنكته السنون.

ونخلص إلى القول: إنّ صدق العـاطفة يتجلى ـ كمـا طبعه ذو الإصبـع في أذهاننا ـ بصبّ خلاصة حياته كاملة: خُلُقاً وأدباً، عملاً وعلماً، حرباً وَسلما؛ لابنه الأكبر الذي سيخلفه في رياسة العشيرة، وسيادة القبيلة؛ للمحافظة على ميراث القيادة والزعامة والمشيخة ورابطة العِقد في السؤدد.

**الخيال:**

لم يجنح الخطيب كثيراً إلى الخيال في هذا النص الواقعي؛ الذي خرج من القلب؛ ليقـع في قلوب الآخرين وعقـولهم بأسلوب مـوجـز محكم رصين، كـأنـه التوقيعات، وذلك على الرغم من وجود الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية؛ التي تلعب دوراً بارزاً في الخيال، إلاّ أن هذه الأساليب وتلك المحسنات لم يتعمدهـا الخطيب، ولم يتكلف بها، ولكنها جاءت تعبيراً عن حسّه المرهف، وفنه المطبوع.

**الموسيقا:**

نلاحظ أن موسيقا الأبيات من مجزوء الكامل المرفل، انتهت بألف الإطلاق؛ التي يجد فيها الشاعر استراحة لما تجمع في صدره من حنين وحبٍّ يسديهما في وصيته الخالدة إلى ولده الحبيب.

# ٢ ـ وصية عمرو بن كلثوم(١) لبنيه(٢)

لمّا حضرت عَمرو بن كُلْثومٍ الوَفاةُ، وَقَدَ أَتَتْ عَلَيْهِ خمسونَ وَمائةُ سنة، جمع بنيه فقال:

---

(١) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب، من بني تغلب، أبو الأسود، شاعر جاهلي مشهور من الطبقة السادسة عند ابن سلام في طبقاته، تجول في الجزيرة العربية، وفي الشام والعراق، وكان من الفتاك الشجعان، ساد قومه تغلب وهو فتى، وعمر طويلاً، وكان قد عاش مئة وخمسين سنة، مات نحو سنة ٤٠ ق. هـ.

وهو الذي قتل عمرو بن هند ملك الحيرة، وكان سبب ذلك أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم. عمرو بن كلثوم. قال: ولم ذلك؟ قالوا: لأنّ أباها مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب بن وائل أعزُّ العرب وبعلَها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمَّه أمّه، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت أمه ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب. دخل الشاعر على عمرو بن هند في القبة التي ضربها بين الحيرة والفرات، ودخلت ليلى على هند في القبة التي ضربت بجانب القبة الأخرى، وكان ملك الحيرة طلب من أمه أن تنحي الخدم، وتستخدم ليلى، وبعد أن أكلوا، قالت هند: يا ليلى! ناوليني ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت ذلك، وألحت، فصاحت ليلى؛ واذلاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق، ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو به هند حتى قتله، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا جميع ما في الرواق وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. وقد نظم عمرو بن كلثوم معلقته المشهورة: (من الوافر)

ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمورَ الأندرينا

مفتخراً. وقد فاضت المصادر والمراجع بذكر أخباره وأشعاره. انظر على سبيل المثال: الشعر والشعراء، ص ١١٧ ـ ١٢٠. والأغاني ١١/٤٦ ـ ٥٤. وطبقات فحول الشعراء ١/١٥١. وجمهرة أشعار العرب، ص ٨٦ ـ ٨٨. والمقدمة الرائعة لديوان عمرو بن كلثوم للدكتور علي أبو زيد، ص ٩ ـ ٣٤. وانظر المصادر والمراجع التي أوردها في الديوان.

(٢) لعمرو بن كلثوم ثلاثة بنين وبنت، وهم: الأسود، وعبد الله، وعباد. وابنته نَوار. وكان أبناؤه شعراء، =

يَا بَنِيّ، قدْ بَلَغْتُ مِنَ العُمُرِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبائي، وَلاَ بُدّ أَنْ يَنزِلَ بي مَا نَزَل بِهِمْ مِنَ المَوْتِ، وإنِي واللهِ مَا عَيَّرْتُ أَحداً بِشَيْءٍ إلاّ عُيِّرْتُ بِمِثْلِهِ، إنْ كَانَ حَقّاً فَحَقّاً، وإنْ كَانَ بَاطِلاً فباطِلاً، وَمَنْ سَبَّ سُبَّ، فَكُفُّوا عَنِ الشَّتْمِ، فإِنَّهُ أَسْلَمُ لكُمْ، وَأَحْسِنُوا جِوَارَكُم يَحسُنْ ثَنَاؤُكُم، وآمْنَعُوا مِنْ ضَيْمِ الغَرِيبِ، فَرُبَّ رَجُلٍ خَيْرٌ مِنَ أَلْفٍ، وَرَدٍّ خَيْرٌ مِنْ خُلْفٍ. وَإذَا حُدِّثْتُم فَعُوا، وإذَا حَدَّثْتُم فأَوْجِزُوا، فإنّ مَعَ الإِكْثَارِ تَكُونُ الأَهْذَارُ[1]. وأَشْجَعُ القَوْمِ العَطُوفُ بَعْدَ الكَرِّ، كَمَا أَنَّ أَكْرَمَ المَنَايَا القَتْلُ. وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لا رَوِيَّةَ لَهُ عِنْدَ الغَضَبِ، وَلاَ مَنْ إذَا عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبْ[2]. وَمِنَ النّاسِ مَنْ لاَ يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلاَ يُخَافُ شَرُّهُ، فَبَكْؤُهُ خَيْرٌ مِنْ دَرِّه[3]، وَعُقُوقُهُ خَيْرٌ مِنْ بِرِّهِ، وَلاَ تَتَزَوّجُوا في حَيّكُم؛ فإنّهُ يُؤَدّي إلى قَبِيحِ البُغْضِ[4].

## الفكرة العامة:

تدور حول مجموعة من الوصايا يوصي بها أبناءه، وهي خلاصة تجاربه وخبراته التي اكتسبها في عمره الطويل ـ خلال مئة وخمسين عاماً ـ وبصفته رئيساً لقـومه، وفارساً من فرسانهم.

## المضمون:

حينما يمرّ اسم عمرو بن كلثوم في الخاطر، فأول ما يتبـادر إلى الذهن قتلُه عمرو بن هند ـ ملك الحيرة ـ وقصتُه الطويلة معه، ومعلقته المشهورة التي نظمها بعد هذه الحادثة.

وحين تطالعنا وصيتُـه لبنيه بهـذه الكلمات: «لمـا حضرت عمـرَو بن كلثومٍ

---

= سادةً أشرافاً في قومهم، ورثوا مجد أبيهم وأجدادهم. انـظر: الأغاني ١/٥٠. وخـزانة الأدب ٣/٥٠ و ٤/١٩٩. وديوان عمرو بن كلثوم، ص ١٢.

(١) الأهذار: جمع الهَذَر، أي الكثير الرديء، وهو سقط الكلام الذي لا يعبأ به.

(٢) لم يعتب: لم يرض.

(٣) يقال: بكأت الناقة أو الشاة بكئاً: قل لبنها. ودرّ الحليب: إذا كثر. والمعنى: منعه خير من عطائه، أي: إذا جفّ حليبه أفضل من أن يدرّ اللبن عنده.

(٤) ورد هذا النص في الأغاني ١١/٥٣ ـ ٥٤.

الوفاةُ»! يجد المرءُ غرابةً وَعَجباً في كلمة الوفاة هذه تحضُرُ الطيبين والعُتاة، والضعفاء والأشداء، وَيُحِسُّ بها هؤلاء وهؤلاء، فيجمعون أهلَهم وذويهم، ويوصونهم ويقدمون لهم خلاصةَ تجربتهم الإنسانية في هذه الحياة الفانية، يقول عمرو بن كلثوم: يا بني! قد بلغتُ من العمر خمسين ومئة عامٍ، مما لم يبلغه أحدٌ من آبائي من قبلُ ومن بعدُ، وها هوذا الموتُ نازلٌ بي، وإني لموصيكم: (لا بدَّ أنْ ينـزلَ بي ما نـزلَ بهم من الموت) أي: أن الموت الذي ساقه إلى ملك الحيرة بسيفه يأتيه اليوم ضيفاً غير مستظرَف، وزائراً ليته يُوصف بالثُّقل وحسب، ولكنه الحالكُ الذي يَحِفُّ بمن يزورُهم ويحملهم معه، من غير مشورةٍ ولا استئذان.

والمتصفح لهذه الوصية بإمعان ورويّة يجد ما يلي:

١ ـ تبتدىء هيبة هذا الرجل من الكلمات الأولى في وصيته حينما يذكر أنه ما عيّر أحداً بالحقِّ أو بالباطل (وإني والله ما عَيرتُ أحداً بشيء إلّا عُيرتُ بمثله، إن كان حقّاً فحقّاً، وإن كان باطلاً فباطلاً). يريد ألا يقع بنوه فيما كان وقع به من قبل، فلذلك يبتدرُ وصيتَه بأنه ما عَيَّر إلّا عُيِّر بالحق أو بالباطل، فيمنعُ بنيه من أن يعيّروا أحداً، ويأخذه السياق إلى السِّباب والشتم، فينهاهم عن ذلك ويبيّن لهم العلّةَ المقنعةَ أن من شَتَمَ شُتم، ومن كفَّ عن الشتم سلم. (ومن سَبَّ سُبَّ، فكفّوا عن الشتم، فإنه أسلمُ لكم). ثم يقول: (وأحسنوا جوارَكم يَحْسُنْ ثناؤكم) ويطلب إليهم أن يُحْسِنوا معاملةَ الجوار؛ لتفوح سمعتُهم مِسْكاً وعطراً في الآخرين، وليعرفوا إذ ذاك بأنهم من ذُريَّةِ رجلٍ كريم شريف.

٢ ـ ويوصيهم بعد ذلك بالرجل الغريب الذي يطأُ أرضَهم وديارَهم أن يحسنوا إليه ويكرموا وفادَتَه (وامنعوا من ضيم الغريب، فربَّ رجلٍ خيرٌ من ألفٍ، وردّ خيرٌ من خُلْف) ولعل أحد هؤلاء الغرباء يكون فيه خير كبير، يَعْدِلُ في يومٍ من الأيام ألفَ معروف مما أسدي إليه. أما قوله: (ردٌّ خير من خلف) فنقول: إن تردَّ الآخرين بجرأةٍ وصراحة وصدق حيث لا تملكُ لهم نفعاً ـ فإن هذا الردّ رغم كلِّ ما يعتوره من قسوةٍ ويعتريه من عنفٍ ـ أفضلُ من أن تَعِدَ ثم لا تملك الوفاء لما وعدتَ. فإذا لم تردّه صراحة وأنت تقدر على الوفاء، فتلك هي المداهنة التي ألفها أبناء عصرنا، والنفاق والمجاملة والكذب والخداع الذي تربّى عليه جيلنا، يبترها عمرو بن كلثوم منذ أكثر

من ألف وخمسمائة سنة، ويرشدك إلى الموقف الصادق الواضح الجريء أن تقطع منذ البدءِ، ويختصر جميع هذه المعاني، ويلخّص كلَّ تلك الظلال بكلمتين خفيفتين رشيقتين عميقتين في معنييهما، بعيدتين في دلالتيهما، كأنَّهما توقيعات الخلفاء. . . (ردّ خير من خلف).

أما ما عرفنا من قول زهير بن أبي سلمى في معلقته: (من الطويل)

ومنْ لم يصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يضرّس بأنيابٍ ويوطأْ بمنسِمِ

فإنه لا يختلف مع قول عمرو بن كلثوم، لأن المصانعة والمداراة والترفق لأهل الإيمان. بينما المداهنة لأهل النفاق؛ لأنها هي الخدعة في حدِّ ذاتها، وإظهار خلاف ما يضمر.

٣ ـ ثم يطلب من بنيه حسنَ الاستماع، ويعلّمُهم فنَّ الإصغاء بحرفين اثنين هما العين والواو حينما يقول: (وإذا حدثتم فعوا) أي: عوا الحديث إذا حدثتم. وعوا: فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة يعون، والواو فاعل.

كما يطلب إليهم مقابل ذلك أثمنَ ما يُوصي به المحدِّثون وأغلى ما يوصي به الخطباء والواعظون: (وإذا حَدَّثْتُم فأَوجزوا) أن أوجزوا إذا حدثتم، كأنما يريد أن يقول: إذا أردتم أن يستمع الناس إلى كلامكم ويصغوا إلى حديثكم فأوجزوا، فإن البلاغةَ هي الإيجاز. ويذكر علّة ذلك بأن الإكثار سببُ الخطأ والأهذار. (فإنّ مع الإكثار تكون الأهذار).

٤ ـ وينتقل بعد ذلك لاختصاصه الحقيقي، ومهنته التي شبَّ عليها وشاب، تلك هي الشجاعة التي عُرف بها عمرو بن كلثوم وعُرفت به، فيقول: (وأشجع القوم العطوف بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل) وهو الذي إن أقدم الناس مرة يُقْدِمُ مرتين، وإن هاجم الأبطالُ كرّةً، يكون هجومه كرتين. كما أن أشرف الميتات وأكرمها الموت في أرض المعركة، أي: أن يموت في ساحة الحرب دفاعاً عن قبيلته، وحماية لشرفه، وصوناً لحريمه.

٥ ـ ويتحدث عن الغضب فيقول؛ (لا خَيْرَ فيمن لا رويَّةَ له عند الغضب) أي: لا خير فيمن لا يملك نفسه عند الغضب، وإنما تُعرفُ إرادة الأبطال، وحِلم الرجال،

ممن يفقد رِشده، وصوابَه إذا غضب، وممن يضبط نفسه وإرادته عند الغضب. وكذلك الذي لا يصفحُ إذا استصفحَ (ولا مَنْ إذا عوتب لم يُعْتِبْ) أي: لم يرض. ولا يعفو إذا استغفر، ولا يُعتب إذا عوتبَ، فهذا أيضاً ممن لا خير فيه، ولا احترام له.

٦ ـ وهناك فريق من الناس لا يضرُّ ولا ينفع، فلا يرجى منه خير، ولا يُخاف منه شرٌّ، فبتره خيرٌ من وصله، وهكذا فإنّ صرف الوقت مع هذا الفريق ضياع، والتعامل معه خسارة وسخف، بكؤه خير من دره، وعقوقه خير من بره، وقطعه خير من وصله، قال الشاعر: (من الطويل)

إذا أنتَ لم تنفْع فَضُرَّ فإنما يُرجَّى الفتى كيما يَضُرَّ وَيَنْفَعَا

٧ ـ ولعل التفاتَةَ تحين من عمرو بن كلثوم إلى مستقبل أولادِه وذُريته، فيختم وصيته إليهم بتحذيرهم من الزواج بالأقرباء، ومصاهرةِ أبناء الحي الواحد؛ لأنه في نظره قد يسبب الضعف، ويفضي إلى الخلاف وأيِّ خلاف (ولا تتزوجوا في حيّكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض).

## الأسلوب:

كعادته في كلِّ نصٍّ جاهلي يعتمد نصُّ عمرو بن كلثوم هذا على الدقة والإيجاز والحكمة. . . .

وفي أسلوبه عباراتٌ قليلةٌ كلماتُها، عميقة معانيها، واسعةٌ دلالاتها، لعلك تجد نماذج منها في قوله: (من سَبَّ سُبَّ، فكفوا عن الشتم، وأحسنوا جوارَكم يَحْسُنْ ثناؤكم، وامنعوا من ضيم الغريب) إلى آخر ما هنالك من جمل تتميز بالرصانة والإيجاز والقوة مع السهولة والوضوح والتعبير عن مكنون الفؤاد، والإتيان بكلٍّ المراد بمثل ما رأينا وسمعنا من ألفاظ أشبه بالتوقيعات، منسوجةٍ للأماكن التي وضعت فيها، مرصوفةٍ بأعذب لحن، وموصوفةٍ بأمثل العبارات وأجملها، كأنها دُرٌّ منثور، من نبعٍ زاخرٍ موفور. . .

وقد ملئت بحكم خالدةٍ، ما أجمل أن تجمعَ وتزيَّنَ بها جدران المنازل، وصدور المجالس، تكتب بماء من الذهب، لأنها جمعت بين اللفظ الموجز، والمعنى

الواقعي ببلاغةٍ ويسرٍ تبقى على الأيام، وَتَخْلُد مع الزمان. . .

انظر إلى أسلوب القصر مع القسم في قوله: (والله ما عيرت أحداً بشيءٍ إلاّ عُيرت به). والمقابلة في قوله: (إن كان حقاً فحقاً، وإن كان باطلاً فباطلاً). وكذلك في قوله: (إذا حُدثتم فعوا، وإذا حَدثتم فأوجزوا)، وكذلك في: (ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخاف شرّه). وفيها إيجاز بالحذف، أي: ومنهم من لا يخاف شرّه. وكذلك المقابلة في قوله: (بكؤه خير من درّه) وذلك بأن قَطْعَ من لا يرجى خيره ولا يخاف شرّه خير وأفضل من صلته والتعامل معه، وكذلك في (عقوقه خير من برّه).

ونجد الاستعارة في قوله: (نزل به الموت) فقد شبه الموت المعنوي بشيء مادي محسوس ينزل برهبة وقسوة وعنف كالمطر أو المصيبة. وكذلك في قوله؛ (أكرم المنايا القتل) فقد شبه الموت الحاسم بالكرم السخي الحاسم في جامع الراحة والاطمئنان في كل منهما. وكذلك الأمر في قوله: (بكؤه ودره) فقد شبه قطعه ووصله بانقطاع اللبن أو درِّ الضرع. وتجدها أيضاً في قوله: (أتت عليه خمسون ومئة عام) في كلمة «أتت».

أمّا السجع فتجده في قوله: (أَلْفٍ وخُلف) و (سَب وسُب) و (إكثار وإهذار) و (درِّه وبرِّه، وخيره وشرّه).

وتكثر الكنايات في هذه الوصية، كقوله: (وامنعوا من ضيم الغريب) كناية عن حسن التعامل مع الناس عامة والغرباء بخاصة. وكذلك في قوله: (رب رجل خير من ألف) كناية عن كرم الأخلاق ومطلق الكثرة.

وقد استخدم الخطيب في وصيته هذا الأسلوب الخبري من أولها، حيث قال: (قد بلغت. . .) مستعملاً الكثير من أدوات التأكيد مثل: (قد) و (لا بدّ) و (القسم) و (إنّ) ليضفي على هذه الأساليب الخبرية؛ التي خرجت جميعها للنصح والإرشاد والحكمة وضرب المثل، مسحةَ التثبيت والتحقيق وحسن الأداء.

ولم يخل النصّ من أسلوب الإنشاء كقوله في الأمر: كفوا عن الشتم، و (أحسنوا جواركم) و (امنعوا من ضيم الغريب) ، فهذه أساليب إنشائية جاءت على

صيغة الأمر خرجت إلى إسداء النصيحة، والتوجيه والإرشاد، وكذلك قوله: (فعوا) و (أوجزوا).

وطبيعي أن يتصف أسلوبُ عمرو بن كلثوم بالهيبة والوقار، ونلاحظهما يشيعان في جنباته، ويملآن ألفاظه ومعانيه... لننظر ذلك في قولـه: (ردٌّ خيرٌ من خلفٍ، وأشجعُ القومِ العطوفُ بعد الكرِّ... وإنّ أكرم المنايا القتل...).

وهكذا، نجد أن النص كلّه يتهادى بين توازن، ومقابلة، وحسن تقسيم مع إيقاع موسيقي يكاد يقترب به من الشعر المقفى الموزون.

**العاطفة والخيال:**

ليس في الأدب العربي عاطفـةٌ أصدقُ ولا أعمقُ من عـاطفة الـوصيّة، وقـد حضرت الوفاة؛ لأن الموصي في مثل هذا الموقف، وقد أحسّ بأنّ شمس حياتـه أفلت من ها هنا، ويريدها أن تَطْلُعَ من مكان آخر من أولاده فَلْذَةِ أكباده، فهو يلقنُهم خلاصةَ أعماله، وصفوةَ تجاربه، ونتيجةَ خبراته؛ التي عاشها، وطحنتـه الحياةُ في معاناتها، وتَحَمُّل نتائجها؛ لعلها تبقى خالدةً في ذُريّته ونسله، ينتفعون بها من بعده، ويقوّمون بها ما اعوج من خُلُقِ أبيهم الراحل في أمسه الدابر، ونجمه الآفل.

وكانت هذه العاطفة على عمقها وصدقها مؤثرةً أبعدَ الأثر، وهو يقول لهم: يا أبنائي! نازل بي الآن ما نزل بآبائي من قبل، إنه الموت الذي لا بدّ من شرب كأسه، وورود حوضه، إنّه سُنّةُ الله في خَلْقِهِ.

ولا مجال للخيال الواسع بل الخيال الجزئي في وصيّة واقعية إلّا ما كانَ من استنتاجاتٍ لبعض الأمثال يضربها لهم في مثل قوله: (أشجع القوم العطوف بعد الكر) و (من لا يرجى خيره ولا يخاف شره، فبكؤه خير من درّه).

# ٣ - وصية أكثم بن صيفي التميمي(١) إلى طيء(٢)

كتب أكثم بن صيفي وصيّة إلى طيء، قال فيها:

---

(١) هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي، حكيم العرب المعروف المشهور في الجاهلية، وكان من حُكّام العرب وخطبائها، أدرك مبعثَ النبي ﷺ، وراسله. واختلف في إسلامه، والأكثر على صحته. وقيل: إنه لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لقومه: احملوني إليه، فقالوا: لا والله، وأنت. سِنٌّ من أسنان العرب. قال: فليأته أحدُكم فليسأله عن ربِّه، وعما أمره به، فأتى حبيش بن أكثم فقال: يا محمد! بم بعثك ربُّك؟ قال: بعثني بأن أكسرّ الأوثان، قال: بم أمرك؟ قال: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تَذَكَّرون﴾ [النحل: ٩٠]. فانصرف حبيش إلى أبيه، فأخبره بكلام رسول الله ﷺ وتلا عليه الآية الشريفة، فجعل يردّدها، ويقول: إن هذا لـربٌّ كريم، يأمر بمحاسن الأخلاق، وينهى عن مساوئها، ثم جمع إليه بني تميم وقام فيهم خطيباً، وعمره إذ ذاك مئة وتسعون سنة، وفي ذلك يقول: (من الطويل)

وإنَّ آمـرأً قـد عـاش تـسـعـين حِـجَّـةً ... إلى مئـة لم يـسـأم الـعـيش، جـاهـل

[ويقال: عمره خمس وتسعون سنة وهو الأقرب]. ثم قال: يا بني تميم: .... إن ابني شاهد هذا الرجل الذي ظهر بمكة وشافهه، وهو يأمر بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله عز وجل، وخلع الأوثان... فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً، وأتوه طائعين قبل أن تأتوه كارهين. والله إن هذا الذي يدعو إليه لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق العرب حسناً، فأطيعوا أمري، فمن سبق فاز، ومن تأخر ندم. فقام مالك بن نويرة، وقال: لقد خَرِف شيخكم. فلا تتعرضوا للبلاء. فقال أكثم: ويل للشجيّ من الخليّ، لهفي على أمرٍ لم أدركه ولم يسبقني. ثم رحل إلى النبي ﷺ فمات في الطريق، ويقال: إن العطش أهلكه. وكان قد أوصى من معه باتباع النبي ﷺ، وأشهدهم أنه أسلم، وكان ذلك في سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م. ويقال: إنه مات بالبادية وله عقب بالكوفة. وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن هذه الآية، وهي: ﴿ومن يخرجْ من بيته مهاجراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثمَّ يدركْهُ الموتُ فقد وقع أجرهُ على الله﴾ [النساء: ١٠٠] نزلت في أكثم ومن تبعه من أصحابه. وقال قوم آخرون: خرج مهاجراً ولم يسلم.

وقد جمع من كلام أكثم شيء كثير. انظر: الإصابة لابن حجر ١/١١٣ - ١١٥. وسرح العيون لابن نباتة المصري، ص ٣١ - ٣٤. وجمهرة الأمثال ٢/٣٣٨ - ٣٣٩. والمزهر ١/٥٠١ - ٥٠٢. والمصون في الأدب، ص ١١٣ - ١١٤. والاشتقاق، ص ٢٠٧. والمعارف، ص ٢٩٩. والحيوان ٣/٥١. وجمهرة أنساب العرب، ص ٢١٠.

(٢) طيِّء: قبيلة عربية بوزن فَيْعِل، والهمزة فيها أصلية، والنسبة إليها طائي. (اللسان، طوي).

أُوصيكُم بِتَقْوى اللهِ، وَصِلَةِ الرَّحْمِ، وإِيَّاكُم وَنِكَاحَ الحَمْقاءِ[1]، فإنّ نِكَاحَها غَرَرٌ[2]، وَوَلَدَها ضَيَاعٌ، وَعلَيْكُمْ بالخَيْلِ فَأَكْرِمُوهَا[3]، فإنّها حُصُونُ العَرَبِ، ولاَ تَضَعوا رِقابَ الإبلِ في غَيْرِ حَقِّهَا، فإن فِيهَا ثَمنَ الكَرِيمَةِ[4]، وَرَقُوءَ الدَّمِ[5]، وَبِأَلْبَانِهَا يُتْحَفُ الكَبِيرُ وَيُغْذَى الصَّغيرُ، وَلَوْ أَنَّ الإبلَ كُلِّفَتِ الطَّحْنَ لَطَحَنتْ، وَلَنْ يَهْلِكَ آمْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ، والعُدْمُ عُدْمُ العَقْلِ، لا عُدْمُ المَالِ[6]، ولَرَجُلٌ خَيْرٌ من أَلْفِ رجُلٍ، وَمَنْ عَتَب عَلَى الدَّهْرِ طَالَتْ مَعْتَبَتُهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِالقَسْمِ طابَتْ مَعِيشَتُهُ، وآفَةُ الرَّأْيِ الهَوى، والعَادَةُ أَمْلَكُ، والحَاجَةُ مَعَ المَحَبَّةِ خَيْرٌ مِنَ البُغْضِ مَعَ الغِنَى، والدُّنْيا دُوَلٌ، فَمَا كانَ لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ، والحَسَدُ دَاءٌ لَيْسَ لَهُ دواء، والشَّمَاتَةُ تُعْقِبُ. وَمَنْ يَرَ يَوْماً يَرَهُ، قَبْلَ الرِّمَاءِ تُمْلأُ الكَنَائِنُ[7]، النَّدَامَةُ مَعَ السَّفاهَةِ، دِعامَةُ العَقْلِ الحِلْمُ، خَيْرُ الأُمُورِ مَغَبَّةً[8] الصَّبْرُ، بَقاءُ المَوَدَّةِ عَدْلُ التَعاهُدِ، مَنْ يَزُرْ غِبّاً[9] يَزْدَدْ حُبّاً. التَّغْرِيرُ مِفْتَاحُ البُؤْسِ، مِنَ التَّوانِي والعَجْزِ نُتِجَتِ الهَلَكَةُ، لِكُلِّ شيءٍ ضَرَاوَةٌ[10]، فَضَرِّ لِسانَكَ بِالخَيْرِ[11]، عِيُّ الصَّمْتِ أَحْسَنُ مِنْ عِيِّ

---

(١) إياكم: مفعول به للفعل المحذوف تقديره أحذِّر. والواو: عاطفة. ونكاح: مفعول به منصوب لفعل محذوف تقديره دعوا، أو اتركوا. والجملة من الفعل دعوا والفاعل الواو والمفعول به نكاح معطوفة على جملة: (أحذر إياكم).

(٢) غرر: أي خطر وخِداع.

(٣) عليكم: اسم فعل أمر بمعنى الزموا. والكاف للخطاب والميم للجماعة. وبالخيل: الباء حرف جر زائد. والخيل: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به لاسم الفعل عليكم. فأكرموها: الفاء استئنافية. وأكرموها: فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة. والواو فاعل. والهاء: مفعول به.

(٤) المراد هنا المهر.

(٥) رقأ الدم والدمع: خف وانقطع. ورقأ بينهم: أصلح، وأفسد، وهي من الأضداد. والرُّقوء: المصلح بين القوم، والمراد أنها تعطى في الدّيات. ويقال: أصل ذلك في الدم، إذا قَتَلَ رجلاً فأخذ وليُّ الدم الدية رقأ دم القاتل؛ أي: ارتفع. (اللسان، رقأ).

(٦) العدم: الفقدان.

(٧) الكنائن والكِنانات مفردها الكِنانة: جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام.

(٨) المغبة: عاقبة الشيء.

(٩) غبَّ غِباً: جاء زائراً بعد أيام.

(١٠) الضراوة: العادة والدُّرْبة.

(١١) ضرّ: عوِّد.

المَنْطِقِ [1]، الحَزْمُ حِفظُ مَا كُلِّفْتَ وَتَرْكُ مَا كُفِيتَ، كَثِيرُ التَّنَصُّحِ يَهْجُمُ عَلَى كَثِيرِ الظِّنَّةِ، مَنْ أَلْحَفَ [2] في المسْأَلَةِ ثَقُل، مَنْ سأَلَ فَوْقَ قَدْرِهِ آسْتَحَقَّ الحِرْمَانَ، الرِّفْقُ يُمْنٌ، والخَرْقُ شُؤمٌ [3]، خَيْرُ السَّخاءِ ما وافق الحَاجَة، خَيْرُ العفْوِ مَا كانَ بَعْدَ القُدْرَةِ [4].

## الفكرة العامة:

تدور حول مجموعة من الوصايا، التي تدعو إلى مجتمع مثالي يقوم على حياة: دينية واجتماعية وأخلاقية يسودها الترابط والإخاء والمحبة والسخاء والكرم والتسامح والتضحية وما إلى ذلك.

## المضمون:

يبدأ أكثم وصيته إلى طيء (بتقوى الله) أي: أن يجعل المرءُ من العمل الصالح وقاية بينه وبين عذاب الله، (وصلة الرحم) اشتقت الرحم من الرحمن، ووصلها كناية عن برّها والإحسان إليها... وشرعاً تعني: ذوي الأرحام من القرابة، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، يقال: ذو رَحم مَحْرَم ومحرَّم، وهو من لا يحلُّ نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة وفي الحديث: «إن الرَّحِمَ شِجْنَةٌ معلقة بالعرش» (بتثليث الشين: وهي الشعبة من كل شيء. تقول: اللهم صِلْ مَنْ وصلني واقطع من قطعني[5]. أخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجل أنا الرحمن خلقت الرَّحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وَصَلَها وصلته ومن قطعها قطعته»[6]. ويقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن

---

(١) العي: الحصر.

(٢) ألحف: ألحَّ وأصرَّ.

(٣) الخرق: ضد الرفق. والرفق لين الجانب واللطف.

(٤) ورد هذا النص في: مجمع الأمثال للميداني ٢/١٨٢ ـ ١٨٣ رقم ٣٢٧١.

(٥) اللسان، رحم.

(٦) تفسير القرطبي ١/١٠٤.

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رَحِمَهُ، وما كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيراً أو ليصمُتْ»[1]. متفق عليه. وهذا دليل على أن بعض العرب كان يؤمن بالله واليوم الآخر.

ثم يحذرهم أكثم من نكاح الحمقاء، وهي المرأة الطائشة، سريعة الغضب، سريعة الحكم، ويسمي نكاحها: (غَرَر) أي: خطر وخداع، أي: ربما غُررتم بها بخفة أو جمال ظاهر فيكون من الزواج بها خطر وشيك، ومصير ولدها إلى ضياع؛ لأنها لن تستمر حياتها في بيت الزوجية.

وينتقل بعد ذلك إلى أبرز ما في بيئتهم من حيوان ينتفع به فيختار الخيل والإبل، ويبدأ بالخيل طالباً إكرامها، ناعتاً إياها بأنها حصونهم يتحصنون بها، في ردّ كيد العدو، فتحصِنُهم من هذا العدو. ويطلب إكرام الإبل أيضاً، فلا تقَدَّمُ هكذا اعتباطاً؛ لأنها مهرُ الكريمات من النساء، وسببُ الإصلاح في دفع الديات، ورقوء الدماء، وهي تُحفة للكبير يجد في لبنها أطيبَ الغذاء النادر، ويغذى بها الصغير؛ فتكون سبباً في نموّه وترعرعه، وهي مطيعة يقودها الطفل الصغير، وتستجيب لكل أمرٍ حتى ولو أنها كلفت أن تطحن، بإدارة حجر الطاحون، أو ما يهرس به الحب لاستجابت، ومن أجل ذلك يوصي بالعناية بها.

ويعود إلى متابعة الحكم والأمثال التي عرف بها وعرفت به، فيقول:

١ ـ (ولن يَهْلِك امرؤٌ عرف قَدرَه): أي: المرءُ حيث يضعُ نفسه، ولن يهلك إذا عرف قدر نفسه فلم يوردها سفاسف الأمور، ولم يضعها في غير المكرمات، فالإنسان بقيمه يحترم في الحياة ويخلد بعد الممات.

٢ ـ (والعُدْمُ عُدْمُ العقل لا عُدْم المال): إن الفقر الحقيقي والعدم الحقيقي هو نقص العقل لا قلّة المال.

٣ ـ (ولرجل خير من ألف رجل): ورب رجل عظيم خير من ألوف الرجال، ومن أجل ذلك، قيل: (واحدٌ بألف، وألفٌ بتُفّ)، والتف: وسخ الأظافر.

---

(١) رياض الصالحين، ص ١٥٣.

٤ ـ (ومن عتب على الدهر طالت معتبته): الذي يَعْتِبُ على الأيام ـ سوف يطول به العتب؛ لأنّ الأيام لا حدودَ لهناتها وسقطاتها؛ لذلك طوبى لمن يرضى بقسمته ويطمئن إلى القضاء والقدر، فتطيب نفسه ويهنأ عيشُه.

وينتقل بعد ذلك إلى مثل جديد هو قوله:

٥ ـ (آفةُ الرأي الهوى): وهو أن يميلَ صاحبُ الرأي إلى جهة تستهويه قبل أن يصدر حكمه فيه، مهما تكن نوع الهواية من قرابة أو تأثر، فيكون حكمُه بعيداً عن الحقّ.

٦ ـ وأما قوله: (والعادةُ أملكُ) فهي أن العادَةَ محكَّمَةٌ في كلٍّ خلاف يقع بين طرفين، فإذا رجع المختلفان إلى ما جرت عليه العادة انتهى الخلاف وتم الوفاق.

٧ ـ (الحاجة مع المحبة خيرٌ من البغض مع الغنى): وإن الذي يتمتع بالحب ولو أصابه الفقر خيرٌ من الذي يُبْغِضُه الناسُ ولو كان موفور الغنى، هذا على نطاق الأفراد، أمَّا على نطاق الجماعات، فإنَّ القبيلة غالباً ما يسود بين أفرادها التحابب والتآزر قبل أن يُفْسِد الغنى علاقاتهم فيحوّل محبتهم إلى عداء وبغضاء.

٨ ـ (الدنيا دول): أي: أنه لا يدوم في هذه الحياة شيء على حاله، وكما قال الشاعر عن الدنيا:

ولا يـدوم على حـالٍ لها شـانُ

من أجل ذلك تابع قوله:

٩ ـ (فماكان لك أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك): أي: أن ما قُسِمَ لك ستناله مهما كنت ضعيفاً، وما لم يكن مقدوراً لك، ومكتوباً عليك لم تستطع تحصيلَه والوصولَ إليه، والعناء المقدور لا بدَّ من نزوله، لا تدفعه قوَّتُك ولا قوَّةُ غيرك.

١٠ ـ (والحسد داءٌ ليس له دواء): ويعني بالحسد أن ترى نعمةً بأخيك فتتمنى زوالها عنه، وتحوّلها إليك من مال وصحة وجاه وجمال إلى ما هنالك مما يتمناه المرء، ويحرص على الحصول عليه، والحسد منهيٌ عنه في كل زمان ومكان، أما الغبطة

فهي نقيض الحسد، وهي أن يتمنى المرء النعمة رآها على أخيه أن تستمر له، وأن يحصل هو على مثلها، ومن الأدعية المأثورة، إذا رأى الإنسان نعمة على أحد أن يقول: (اللهم أتمم نعمتك على عبيدك، وامنحنا مثلها يا ربَّ العالمين!).

١١ ـ وأما قوله: (والشماتة تُعْقِب) فهذا مثل فيه إيجاز بالحذف؛ لأنه أراد أن يقول: إن الشماتة تعقب الندامة والحسرةَ والشحناء، وتوقع بين الناس العداوة والبغضاء.

١٢ ـ وفي قوله: (وَمَنْ يَرَ يوماً يره)(١) احتمالات لهذا المثل:

**أولها**: وهو أبسطها وأسلسها، أن الذي يعيش ليوم جديد يراه حقاً، وأما ما بعده من أيام لا يعلم منها شيئاً؛ لأنه لا يدري هل يعيش إلى حينها أم يكون الأجل أقرب؟!

**وثانيها**: أن الذي ينظر إلى يومه بتفاؤل وابتهاج يراه ذلك اليوم بتفاؤل وابتهاج، ومن ينظر بتشاؤم وحزن فإن يومه ينظر إليه بتشاؤم وحزن كأنه المرآة، فعليك أن تكون دائماً من المتفائلين.

* كن جميلاً تَرَ الوجود جميلاً *

**وثالثها**: أنّ الماضي ذاهب، والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، أي: أن الذي يعيش إلى يوم جديد يراه، ويُحْسَبُ عليه، ويحاسب عنه، فلا تقل غداً أو بعد غدٍ؛ لأنك لا تدري ماذا تكسب غداً، ولعل بيت زهير يقع موقعه في هذا المعنى حيث يقول: (من الطويل)

وأعلم ما في اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي(٢)

---

(١) ورد هذا المثل بنص هو: (من يَر يوماً يُر به) أي: من رأى يوماً على عدوّه رأى مثله على نفسه. وقيل في معناه أيضاً: مَنْ أحلَّ بغيره مكروهاً حلَّ به مثله. ويروى: (من يُرِ يوماً يُرَ به) وأول من قاله كلْحَبُ بن شؤبوب الأسدي غير منسوب لأكثم، قال الشاعر: (من الطويل)

وَمَنْ يَرَ يوماً بامرىءٍ يَرَهُ به ومن يأْمَنِ الأحداثَ والدهرَ يَجْهَلِ

وقال غيره: (من الرمل)

كلُّ من عاشَ يرى ما لَمْ يَرَهْ

انظر: مجمع الأمثال ٢/٣٠٤. وجمهرة الأمثال ٢/٢٧٢. والمستقصى، ص ٣١٧. وفي هذه الأمثلة التي أوردناها مشاكلة معنوية.

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ١٧٦. وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٣٥.

**ورابعها**: أن يعود الضمير في يره إلى اليوم وهو أقرب مذكور كما يقول النحاة، أي: أن الذي يرى يوماً يراه بالمقابل ذلك اليوم، أي: من يدرك يوماً، يدركه ذلك اليوم.

**وخامسها**: وهو الاحتمال الأخير ـ الذي يتبادر إلى الذهن ـ أن يكون الفعل (يَرَهُ) هو (يُرَ به) فيكون المعنى: إن الذي يعيش إلى طلوع شمس جديد، ويظل على قيد الحياة، أي: يمتد به الأجل يوماً جديداً يراه الناس في ذلك اليوم، ويشهده كلّهم جسماً ومعنى، أما الذي لا يراه الناس فهو ذاك اليوم الذي لم ترعيناه شمسَ يوم جديد، ولعلّه يكون من السابقين إلى رحمة الله.

١٣ ـ وفي قوله: (قبل الرماءِ تملأُ الكنائن) يضرب هذا المثل للذي يُقدم على عملٍ هامٍ من غير استعدادٍ كالمسافر بلا زاد، والمحارب بلا عتاد، والطالب بلا اجتهاد، فيقال لكل هؤلاء هذا المثل، وعليهم الاستعداد للأمر قبل حُلوله. وهناك مثل آخر مشابه له، وهو: (قبل الرَّمي يُراشُ السَّهمُ)، أي: ينبغي أن تُصلح السهم قبل وقت الرمي (١).

١٤ ـ (الندامة مع السفاهة): الحليم يشكر عاقبة حلمه، والسفيه يَلقى مغبة سفهه، ويتمنى لو أنه لم يكن سفيهاً، والحقيقة أن السفاهة وقلة الأخلاق والحُمْق ـ كل هذه الخصال ـ تُورث الخزي والندامة.

١٥ ـ (دِعامةُ العقل الحِلم): إن من أروع ما اشتهر به العرب وضربت بعظمائهم الأمثال صفة الحلم، حتى قيل: (أحلم من الأحنف) و (أحلم من سنان)(٢) والحلم: سعةُ الصدر وجمال الصبر.

١٦ ـ (خير الأمور مغبة الصبر): ولعل ذكره للحلم أفضى به إلى هذا المثل، وهو أن أحسن ما أنتجته الأخلاق هو الصبر؛ لأنه أساسُ كلّ فضيلة، وأفضل كلّ حصيلة، وبه يسود العظماء، ويخلُدُ الحكماء، والصبر مفتاح الفرج، وكل الذي قيل

(١) انظر: جمهرة الأمثال ١٢٢/٢. والمستقصى، ص ٢٥٢. ويُراش: يركب عليه الريش.

(٢) جمهرة الأمثال ٤٠٧/١ ـ ٤٠٨.

عن مكارم الأخلاق يَعْدِلُه الذي قيل عن خُلُقِ الصابرين. وقد حثّ القرآن الكريم على الصبر في مواضع كثيرة فيه.

١٧ - (بقاءُ المودةِ عَدْلُ التعاهد): والتعاهد: حُسن تعهّد الآخرين بالعناية والإحسان والوفاء، وإن هذا التعاهد الخيِّر يقابل المودة، ويزرع المحبة، ويدوم معه الصفاء، وبقدر ما يستمر هذا التعهّد سَمْحاً مخلصاً بقدر ما تدوم المودةُ ويترسخ الإخاء.

١٨ - وينتقل أكثم بعد ذلك إلى القول: (من يَزُر غِباً يَزْدَدْ حُبّاً)[١] أي: مرة بعد مرة، فلا يثقل الزائر بزيارته كل يوم ولا يجفو بانقطاعه عن القوم، ولكنه يزور يوماً، ويدع يوماً أو يومين. يقول أبو تمام: (من الطويل).

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحي مُخْلِقٌ ... لديباجتيه فاغترب تتجددِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبةً ... إلى الناسِ أن ليست عليهم بسرمدِ[٢]

١٩ - (التغرير مفتاح البؤس) ويعني بذلك: الغِش، لأن الغش أو التغرير يفتح باب الشقاء منذ البدء.

٢٠ - (من التواني والعجز نُتِجَتِ الهلكة): التواني: التواكل والكسل. والعجز: الاستسلام والفشل، فإذا اتّفقا لنفسٍ أورداها منيّتها وأنتجا لها الثبور والهلاك. وبالمقابل فإن النشاط والإقدام ينتجان النجاح والفلاح والخير والصلاح.

٢١ - (لكل شيءٍ ضراوةٌ فضرِّ لسانك بالخير): والضراوة، العادة والدربة، وإذا كان الأمر كذلك فليس لك أيها الإنسان إلّا أن تعوّد لسانك على الخير، وقول الحق، فإنه أفضل ذُخرٍ وأكرم سبيل.

٢٢ - (عِيُّ الصمتِ أحسنُ من عِيِّ المنطق) ما ينتج عن صمتك من أضرار أهون

---

(١) يقول أبو هلال العسكري: حدثنا الحسين بن محمد المخرِّمي قال: حدثنا سويد بن سعيد، قال: حدثنا المعتمر عن طلحة عن عمرو بن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال الرسول ﷺ: «زُر غِبّاً تزدد حباً».
وقد قال النبي وكانَ بَرّاً ... إذا زُرتَ الحبيبَ فَزُرْهُ غِبّاً
انظر: جمهرة الأمثال ١/٥٠٥. وانظر الحديث في فيض القدير ٤/٦٢.

(٢) ديوان أبي تمام ٢/٢٣. ومخلق: أي أنفوا منك، وهنت لديهم.

بكثير مما ينتج عن لسانك من أخطار، يقول الشاعر: (من الكامل)

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرة    حتى ندمت على الكلام مرارا

ويقول آخر: (من الوافر)

جراحاتُ السنانِ لها التئامُ    ولا يلتام ما جَرَحَ اللِّسانُ

ويقول زهير في معلقته: (من الطويل)

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ    فلم يبق إلّا صورةُ اللحم والدمِ[1]

٢٣ ـ (الحزم حفظ ما كُلِّفْتَ وتركُ ما كفِيتَ): إن من أحزم الحزم أن تنجز ما يجب عليك إنجازه، وما يطلب منك إنفاذه، بحيث تكتمل معه معيشتك، وتَسْعَدُ به أيامُكَ. أما ما كفيته، فاصرف النظر عنه لأنك غير مكلف به، ولا هو مطلوب منك، فلا تُؤاخَذُ على تركه؛ لأنه غير مطلوب منك.

٢٤ ـ (كثير التنصح يَهْجُمُ على كثير الظِّنَّةِ): أول ما يَرد إلى الخاطر في هذا المثل أن الناصح الذي ألف دوام النصيحة يتغلب على الشكّاكين وسيئي الظن؛ لأن الإنسان إذا استمع إلى النصح مرات ومرات قَنِعَتْ نفسه واطمأَنَّ قلبه، وانتفت عنه الوساوس والظنون، وثاب إليه عقله، وآوى إلى رُشده.

ومن الشكاكين من لا يثق برأي نصيح، فيدفعه سوء الظن إلى سؤال نصيح آخر، وهكذا يقع في الشك والرِّيب، فلا يطمئن على حالٍ بل يعيش في قلق واضطراب، وفي هذا المعنى يقول الشاعر: (من الطويل)

إذا بلغَ الرأيُ النصحيةَ فآستعنْ    برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ

٢٥ ـ (مَنْ أَلحفَ في المسألةِ ثقل) أي: الذي يلح في الطلب يستثقله الناس ويتحاشون لقاءه، يقول زهير في معلقته: (من الطويل).

* وَمَنْ أكثرَ التَّسآل يوماً سيحرم[2] *

٢٦ ـ (من سأل فوق قدرِه استحق الحرمان): هذا مثلٌ استعمله عمر بن

---

(١) شرح المعلقات السبع، ص ٧٦.

(٢) شرح المعلقات السبع، ص ١٧٩.

الخطاب رضي الله عنه لطالب قضاء لا يستحقه، أي: ليكون قاضياً للمسلمين. وانظر معي القول المأثور: «رحم الله آمرأً عرف قدر نفسه».

٢٧ ـ (الرفق يُمن، والخَرْقَ شؤم) الرفق لين الجانب، خلاف العنف، هذه كلمة الرسول ﷺ، والتي كان يرددها كثيراً[١]، من ذلك قوله: «إن الرفق يُمْنٌ، والخُرقَ شؤم، وإن الله عز وجل إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخلَ عليهم بابَ الرفق، وإن الرفق لم يكن في شيء إلا زانه، وإن الخرق لم يكن في شيء إلا شانه»[٢].

وأما الخرق: فهو الشدة، وقديماً قيل: إن الشدة لا تأتي بخير.

٢٨ ـ (خير السخاءِ ما وافق الحاجة) في الحقيقة أن العطاء للمستحق خير أنواع السخاء، أما السخاء في غير موضعه فهو بطر وتبذير ورياء.

٢٩ ـ (خير العفو ما كان بَعْدَ القدرة) قديماً قيل: «العفو عند المقدرة»، فحين تتمكن من الآخرين أن تُنزل بهم عقوبتك، وتثأر منهم ببطشك ومقدرتك تظهر حينئذ مكانة العفو ويتجلى جمال الصفح، ومعنى السماح. وتذكر دائماً هذا القول العظيم لعمر بن عبد العزيز: (إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك).

## الإنسان العربي من خلال هذه الوصية:

من خلال دراستنا لهذه الوصية، وعرضنا لمضمونها نجد أنها تمثل العربي في العصر الجاهلي وأصالته التي ترتكز على مكارم الأخلاق، وأخص منها: التواضع، والكرم، وصلة الرحم، واحترام الحياة الزوجية، والتحلي بالصبر، والإيمان بالقدر، واعتماد العقل رفعةً ومكانةً بدلَ المال والجاه، والأمر بالحزم والشجاعة والحِلم، والأمر بالعناية بالخيل والإبل، وبيان مكانتهما في حياة الإنسان العربي متمسكاً في ذلك بتقوى الله والإيمان بقضائه وقدره.

---

(١) انظر مجموعة من الأحاديث في كنز العمال ٣/٤٤ ـ ٥٤. والكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي الجرجاني ٤/١٦٠٥. من ذلك قوله: «يا عائشة! إن من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنياوالآخرة». وقوله: «يا عائشة! من حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة». وقوله: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق».

(٢) كنز العمال ٣/٥٤.

وهي تمثل الإيجابية والحثّ على السخاء والعفو عند المقدرة، وترك المسألة، والاستكثار من النصح، والبعد عن الظنة، إلى آخر ما هنالك من الأخلاق؛ التي تعتز بها الأمم، وترتكز عليها حضارة الشعوب. . .

## الأسلوب:

اعتمد أكثم في أسلوبه بهذه الوصية على الإيجاز والتركيز والوضوح، وكانت ألفاظه مختارة، موحية، عميقة الدلالة، تشيع فيها رائحة القديم، بالإضافة إلى عَبَق الجديد الذي يتميز بالسهولة واليسر.

وهي تعتمد في الوقت نفسه على قوة المعنى مع رصانة المبنى؛ لتعكس عقلية بني طيء خاصة وبقية العرب عامة، بأسلوب محكم النسج، جزل العبارة، دقيق التصوير.

ولعل قِصر العبارة، وإيجاز الأسلوب مع تعدد الموضوعات، وبعض الاستطراد مما يألفه العربي في العصر الجاهلي، بحيث يدفع عنه المَلالة، ويجذبه إلى متابعة صاحب الوصية بلهفة وشوق. وربما كان هذا التنوع وتعدد الموضوعات متلائماً مع حياة العربي من تنقل وتجول وعدم استقرار، أو أن هذه الموضوعات قيلت متفرقة في مناسبات كثيرة، ثم جمعت تحت وصية واحدة، ومع ذلك، فإن هذه الروافد تجتمع لتصبَّ في معين واحد هو الدعوة إلى مكارم الأخلاق، والبعد عن الطيش والغضب.

نجد النص مليئاً بالتشبيهات، والاستعارات، والكنايات، وبالزخارف اللفظية من: طباق ومقابلة وسجع وحسن تقسيم وازدواج[1]، ونجد أيضاً الحذف، والتقديم، والتأخير، والتنوع بين الأسلوب الخبري والإنشائي ليخرج ذلك كلّه إلى الهدف الأسمى من الوصية، وهو النصح والإرشاد والعظة، وقول الحكمة. . .

أما التشبيهات فنجد منها التشبيه البليغ في قوله عن الخيل: (إنها حصون

---

(١) الازدواج أو المزاوجة، وهو في اللغة مصدر زواج بين الشيئين إذا قارب بينهما. وفي الاصطلاح: أن يزاوج المتكلم بين معنيين في الشرط والجزاء. (انظر: خزانة الأدب لابن حجة الحموي، ص ٤٣٥)، مثل: من عتب على الدهر طالت معتبته. ومن رضي بالقسم طابت معيشته.

العرب) وعن الحسد، بأنه: (داء ليس له دواء)، وعن المودة بأنها تشبه التعاهد، وعن الدنيا بأنها دول، أي: تدور ولا تبقى على حال واحدة. وكذلك في قوله: (التغرير مفتاح البؤس) وقوله: (دعامة العقل الحلم).

وأما الاستعارات فنلاحظها في مثل قوله عن الإبل: (لو كلّفت الطحن لطحنت)، وقوله عن معاتبة الدهر: (ومن عتب على الدهر طالت معتبته)، وفي قوله أيضاً: (ما كان لك أتاك على ضعفك)، وقوله: (نتجت الهلكة)، وقوله: (في المسألة ثقل).

ونجد الكناية في قوله: (قبل الرماءِ تملأ الكنائن) كناية عن الاستعداد والتهيؤ قبل الإقدام على الشيء. وفي قوله: (كثير التنصح يهجم على كثير الظِّنَّة) كناية عن السيطرة. وفي قوله: (فإن فيها ثمن الكريمة) كناية عن المهر.

ونجد المجاز في قوله: (ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها) أطلق الرقاب، وأراد الإبل بكاملها من قبيل إطلاق البعض وإرادة الكل، وهو مجاز علاقته الجزئية.

أما المقابلة فنجدها في قوله: (الحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى) و (من عتب على الدهر) في مقابلة مع (من رضي بالقَسْم)، وهناك مقابلة أخرى عن الحزم في قوله: (حفظ ما كُلِّفْتَ وتركُ ما كُفِيتَ)، وكذلك المقابلة في قوله: (الرفق يمن، والخرق شؤم).

وفي النص طباق بين: (عي الصمت أحسن من عي المنطق)، وبين (بألبانها يتحف الكبير ويغذى الصغير) وبين (داء ودواء) وبين (ضعفك وقوتك).

أما الإزدواج فنجده في قوله: (من عتب على الدهر طالت معتبته، ومن رضي بالقَسْم طابت معيشته)[1]، وذلك أن المزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء).

---

(١) من: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ والجملة بعده في محل رفع خبر. عتب: فعل ماضٍ مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. على الدهر: جار ومجرور متعلق بالفعل قبله. طالت: فعل ماض والتاء للتأنيث في حل جزم جواب الشرط. ومعتبته: فاعل طالت. والهاء في محل جر بالإضافة. ومن: الواو عاطفة. من كسابقتها. رضي: فعل ماضٍ مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة في محل جزم فعل الشرط. بالقسم جار ومجرور. طابت معيشته. إعرابها كطالت معتبته.

وكان للجناس نصيب في هذا النص، وذلك في قوله: **(غبا وحبا)** و **(داء ودواء)** و **(طالت وطابت)** و **(من بر يوماً بره)**.

وتجد الحذف في قوله: (إياكم ونكاح الحمقاء)(١) أي: (واتركوا نكاح الحمقاء)، وقوله: (ولرجل خير من ألف رجل) أي: (رجل عظيم خير من ألف رجل حقير)، وقوله: (الشماتة تعقب) أي: (تعقب الندامة والعداوة)، وقوله: (الندامة مع السفاهة) أي: مصطحبتان ومتلازمتان.

وانظر السجع في عباراته: (معتبته ومعيشته) و (على ضعفك وقوتك) و (داء ودواء) و (كلفت وكفيت).

وهكذا نجد أكثم في وصيَّته يفرُّ من الصنعة البلاغية، وبخاصة من السجع والرتابة الموسيقية، ولكنها تتبعه، وتلحق به كما بيّنا في بعض الجناس والسجع والازدواج وحسن التقسيم. . . . ذلك أنه يرسل حكمه وأمثاله من خلال وصيته لقومه متتابعة كحبات المطر، متدفقة كالسيل المنهمر، متلاحقة كأمواج البحر، مُلئت حكمة، وعُجنت محبّةً وصدقاً، كل واحدة منها تصلح عنواناً لكتاب أو موضوعاً لبحث، وما أحراها أن تكتب بماء الذهب وتعلق في صدر كل بيت ومجلس.

## العاطفة والخيال:

نوع هذه العاطفة النصح والإرشاد، وهي جديرة بأن تكون عاطفة صدقٍ وحكمة، وكان الرجل شديد التأثر بما يقول: لأنه يقدّم خلاصة تجاربه في الحياة مما جعل تأثرنا به واضحاً، وهكذا نقل إلينا تأثره بسهولة ويسر، وهي ولا شكَّ عميقةٌ بعيدة عن الخيال، لواقعيتها إلا ما كان عَقِبَ كلِّ حكمةٍ أو مثل من خيال يمتد بنا ونحن نفكر في البعد؛ الذي تتركه تلك الحكمةُ في تعامل الناس وفي أخلاقهم وفي سائر شؤونهم منذ ستة عشر قرناً إلى يومنا هذا يستعملها الأصاغر والأكابر، ويطبقها

---

(١) إياكم: مفعول به منصوب لفعل محذوف تقديره (أحذر). والواو: عاطفة. ونكاح: مفعول به منصوب لفعل محذوف تقديره: (واتركوا نكاح الحمقاء) وهي معطوفة على جملة (أحذر إياكم). والحمقاء: مضاف إليه مجرور، والجملة إنشائية تحمل معنى النهي خرجت إلى التحذير والإرشاد.

الأقصَوْن والأدنَوْن عن قناعة ورضىً واطمئنان.

وكما قلنا فإن الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية التي من عادتها أن تلعب دوراً بارزاً في الخيال، قد وردت في هذا النص صادرة عن عفوية وطبع دون تكلف، لذلك، لا نجد للخيال مجالاً في هذه الوصية، بل بقي محصوراً في حدود الواقع، عاجزاً عن التغلغل في إبداع الصور، وشقّ الغلاف المحيط بالواقع، والتحليق في عالم بعيد عن الواقعية.

# ٤ ـ وصية أُمامة بنت الحارث إلى ابنتها أم إياس (١)

(١) لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كِندة جمالُ أم إياس بنت عوف بن مُحَلِّم الشيباني، وكمالُها، وقوةُ عقلها، دعا امرأةً من كندة يقال لها عِصام ذاتُ عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنةِ عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي أمامةُ بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له، فأرسلت أمامة إلى ابنتها، وقالت: أي بنية، هذه خالتُك أتتك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئاً، إن أرادت النظر من وجه أو خَلْقٍ، وناطقيها إن استنطقتك، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قط مثله، فخرجت من عندها وهي تقول: «تَرك الخِداعَ مَنْ كَشَفَ القناع». (هذا مثل يضرب للأمر يظهر مكنونه).

ثم انطلقت (عصام صاحبة المثل، وهي من أهل اليمن) إلى الحارث، فلما رآها مقبلة، قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قالت: «صرَّحَ المَحضُ عن الزُّبْد». فأرسلتها مثلاً، أقول حقاً، وأخبر صدقاً:

لقد رأيتُ وجْهاً كالمرآة الصِّينيَّة، يزينُه شعر حالك كأذنابِ الخيـلِ المضفَّرة، إنْ أرسلتْه خِلْتَه السلاسلَ، وإنْ مَشَطْتُه دلَّتْ عَناقيدَ كَرْمٍ جَلَاها الوابلُ (المطر الشديد) لها حاجبان، كأنما خُطَّا بقلمٍ، قد تقوّسا على عيْنَي الظبية العَبْهَرة (الحسنة الخلقة) يفتنان المتوسِّم، بينهما أنفٌ كحدِّ السيفِ المصقول، لم يَخْنَسْ: (الخنس في الأنف: انخفاض القصبة، وعرض الأرنبة) بِهِ قِصرٌ، ولمْ يُمْعِن به طولٌ، تَحُفُّ بِهِ وَجْنَتَانِ كالأُرجُوان، في بياضٍ محضٍ كأنّه الجمان (اللؤلؤ) شُقّ فيه فمٌ لذيذ المُبْتَسَم، يفْتَرُّ عن ثنايا غُرٍّ، وأسنانٍ مثل الدُّرّ، ذاتِ أُشُرٍ (أي محززة) فيه لسانٌ، ذو فصاحةٍ وبيانٍ، يحرِّكُه عقـلٌ وافرٌ، وجوابٌ حاضرٌ، تلتقي دونَه شفتان حمراوان كالوردِ، يحلبان ريقاً كالشُّهدِ، نُصب ذلك على عُنق أبيض، كأنّه إبريقِ فِضَة، وصَدر كناثُور (الخوان من رخام أو فضة أو ذهب) اللُّجَيْن، قد نَتَأ فيه ثَدْيان يخرقان عنها ثيابَها، ويمنعانها من تَقَلُّدِ سِخابِها (قلادة تتخذ من قرنفل وغيره) مُكِّنَتْ منه عَضُدان مُدْمَجتان، مُكْتَنِزَتانِ شَحْماً، يَتَّصِلُ بهمـا ذِراعان، مـا فيهما عَـظْمٌ يمسُّ، ولاَ عِرْقٌ يُجَسُّ، وكفَّـانِ دقيقٌ قصبُهُما، ليِّن عَصَبُهما، بأسفلَ من ذلك بطنٌ طُوِيَ كطيِّ القباطي (ثياب بيض من كتان، تنسب إلى أقباط مصر) وكُسِيَ عُكَناً (جمع عُكنة وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً) كالقراطيس المُدْرجة، يحيط بسُرَّةٍ كمُدْهُن العاج (أي قارورة الدهن) لها ظهرٌ فيه كالجدول، ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا لُطْفُ رَبِّي لانبتَرَ تحته =

لمـّا حانَ أن تُحمَل أم إياس إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة[1]، دخلت عليها أُمُّها لتوصِّيها، فقالت:

أَيْ بُنَيَّةُ: إنْ الوصيَّةَ لَوْ تُركَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ، تُرِكَتْ لذلكَ مِنْكِ، ولكنّها تَذْكِرَةٌ لِلْغافِلِ، وَمَعْونَةٌ للعاقلِ، ولوْ أَنَّ امرأَةً استَغْنَتْ عنِ الزوجِ لِغِنَى أَبَوَيْهَا وَشِدَّة حَاجَتِهما إليها، كُنْتِ أَغْنَى النَّاسِ عَنْهُ، ولكنّ النساءَ للرِّجالِ خُلِقْن، ولهنّ خُلِقَ الرِّجالُ، أي بُنَيَّةُ: إنَّكِ فارَقْتِ الجوّ الذي مِنْهُ خَرجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تَعْرفِيهِ، وَقَرِينٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ، فَأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكِ رَقيباً وَمَلِيكاً، فَكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَك عَبْداً وَشِيكاً.

يا بُنَيَّةُ: احْمِلِي عنِّي عَشْرَ خِصَالٍ تَكُنْ لَكِ ذُخْراً وَذِكْراً: الصُّحْبَةُ بالقَنَاعَـةِ والمُعَاشَرَةُ بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، والتَّعَهُّدُ لِمَوْقِعِ عَيْنِه، والتَّفَقُّدُ لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ، فَلا تَقَعُ عَينُه مِنْكِ على قبيحٍ، وَلَا يَشمُّ أنفه مِنْكِ إلاّ أطيبَ رِيحٍ، والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ الموجود، والمَاءُ أَطْيَبُ الطِّيب المَفْقُودِ، والتَّعَهُّدُ لِوَقْتِ طَعَامِهِ، والهُدُوُّ عَنْهُ عِنْدَ مَنَامِهِ، فإنَ حَرَارَةَ الجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وَتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ، والاحْتِفَاظُ بِبَيْتِهِ ومَالِهِ، والإِرْعاءُ على نَفْسِهِ وحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ، فإنَّ الاحْتِفاظَ بالمَالِ حُسْنُ التَّقْـدِيرِ، والإِرْعـاءَ عَلى العِيَالِ والحَشَمِ حُسْنُ التَّدْبِيرِ. ولاَ تُفْشِي لَهُ سِرّاً، وَلاَ تَعْصِي لَهُ أَمْراً، فإنَّكِ إنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ، وَإنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ أَوْغَرْتِ[2] صَدْرَهُ، ثُمّ اتَّقِي مَعَ ذلكَ الفَرَحَ إنْ كانَ

---

= كَفَلٌ (عجز) يُقْعِدُها إذا نهضتْ، وينهضُها إذا قعدت، كأنه دعْص (ما اجتمع من الرمل) من الرمل، لبَّده سقوطُ الطَّلِّ، أسفلَ من ذلك فخذان لفّاوان: (اللفاء: ضخمة الفخذ) كأنهما نصبتا على نَضَدِ عِقيان، متصل بهما ساقان بيضاوان خدَلّجتان (ممتلئتان) قد وُشِّيَا بِشَعْرٍ أسود، كأنّه حَلَقُ الزَّرَد: تحمل ذلك كلَّهُ قدمان كَحَرْفِ اللِّسانِ، تبارك الله مع لطافتهما كيف يُطيقان حَمْلَ ما فوقَهما، فأما ما سوى ذلك، فإني تركت نعته ووصفه لوقتِه، إلاّ أنّه كأكْملِ وأحسنِ وأجملِ ما وُصف في شعرٍ وقولٍ.

قيل: فبعث إلى أبيها فخطبها، فزوَّجه إيّاها. قيل: فبعث إليها من الصَّداق بمثل مهور نساء الملوك. مائة ألف درهم، وألفا من الإبل، فلمّا حان أن تُحمـل إليه دخلت إليهـا أمُّها لتـوصّيها. (العقـد الفريـد ٧/١١٩ - ١٢٠. ومجمع الأمثال ٢/٢٦٢ - ٢٦٣ رقم ٣٧٥٩. وجمهرة الأمثال ١/٥٦٩ - ٥٧١. رقم ١٠٧٣).

(١) الحارث: هو جدّ امرىء القيس. ويقول صاحب العقد الفريد (٧/٨٩): الذي خطب أم إياس: هـو عمرو بن حُجر. وولدت له الحارث جد امرىء القيس الشاعر.

(٢) وغر صدره على فلان: توقّد عليه من الغيظ.

تَرِحاً، والاكْتِئابَ عِنْدَهُ إنْ كَانَ فَرِحاً، فإنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصِيرِ، والثَّانِيَةَ مِنَ التَّكْدِيرِ، وكُونِي أَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ إعْظاماً، يَكُنْ أشدَّ مَا يَكُونُ لَكِ إكْراماً، وأَشدَّ مَا تَكونِينَ لهُ مُوافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ ما تكونينَ لَهُ مُرافقةً، واعلمي أَنَّكِ لَا تَصِلِينَ إلَى مَا تُحِبِّينَ حَتَّى تُؤْثِري: رِضاهُ عَلَى رِضاكِ وَهَوَاهُ عَلَى هَوَاكِ، فيما أَحْبَبْتِ وَكَرِهْتِ، والله يخيرُ لَكِ[1].

## الفكرة العامة:

هي مجموعة من الوصايا صادرة عن أم لابنتها قبل زواجها، تبيّن فيها خلاصة تجاربها وخبراتها الزوجية والحياتية من أجل خلق جوٍّ أسري يقوم على الحب والوئام، والتفاهم والترابط، والصفاء والنقاء، والإخلاص والطاعة.

وتنبع أهمية هذه الوصية من كونها منبعثة من امرأة لامرأة ـ وليس من رجل لامرأة أو العكس ـ عركتها الأيام، وحنكتها السنون، وعاشت التجربة، وخاضت معترك الحياة، فخرجت بحصيلة كبيرة، وخبرة عميقة، كل ذلك اختمر في أعماقها، فترسب منه ما ترسب، واستخرجت صفوته لابنتها؛ لتكون زوجة مثالية.

## المضمون:

تخاطب أمامة ابنتها قبيل زفافها إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة، فتقول لها: يا بنيتي! وهذا تصغير يراد به التحبب والتدلل: إنني إذْ أوصيك في آخر ساعةٍ أجد نفسي فيها مسؤولةً عنك، قبل أن تغادري عشك، لا أوصيك لحاجةٍ منك إلى هذه الوصية؛ لقلّة معرفةٍ، أو عدم خبرةٍ، أو ضعف شخصيةٍ، وإنما الوصية لك بشكلٍ خاص تذكرةٌ ومعونةٌ، وبالنسبة لي واجب أحبّ أن أؤديه لأشعر بارتياح ضميري، وراحة نفسي، أنا الأمُّ الحانية؛ التي تَشْعُرُ بأنَّ نسخة جديدة منها، وجوهرة فريدة تغادر عقدها، ولؤلؤة

---

(١) ورد هذا النص في مجمع الأمثال ٢/٢٦٢ ـ ٢٦٣ (رقم ٣٧٥٩). وورد أيضاً مع اختلاف في الرواية في: جمهرة الأمثال ١/٥٧١ ـ ٥٧٢ (رقم ١٠٧٤). والعقد الفريد ٧/٨٩ ـ ٩٠. وورد بعد ذلك: فحملت، وسلِّمت إليه، فَعَظُم موقعها منه، وولدت له من الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

تُسحب من سمطها، ستمرّ بتجربة كنت مررت بها فيما مضى من حياتي، وما زلتُ أذكر لها رهبتَها وهيبتها، حلوها ومرها، وأنت يا بنيتي جـزءُ نفسي، وفِلْذَةُ كبدي، لذلك كلِّه وجدتُ لزاماً عليّ أن ألخصَ لك تجربتي هذه، وأضع صفوة خبرتي بين يديك، وأخصَّـكِ بمكنون الفؤاد، قبل أن تغـادري البلاد، إلى ملك جـواد، عرف بالسيادة والرشاد. فآستمعي إليَّ بقلبك وعقلك وجميع جوارحك تماماً مثل ما أقولُ من قلبي وعقلي وجميع جوارحي، ولو أن امرأةً استغنت عن الزواج لكنتِ أنتِ أغنى الناسِ عنه، لكنَّ النساء يا بنيتي للرجال خلقن، ولهنّ خُلِقَ الرجالُ، بعد قليل بنيتي الحبيبة ستفارقين الجو الذي عِشْتِ بِهِ قريبةً من أهلك، وستخلفين وراءك العشَّ الذي فيه ترعرعتِ ورأت عيناك فيه نور الحياة.

أجل، ستفارقين هذا الجو الذي ألفته إلى وَكْرٍ لم تعرفي ما فيه، وستعيشين مع قرين ما كنت مِنْ قبلُ تألفينه، وهو قوّام عليك، ومليكٌ ورقيبٌ، فإن تكوني له طائعةً ملبيةً قانعةً يكن لك محبّاً صادقاً، وحارساً أميناً، وخادماً مطيعاً، وزوجاً مخلصاً، ورفيقاً ودوداً، فكوني له أمة يكن لك عبداً.

يا بنيتي: إني أحمِّلُك خصالاً عَشْراً، أرجو أن تكون لكِ نوراً تهتـدين به، وسنداً تركنين إليه، وكنزاً تعودين إليه، وأتمنى أن تكون لك ذخراً وذكراً:

١ ـ (الصحبةُ له بالقناعة والمعاشرة له بحسن السمع والطاعة): فبمجرد دخولِكِ بيته أصبحت زوجةً له، وتوجَّب عليك أن تقنعي حسّاً ومعنىً بكل ما تجدينَه وتحسِّينَ به؛ لأنَّ هذا هو قدرُكِ ونصيبُك من الحياة، ولتكن مُعَاشرتُك بحسن السمع والطاعة؛ لتبرهني على صدقك بالقناعة.

٢ ـ (التعهد لموقع عينه): بحيث لا يرى منك إلا كلَّ مبهجٍ وجميل: في مظهرِكِ في مخبرِكِ في ثيابك في مطبخك في كل شؤون بيتك وفي جميع حركاتك وسكناتك.

٣ ـ (التفقد لموضع أنفه): فلا يَشَمُّ منك إلاّ أطيبَ ريحٍ، ولا تنسي أن بيتك منك، في جزئياته وكلِّياته، فهو مشمول بتفقدِكِ لموضع أنفِهِ، وموضع عينه، وتركّز أمامـة على الكحل بأنه أحسن الحسن من حيث موقعُ عينه، والماء أطيب الطيب

من حيث موقعُ أنفه. وقد تعلق العرب منذ القديم بالطيب فقد قال امرؤ القيس: (من الطويل)

إذا قــامتــا تضــوعَ المســكُ منهمــا نسيم الصَّبا جاءت بـريّـا القَـرَنْفُـل[1]

وقال:

ويضحي فتيتُ المسـكِ فـوق فراشهـا نؤومُ الضحى، لم تنتطقْ، عن تفضُلِ[2]

وورد في الحديث: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب»[3].

وأما في الكحل فنجد كعب بن زهير يقول: (من البسيط)

ومــا سعــادُ غــداة البـين إذ رحـلوا إلاّ أغَنُّ غضيضُ الـطرفِ مكحـولُ[4]

فكيف إذا اجتمعا معاً فيها: الطيب والكحل؟

٤ ـ (التعهد لوقت طعامه): فإن حرارة الجوع ملهبةٌ، والـرجل الـذي يحمي بيته، ويكافح من أجل ذلك سَحَابَةَ نهاره يحبُّ أن يعودَ إلى بيته، فيجدَ طعامَه معدّاً على الشكل الذي يرغب فيه مهيئاً على الطريقة التي تستهويه.

٥ ـ (الهدوء عند منامه): والرجل طاقةٌ جعل الله له البيتَ سكناً وراحةً، فإذا تَعِبَ من كَدِّ نهارِه لجأ إليه ليجد فيه راحتَه وطمأنينتَه. فالنوم إنما جعـل لترتـاح به الأبدانُ، وتهدأَ به الجوارحُ، فتستعـيد قوّتها ونشاطها لتعودَ إلى الدأبِ والكفاح، فإذا حرم الرجلِ لذَّةَ النوم العميق انقلبَ إلى إنسان ثـائر، إضــطرب مزاجـه، وتبدّلت صفاتُه، فإنَّ حرارة الجوع ملهبةٌ، وتنغيص النوم مغضبةٌ، وقد صدقت فــي ذلـك أمامة.

٦ ـ (الاحتفاظ ببيته وماله): هذه هي الأمانة التي وصفها ربُّ العالمين فيما بعد

---

(١) من معلقة امرىء القيس. انظر: شرح القصائد العشر، ص ٣١. وشرح القصائد السبع الطوال، ص ٢٩.

(٢) من معلقة امرىء القيس. انظر: شرح القصائد العشر، ص ٦١. وشرح القصائد السبع الطوال، ص ٦٥.

(٣) انظر: الحديث في فيض القدير ٣/ ٣٧٠ ورقمه (٣٦٦٩) وتكملته: (وجعلت قرّةُ عيني في الصلاة).

(٤) انظر: البيت في شرح ديوان كعب بن زهير، ص ٦. وجمهرة أشعار العرب، ص ٦٣٢. ومنح المدح، ص ٢٥٧.

بقوله: ﴿إنّا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يحمِلْنها وأشفقْنَ منها وحَمَلَهَا الإنسانُ إنَّه كانَ ظلوماً جَهُولاً﴾[1]، وفي الفقه الإسلامي لا يجوز لامرأة أن تتصرف بمال زوجها إلا بإذنه حتّى لأقرب الناس إليها أمها وأبيها. وإنّ تثميرَ مالِهِ هو حسنُ تقدير الزوجةِ، وَوَفْرَةُ عَقْلِها، وعمقُ نظرتها، حيث إن غنى الزوج غناها، وفقره فقرها، وهو مستقبلها ومستقبل أولادها.

٧ - (الإرعاءُ على نفسِهِ وحَشَمِه وعيالـه): لأنّ الإرعاء على العيـال والحشم حسن تدبير. في الحقيقة إن العناية به وبأولاده وحشمه وكلٍّ ما يمتُّ إليه بصلةٍ غايةُ العقل ومنتهى المحبة.

٨ - (ولا تفشي له سراً) ما بين الزوجين أشياءُ لا يعلمها إلاّ خالقُها سواءٌ كانت أسراراً خاصةً أو أسراراً عامةً ولا يجوز لك يا بنيتي أن تكشفي هذه الأسرار خاصّها أو عامها، صغيرها أو كبيرها، فإذا كشفت منها شيئاً فتهيئي لغضبه وغدره، ولا تلومي في ذلك إلا نفسك؛ لأنك فعلتِ ما لا تقدّرين نتائجه، ولا تدرين عواقبَه.

٩ - (ولا تعصـي له أمراً) الرجال قوّامون على النساءِ، والرجل لا يشعر برجولته كاملةً إلاّ إذا كانت أوامره في بيته في عشّه في مملكته الصغيرة هي النافـذة، وهو المطاع، صغيراً كان هذا الأمر أو كبيراً، حقيراً كان أو عظيماً، فالرجل يريد، ويجب أن ينفّذ ما يريد؛ لأنه صاحب هذه المملكة الصغيرة، وهو رائدُها وبانيها وحاميها.

وإنك إن عَصَيْتِ له أمراً أوغرت صدره فتوقّد غيظاً، واستشاط غضباً، وكان ذلك كلّه منك وإليك.

١٠ - (اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحاً. . . .) وإنَّ من نجاح التجربة الزوجية أن تفرحي لفرحه، وتحزني لألمه، وأن تكونَ سعادتُه سعادَتَك، كمايكون ألمه أَلَمكِ وحُزْنَكِ، وليس أشدَّ على النفس من أن يرى الرجلُ زوجتَه كئيبةً حزينةً، وهو في حالةٍ من السرور والسعادة، إلاّ موقفاً أقبحَ وأشنعَ، وأرهب وأقذع، وهو أن يكونَ في حالةِ تعاسةٍ وكآبة، فتبدوَ أَمَامَهُ فرحةً مبتهجةً كأنها تَشْمَتُ بما أَصَابَه من سوءٍ وضرّاء.

---

(١) الأحزاب ٧٢.

وتنتهي وصيَّتها بملحقاتٍ ثلاثة:

أ ـ تقول في الأولى: (كوني أشدَّ ما تكونين له إعظاماً، يكن أشد ما يكون لك إكراماً) إذا عرفت كيف تعظّمينه يعرف كيف يكرِمُكِ ويقدِّرُك؛ فإن صدقَ المحبّةِ تقتضي غايـةَ الإعظامِ لـه وغايـةُ الإعظام له لا يقابلها إلاّ بشدةِ الإكرامِ لك، بحيث تكون الثقـةُ هي رائدُ الحيـاةِ الزوجية، والمحبةُ المتبادلةُ مظهرُها ومخبرها.

ب ـ وتقول في الثانية: (وأشدَّ ما تكونين له موافقة، يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة): وبقدر موافقتك له، وحسنِ معاملتِك، وطيبِ استجـابتك بقـدر ما تكـون مرافقتك أطولَ وأدومَ.

جـ ـ وتقول في الأخيرة: (واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثـري رضاه على رضاك. . .) وإنني يا بنيةُ أختمُ وصيتي هذه بأنـك لن تعيشي السعادةَ، وتذوقي الهناءَة، إلاّ إذا آثرتِ رضاه على رضاك، وفضّلتِ هواه على هواك في جميع أحوالك؛ لأنَّ الزوج سريع الغضب، سريـع التأثـر، وهو في الـوقت ذاته، سـريع الرضى، سريع المغفرة، ترشّدي وتنكّبي الطريق الصحيح، والنهج القويم، فـإني أسأل الله أن يختار لك كلَّ خير.

## الأسلوب:

كان أسلوبُ أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها أم إيـاس في ليلة زفافهـا أسلوبَ السهل الممتنع، المركز المصقول؛ الذي تكاد تختفي فيه الصنعة البلاغية؛ لفرط صَقْلِهِ ووفرة التركيز فيه. وقد ارتكز في أكثر عباراته على الأسلوب الإنشائي في جمل متقطعة متوازنة في جمال اللفظ وحسن التقسيم من أمر ونداء واستفهام وتقرير حال، كقولها: (أي بنية ـ ويا بنية) أسلوب نداء، وقولها: (إحملي عني) و (اتقي مع ذلك) و (كوني أشدَّ ما تكونين) و (اعلمي أنك) أسلوب أمر. وقولها: (فلا تقع عينه) و (لا يَشَمُّ منك) و (لا تفشي له سراً) و (لا تعصي له أمراً) أسلوب نهي. أما قولها: (الصحبة بالقناعة والمعاشرة) و (التعهد) و (التفقد) و (التعهد) مرة ثانية، و( الهدو) و (الاحتفاظ) و (الإرعاء) إلى ما هنالك من المصادر التي حلت محلّ أفعالها التي تحمل صفة الأمر، كأن تقـول: صاحبيـه الصحبة، وعـاشريـه المعاشـرة، وتعهديه

التعهد... الخ كلها أساليب إنشائية خرجت إلى معانٍ بلاغية موجزة خرجت إلى النصح والإرشاد وإغناء التجربة. وهذه المصادر بالرفع أخبارٌ لمبتدأات محذوفة تقدّر حسب مواقعها ومعانيها... فالصحبة مثلاً: خبر لمبتدأ محذوف تقديره الخصلةُ الأولى الصحبة، والخصلة الثانية المعاشرة والثالثة التعهد والرابعة التفقد وهكذا... أو أن تكون هذه المصادر منصوبةً على أنها مفعول مطلق لأفعال محذوفة تقديرها: صاحبيه الصحبة، وعاشريه المعاشرة، وتعهديه المعاهدة... الخ.

ولقد كانت الأساليب البلاغية زينة للنصِّ، وجمالاً أخّاذاً؛ لأنها لم ترتكز على الصنعة البلاغية بل جاءت عفْوية غير متكلفة.

انظر حسن التقسيم في قولها: (ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل)، وانظر المقابلة في قولها: (النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال) وكذلك في قولها: (كوني له أَمةً يكن لك عبداً).

أما السجع فهو سرّ جمال الأسلوب في عفْويته، وعدم ظهور أثر الصنعة فيه، كقولها: (الصحبة بالقناعة وحسن السمع والطاعة) وكذلك في (لوقت طعامه وعند منامه) و (ملهبة ومغضبة) و (لا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً) و (قبيح وريح) حتى نهاية النص بعبارات سهلةٍ واضحةٍ ميسّرةٍ إلى درجة الإرصاد[1]، ولا يبدو فيها أثر لصنعة، ولا تَعَمُّدٌ لتكلف.

وأما الموازنة فهي تسير في جملِ الوصية سريان ماء الورد في الورد، أولست تجد مصداق ذلك في قولها: (حتّى تُؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك... أحببت أو كرهت) وكذلك (إن أفشيت سرّه لم تأمني غدره) فقد ضمنت جمال المعنى إلى جمال اللفظ وحسن التقسيم.

ونجد الجناس في مثل قولها: (مرافقة وموافقة) و (ذخراً وذكراً). والطباقات في مثل قوله: (غافل وعاقل) و (الرجال والنساء) و (فرح وترح) و (أحببت وكرهت) و (العش والوكر) و (الموجود والمفقود).

---

(١) الإرصاد: ما دلّ أوله على معرفة آخره.

ونتنقل من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية إلى الصور البلاغية؛ التي نلاحظ بعضها فيما يلي: الاستعارة في: (الجو الذي منه خرجتِ) و (العش الذي فيه درجتِ) و (الوكر) و (مليكاً) حيث شبهت قوامته على ابنتها بالملك الذي يهيمن أو يسيطر، و (أمة) و (عبد). أما الكناية فنجدها في قولها: (التعهد لموقع عينه) كناية عن كل ما يراه، و (موضع أنفه) كناية عن كل الذي يشَمه، و (الماء أطيب الطيب) كناية عن الطهارة والنظافة والاغتسال.

وفي قولها: «مرافقة» تلمح إلى أن المصاهرة أقل درجة من النسب والقرابة، فتصفها بالمرافقة؛ التي لا تدوم؛ لأنها عرضة للفراق في كل لحظة، بينما النسب وشيجة لا تحتمل الفراق لتظل ابنتها حذرة من وقوعه طيلة حياتها الزوجية.

وقد حاز اللّف والنشر المرتب على مكان في هذه الوصية وهو من أجمل أنواع البديع، لننظر ذلك في قولها: (فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة) بعد الإجمال في قولها: (التعهد لوقت طعامه، والهدو عند منامه). وكذلك في قولها: (لا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أو غرت صدره). ويتكرر هذا اللف والنشر المرتب في قولها: (ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترِحاً والاكتئاب إن كان فرِحاً) ثم تفصّل فتقول: فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير...

**العاطفة والخيال:**

نوع العاطفة إشفاق وحنان أمومة، وهي صادقةٌ عميقة إلى درجة أنها بلغت مبلغ الحكمة والمثل السائر، وطبيعي بعد ذلك أن تكون مؤثرةً لفرط صدقها وواقعيتها التي لم تترك مجالاً للخيال، فقد استطاعت أمامة بنت الحارث أن تنقل إلينا صدق عاطفتها،وفرط تأثرها، وحرارة صدقها، مما جعل هذه الوصية تندرج على كل فتاة مُقْدِمة على دخول قفصها الذهبي، وتحقّق رغبات كلِّ أمٍّ صادقة في عواطفها مع ابنتها التي تقدم على الزواج.

**كلمة ختام:**

لعل من أبرز ما خلّد هذه الوصية أنها وردت من أم حكيمة بليغة صادقة إلى أعز

ما تملك، ابنتها، فكان وقعها عميقاً مؤثراً يهزّ المشاعر ويأخذ بمجامع القلوب، فما خرج من القلب يقع في القلب، وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان، وذلك لأنها وصية أم عبرت عن واقعها، ونقلت تجربتها إلى أعزّ إنسانة لديها، ولو صدرت هذه الوصية عن أي شخص آخر لما كان لها هذا الوقع، ولا ذلك التأثير. . .

## تعليق على الوصايا:

من خلال دراستنا لنماذج عن وصايا العصر الجاهلي، نلاحظ أنها تمثل حياة الإنسان البدوي في العصر الجاهلي، وأصالته العربية؛ التي تقوم على مكارم الأخلاق، والعفة، وحسن الجوار، والتواضع، والكرم، وإغاثة الصريخ، ومناصرة الضعيف، والتحلي بالصبر، وصلةِ الرحم، والحفاظ على الروابط الأسرية، واحترام الحياة الزوجية.

وتمثل الوصايا الجانب الإيجابي ـ في كل عصر من العصور ـ عند أية أمة من الأمم، ولا نظن أنها بلغت مثلما بلغته عند الإنسان العربي في الجاهلية، تلك الوصايا النبيلة؛التي تعتبر دليلاً شامخاً على أخلاق هذه الأمة، وبرهاناً ساطعاً، وشعلة منيرة، وعَلَماً ثابتاً، وعِلْماً راسخاً. ولم يكن ذلك الإنسان حريصاً على توريث المال بقدر حرصه على توريث القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، والسير الشريفة، فقد ابتعد عن زخارف الحياة بكل معانيها، وأنف من لذائذ الدنيا بكل تصاريفها، وكان هدفها توجيه الحياة إلى الكمال والأفضل؛ لذلك كله نهج الأبناء نَهْجَهُمْ، وأخذوا عنهم، وتنكبوا سيرتهم، واهتدوا بهديهم، وتمسكوا بسننهم.

إن هذه الوصايا بحق صفحة مشرقة من صحفات تاريخ العرب قبل الإسلام خلّدها هؤلاء الخطباء الشعراء.

ونلاحظ في هذه الوصايا أنها اعتمدت الأسلوب الموجز المركز، الذي لا مجال فيه للحشو والإطناب؛ لأنه يعتمد الحكمة وضرب المثل، كأنه أشبه بالتوقيعات المتلاحقة المتتابعة، فجاءت قوية في معناها، متينة في مبناها، سهلة مطبوعة، واضحة غير متكلفة، تعكس عقلية العربي في ذلك الوقت، بدقة تصويرها، وعمق

دلالتها، وقد جاء فيها السجع مقبولاً غير ممجوج، تطلبه العبارة، ويفرضه الأسلوب، ويحتاجه اللفظ.

ويستشف من الوصايا أنها توظف الحكمة والمثل، وتقوم على سرد الحقائق من خلال التجارب؛التي مرّ بها الموصي، وذلك لتحقيق ضمان تأثير الوصية على الموصى إليه، ولكنها تختلف عن الحكمة والمثل من حيث الطول والقصر والإيجاز والشيوع والبلاغة والبيان، ولكنها أشمل منهما، لأنها تحتوي عليهما.

وتعتبر الوصايا ضرباً من ضروب الخطابة إلا أنها تختلف عنها، كما تختلف مع سجع الكهان، في أهدافها وأغراضها، وَجمهورها، وزمانها، ومكانها.

وباختصار نقول: إن الوصايا أقل شيوعاً من الحكمة والمثل، والخطابة أعم من الوصايا من حيث الجمهور، وتكاد تتساوى مع قول الكهان من حيث صدورها واختصاصها بالمتلقي.

# الفصل الرابع

# الرسائل

# الرسائل

تعتبر الرسائل ضرباً من ضروب النثر، وإذا كانت الخطابة عمادها اللسان، فإن عماد الرسائل القلم. ولم يكن العرب في الجاهلية من أرباب الكتابة، ولكنهم عرفوها، ولم يستخدموها بالمعنى الذي نفهمه؛ لأننا لم نقع على رسالة أدبية واحدة نطمئن إلى صحتها، ذلك أن العرب لم يتركوا دليلاً مادياً مدوناً سواء كان تاريخياً أو أدبياً، يقول الدكتور شوقي ضيف: «وما من ريب في أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي، ولكن هذه المعرفة شيء وأن العرب أحدثوا بها آثاراً فنية مكتوبة شيءٌ آخر. هم عرفوها، ولكنها معرفة محدودة، فلم يكتبوا بها كتباً ولا قصصاً ولا رسائل أدبية، وإنما كتبوا بها بعض أغراض تجارية وأخرى سياسية. . . . لكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية»[1]. وإذا كان الدكتور طه حسين يشكك في وجود النثر الفني في العصر الجاهلي[2]، فإنه بلا شك يرفض الرسائل التي وردت في بعض المصادر[3] منسوبة إلى أصحابها في ذلك العصر، وقد قام الأستاذ أحمد زكي صفوت بجمع كل ما عرف من رسائل تنتمي إلى العصر الجاهلي، وذكر في مقدمتها: «أن جمهرة العرب في ذلك العصر كانت مُتَبدِّية، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية، ولذا كانوا يعتمدون في تراسلهم على المشافهة، فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتخبونهم لإبلاغها، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية، فيستظهرونها في الصدور، ويتناقلونها على الألسن،

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ١٩.

(٢) انظر: من حديث الشعر والنثر، ص ٢٤ وما بعدها. وفي الأدب الجاهلي، ص ٣٢٧ وما بعدها.

(٣) انظر: جمهرة رسائل العرب والمصادر التي وردت فيه ١/٩ ـ ٣٠.

ولم يزاولوا من العلوم والفنون ما يقضي عليهم أن يدوِّنوه، ويقيدوه في سجل يدرأ عنه عاديةَ الضياع والامِّحاء»[1].

وقضية الرسائل قضية لا يمكن قبولها على علاتها لمجرد ورود بعضها في المصادر التي لم تهتم بتوثيقها، ولا يمكن رفضها رفضاً قاطعاً؛لعدم وجود الدليل المادي، ولذلك كلّه فإني لا أطمئن لصحة مثل هذا الفن الأدبي المتطور، الذي يعتمد على التقدم الفكري والحضاري، لعدم إقامة ما يثبت هذه القضية بالحجة والبراهين، ولعدم اهتمام الرواة بها، إلى جانب إهمال المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية وغيرها لها، في حين نجد تلك الكتب قد اهتمت اهتماماً كبيراً بالشعر؛ الذي لم يصلنا مكتوباً أيضاً، والممعن في مصادر الأدب الجاهلي يجد حقيقة ما ذهبنا إليه.

وعلى أية حال، فإنني سأدون بعض ما نسب إلى العصر الجاهلي من هذه الرسائل، معتذراً عن دراستها وتحليلها؛ لأنها لا تختلف كثيراً عما قمنا بدراسته في الخطب والوصايا، والدليل على ذلك، تلك الوصية المنسوبة إلى أكثم بن صيفي، والتي كتبها إلى طيء، فقد آثرنا إثباتها في باب الوصايا، وقمنا بتحليلها، وهذا لا يمنع من إيراد نماذج من هذه الرسائل لاستكمال هذا الباب من بحثنا:

---

(١) المرجع السابق ١/ ٩.

# ١ ـ كتاب عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين

## والـذي يعرف بـ «صحيفـة المتلمس»

كتب بالرسالة: «باسمك اللهمَّ، من عمرو بن هند إلى المُكَعْبَر. أما بعدُ، فإذا أتاكَ كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه، وادفنه حيّاً»(١).

---

(١) ورد هذا النص في الأغاني ٢٣/٥٤٥. وثمار القلوب، ص ٢١٧. يضرب بهذه الصحيفة المثل لمن يحمل كتاباً فيه حتفه. وكان طرفة بن العبد وخاله جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس ينادمان عمرو بن هند الملك، فبلغه أنهما هجواه، فكتب لهما إلى عامله بالبحرين كتابين أوهمهما أنه أمر لهما فيهما بجوائز، وقد أمر بقتلهما، فخرجا حتى إذا كانا بالنجف إذا هما بغلام من أهل الحيرة، فقال له المتلمس: أتقرأ يا غلام؟ قال نعم، ففك صحيفته ورفعها إليه فإذا فيها (النص أعلاه) فأخذها المتلمس، وقذفها في نهر الحيرة، ثم قال لطرفة: إن في صحيفتك والله ما في صحيفتي، فقال طرفة: كلا، لم يكن ليجترىء علي. ثم أخذ المتلمس نحو الشام فنجا برأسه، وتوجه طرفة نحو البحرين وأوصل الكتاب إلى عاملها، فنفذ الحاكم ما جاء في الكتاب. انظر: ثمار القلوب، ص ٢١٦ ـ ٢١٧. والمعارف، ص ٦٤٨. والأغاني ٢٣/٥٤٠ ـ ٥٤٥.

# ٢ ـ كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى[١]

كتب فيه: «أما بعدُ، فإنَّ الملك ألقى إليَّ من أمرِ العربِ، ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم بما أحببتُ أن يكون منه على علم، ولا يتلجلجُ في نفسه أن أمةً من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها، وحَمَتْ ما يليها بفضل قوّتها، تبلُغها في شيء من الأمور التي يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ أيها الملك رَهْطاً من العرب؛ لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم؛ فليسمع الملك، وليُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، وليُكْرِمْنِي بإكرامهم وتعجيل سَراحهم، وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم[٢].

---

(١) يروي أحمد بن عبد ربه أن النعمان بن المنذر قدم على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثني فارس ولا غيرها، فأخذ كسرى يعدّد مناقب الأمم ومآثرها ومفاخرها، وحين وصل في حديثه إلى العرب، أخذ ينقص من حقهم، ويقلل من أمرهم، فردّ عليه النعمان مفنداً ما ذهب إليه، مبرزاً مكانة العرب، مباهياً بمناقبهم، مظهراً إيجابياتهم.

فلما عاد النعمان إلى الحيرة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى، من تنقص العرب، وتهجين أَمرهم، اتصل ببعض خطباء العرب وفرسانها وشعرائها، وأخبرهم بما حدث بينه وبين كسرى، وقال لهم: الرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره؛ ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدَّثته نفسه، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كل رجل منهم حُلّة، وعَمّمه عمامة، وختّمه بياقوتة، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية وفرس نجيبة، وكتب معهم كتاباً. (نصه أعلاه). انظر: العقد الفريد ١/٢٧٤ ـ ٢٨٠.

(٢) انظر النص في العقد الفريد ١/٢٨٠.

# الفصل الخامس

# الحكم والأمثال

# ١ ـ الحكم

**الحكمة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم**، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، أي عالم. والحُكْمُ والحكمةُ من العِلم[١]. وقد ورد في الحديث الشريف: «. . . وإنَّ من الشعر حِكَماً» ويروى: «لحِكْمَةً»، أي: كلاماً نافعاً يمنع من الجهلِ والسَّفه وينهى عنهما، ويقال: أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها[٢]. **والحكمة: قول بليغ موجز يحاول سنَّ نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، تصاغ في بيت شعر، أو مثل، أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى، ذات دلالات بعيدة[٣]، تؤدي ما يؤديه المثل، إلاّ أنها لم تَشع في الجمهور، ولم تَجْرِ إلاّ بين الخواص، وليس بينها وبين المثل إلاّ الشيوع وحده**، هذا ما يقوله السيوطي[٤]. بمعنى أنها إذا شاعت على الألسن صارت مثلاً.

ونحن نتفق مع هذا القول، ولكنا نقف عند قوله: «وليس بينهما ـ أي: الحكمة ـ وبين المثل إلاّ الشيوع وحده» لنتساءل: كيف نميز بينهما؟ ومن يحدد نسبة هذا الشيوع؟ وهل يتساوى الخاصة والعامة معاً في هذا التحديد؟ هذا ما سنتعرف عليه من خلال دراستنا للحكم والأمثال.

---

(١) لسان العرب، حكم.

(٢) شرح الجامع الصغير ٢/٥٢٤ (رقم ٢٤٥٧ و٢٤٥٨). ولسان العرب، حكم.

(٣) د. يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي ـ خصائصه وفنونه، ص ٤٠٣.

(٤) المزهر ١/٤٨٦.

نعود ونقول: إن الحكمة تصدر عن عقل واعٍ، وتجربة عميقة، وخبرة طويلة[1]، بشكل أدبي فني عميق ـ مزيج من عقل وشعور ـ بلفظ منتقى، وعبارة متينة، وقوة في المعنى، وأسلوب فريد، من أجل المحافظة على البقاء والخلود، ولا بدّ لها أن تعطي عبرة أو موعظة، ويكون هدفها، **توجيه النفس الإنسانية إلى الكمال والأفضل من خلال التجربة والخبرة؛ التي مرّ بها صاحب الحكمة. ومن شروطها أن يسلِّم بها الجميع، ما دام الهدف منها المنفعة والنهي عن الجهل أو الوقوع في الخطأ.**

ولا نشك أنها أكثر الأنواع الأدبية استيعاباً للفنية الجمالية، ذلك أنها مزيج من عقل وشعور، من موضوعية وذاتية، موضوعية في أساس الفكرة، ومنطلقها من الوجود الواقعي المحسوس، وذاتية في إخراجها بالصور، وتلوينها بألوان الخيال والتصور[2]، وخاصة الأشعار منها، وليس لها غرض بعينه، إنما تتناول كل غرض أو مضمون، وكما قلنا: إنها صالحة في كل زمان ومكان. ولا يشترط في الحكمة أن تكون قد صدرت عن حادثة ما، أو مناسبة ما، كما هو الحال بالنسبة إلى المثل، فالحكمة تصدر عن تجربة وخبرة وليس لها قصة. وإذا كنا نرى أن الحكمة تؤدي ما يؤديه المثل، وإذا شاعت، أصبحت مثلاً، فإن المثل، إذا ضاعت مناسبته، أصبح حكمة؛ لأنه لا يشترط معرفة مرسل الحكمة، وزمانها ومكانها. على العكس تماماً من المثل؛ الذي يشترط فيه المشابهة. ويمكننا القول: إن الحكمة الصادرة دون ارتباطها بحادثة ما في بداية الأمر، ثم شاعت وارتبطت بأمر ما، وأصبحت تطلق في حوادث مشابهة فإنها تجاوزاً تسمى مثلاً.

والمتتبع لأخبار حكماء العرب، يجد أن المصادر الأدبية والتاريخية قد سجَّلت حِكَمَهم، وخلَّدت ذِكْرَهم، فهذا صاحب البيان والتبيين، يذكر مجموعة من الحكماء القدماء أمثال: لقمان بن عاد، ولُقيم بن لقمان، ومجاشع بن دارم، وسَلِيط بن كعب بن يربوع، ولؤي بن غالب، وقُس بن ساعدة، وقُصي بن كلاب، وأكثم بن

---

(١) قد تصدر الحكمة عن عامة الناس. هناك قول شائع يقول: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين»، أي: قد تصدر الحكمة عن مجنون.

(٢) د. ميشال عاصي، الفن والأدب، ص ١١٤. والمعجم المفصل في اللغة والأدب ٢/٧٤٥.

صَيْفيّ، وربيعة بن حُذار، وهَرِم بن قطبة، وعامر بن الظَّرِب[1]. وكذلك الدارس لأشعار الجاهليين يجد بعض الأبيات الحكمية المتناثرة في القصائد... وسنحاول عرض مجموعة من الحكم النثرية والشعرية؛ لنتعرف على مضمونها وأهميتها؛ فمن حكمهم النثرية:

«ربَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً»[2]. و«ربَّ ريثٍ يُعْقِبُ فَوْتاً»[3]. و«ربَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمُّكَ»[4]. و«ربَّ ابنِ عمٍّ ليسَ بابن عمٍّ»[5]. و«ربَّ فرحةٍ تَعُودُ تَرْحَةً»[6]. و«ربَّ مَلُوم لا ذنبَ لَهُ»[7]. و«ربَّ قَوْلٍ أَشدُّ مِنْ صَوْلٍ»[8]. و«أزهى مِنْ غُرَابٍ»[9]. و«أَوَّلُ الحزمِ المَشُورَةُ»[10]. و«من طَلَبَ شيئاً وَجدَهُ»[11]. و«مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الحَذِرُ»[12]. و«رِضَا الناس غايةٌ لا تُدْرَكُ»[13]. و«كَلْمُ اللسانِ أَنْكأُ مِنْ كَلْمِ

---

(١) الجاحظ ١/٣٦٥.

(٢) جمهرة الأمثال ١/٤٨٢ رقم ٨٦٢. ومجمع الأمثال ١/٢٩٤ رقم ١٥٥٥. والعقد الفريد ١/٨٩: «ورب عجلة تعقب ريثا». والريث الإبطاء. والحكمة لأكثم بن صيفي، ويقال للرجل حين يشتد حرصه على الحاجة فيخرَقُ فيها، ويفارق التؤدة في التماسها، فتفوتُه وتسبقُه.

(٣) مجمع الأمثال ١/٣٠٢ رقم ١٥٩٦. والمعنى: أي رُبما أُخّر أمرٌ فيفوت.

(٤) جمهرة الأمثال ١/٤٨١ رقم ٨٦١. ومجمع الأمثال ١/٣٠٢ رقم ١٥٩٥. يعني به الصديق، فإنه ربما أربى في الشفقة على الأخ من الأب والأم.

(٥) مجمع الأمثال ١/٣٠٦ رقم ١٦٣٨. هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون شكاية من الأقارب، أي: رب ابن عم لا ينصرك ولا ينفعك، فيكون كأنه ليس بابن عم، والثاني: أن يريد ربَّ إنسان من الأجانب يهتم ويستحي من خذلانك فهو ابن عم معنى، وإن لم يكن ابن عم نسبا، ومثله في احتمال المعنيين الحكمة السابقة.

(٦) مجمع الأمثال ١/٣٠٤ رقم ١٦٢٢. يعني أن الرجل يولَدُ له الولدُ فيفرح، وعسى أن يعود فرحه إلى ترح لجناية يجنيها أو ركوب أمر فيه هلاكه.

(٧) مجمع الأمثال ١/٣٠٥ رقم ١٦٢٨. والحكمة لأكثم بن صيفي.

(٨) جمهرة الأمثال ١/٤٧٦. رقم ٨٥٢. والصول: الحملة والوثب عند الخصومة والحرب.

(٩) جمهرة الأمثال ١/٥٠٧. رقم ٩٢٠. وهو من الزهو، أي: الكِبْر، وهو أنه إذا مشى يختال.

(١٠) جمهرة الأمثال ١/١٨٧ رقم ٢١٤.

(١١) مجمع الأمثال ٢/٣١٩ رقم ٤١٣٦. والحكمة لعامر بن الظَّرِب.

(١٢) جمهرة الأمثال ٢/٢٧١ رقم ١٦٦٧. والحكمة لأكثم بن صيفي. يقول: إن الحذر لا يدفعُ المقدورَ عن صاحبه.

(١٣) جمهرة الأمثال ١/٤٩٣ رقم ٨٨٢، (برواية لا تُبْلَغُ). ومجمع الأمثال ١/٣٠١ رقم ١٥٨٤. والحكمة =

ٱلْحُسَامِ»[1]. و«من سَلَكَ ٱلجَدَدَ أَمِنَ ٱلعِثَارَ»[2]. و«رأيُ الناصحِ اللبيبِ دليلٌ لا يجُورُ»[3]. و«نفاذُ الرأي في الحربِ أنفذُ من الطَّعنِ والضَّربِ»[4]. ومن حكمهم الشعرية:

ومنْ هـابَ أَسبـابَ ٱلمنـايـا يَنَلْنَـهُ ... ولـو نـالَ أَسبـابَ ٱلسَّمـاءِ بِسُلَّمِ[5]
ومنْ يغتـربْ يحسبْ عـدوّاً صـديقَهُ ... ومنْ لا يكـرِّمْ نفسَـهُ لا يكَـرَّمِ[6]
ومهمـا تكنْ عنـدَ امـرىءٍ من خليقـةٍ ... وإنْ خَالها تَخْفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ[7]
أرى العيشَ كنـزاً نـاقصـاً كـلَّ ليلةٍ ... ومـا تَنْقُصِ الأيامُ والـدهـرُ ينفـدِ[8]
ستبـدي لـك الأيـامُ مـا كنتَ جـاهـلاً ... ويـأتيـكَ بـالأخبـارِ منْ لم تُـزَوِّدِ[9]
وإنْ بـابُ أمـرٍ، عـليـكَ ٱلـتـوى ... فـشـاور لـبـيبـاً، ولا تَـعْـصِـهِ[10]

وشعر الحكمة في العصر الجاهلي كثير، كان الشاعر ـ غالباً ـ ما ينهي قصيدته

---

= لأكثم بن صيفي، ومعناها: إن الرجل لا يَسْلَم من الناس على كل حال، فينبغي أن يستعمل ما يُصلحه، ولا يلتفت إلى قولهم.

(١) جمهرة الأمثال ٢/٢٥٧. الكلم: الجرح. وأنكأ: أشد وأقطع. والحكمة لأكثم بن صيفي.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٢٥٧ رقم ١٦٤٣. والجدد: الأرض المستوية. والحكمة لأكثم بن صيفي.

(٣) جمهرة الأمثال ٢/٢٥٧. والحكمة لأكثم بن صيفي.

(٤) جمهرة الأمثال ٢/٢٥٧. والحكمة لأكثم بن صيفي.

(٥) هذا البيت من معلقة زهير بن أبي سُلمى. والمعنى: ومن خاف أسباب المنايا نالته، ولم يجد عليه خوفه وهيبته، إياها نفعاً ولو رام الصعود إلى السماء فراراً منها. (شرح المعلقات السبع، ص ٧٥).

(٦) هذا البيت من معلقة زهير بن أبي سُلمى. والمعنى: من سافر حسب الأعداء أصدقاء؛ لأنه لم يجربهم، فتوقفه التجارب على ضمائر صدورهم، ومن لم يكرم نفسه بتجنب الدنايا لم يكرمه الناس. (شرح المعلقات السبع، ص ٧٥).

(٧) هذا البيت من معلقة زهير بن أبي سُلمى. والمعنى: إن الأخلاق لا تخفى، والتخلّق لا يبقى. والخلق والخليقة واحد. (شرح المعلقات السبع، ص ٧٦).

(٨) هذا البيت من معلقة طرفة بن العبد. أي: أن ما تنقصه الأيام والدهر ينفد. أي يفنى لا محالة، كذلك العيش صائر إلى النفاد لا محالة. (شرح المعلقات السبع، ص ٥٣).

(٩) هذا البيت من معلقة طرفة بن العبد. أي ستطلعك الأيام على ما تغفل عنه، وسينقل إليك الأخبار من لم تزوده. (شرح المعلقات السبع، ص ٦٠).

(١٠) البيت لطرفة بن العبد اقتطفناه من قصيدة حكمية (إرجع إلى القصيدة في الديوان، ص ٦٤ وما بعدها).

الطويلة به، وكان يريد أن ينقل للسامع خلاصة تجاربه وخبرته وفكره، ومن يرجع إلى قصيدة لبيد في رثار أخيه أربد، يجد فيها النظرة الحكيمة، والفكرة الصائبة، والخبرة الطويلة في الحياة، وهي التي مطلعها:

بَلِينَا ومَا تَبْلَى النجومُ الطوالعُ وتبقى الديارُ بعدَنا والمصانعُ (١)

ولا يفوتنا أن نعطي بعض الأمثلة، وهي عبارة عن أجزاء من أبيات شعرية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على مقدرة الشاعر؛ الذي استطاع أن يضمّن بيته، الذي يقوم على الوحدة العضوية، معنى حكميا يقوم على جزء من هذا البيت. يقول ابن رشيق: سئل حماد الراوية: بأيِّ شيء فُضل النابغة؟ فقال: إن النابغة إنْ تمثّلتَ ببيت من شعره، اكتفيت به، مثل قوله:

حلفتُ، فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ (٢)

بل لو تمثلت بنصف بيت من شعره، اكتفيت به، وهو قوله:

* وليس وراء الله للمرء مذهب *

بل لو تمثلت بربع بيت من شعره، اكتفيت به، وهو قوله:

* أيُّ الرجالِ المهذَّبُ؟ *

وتمام البيت:

ولستَ بمستبق أخاً لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّب؟ (٣)

ويضيف ابن رشيق قائلاً: ألا ترى أنه لو قال: «ولست بمستبق أخا لا تلمُّه» أنه

---

(١) المصانع: المدن والحصون وكل ما عظم بناؤه. انظر القصيدة: الديوان، ص ٨٨ ـ ٩٠.

(٢) الريبة، الشك. والمذهب: المهرب. الديوان، ص ٧٢. والبيت من قصيدة، يمدح بها النعمان، ويعتذر إليه.

(٣) لا تلمه: لا تصلح من أمره وتجمعه. والشعث: الفساد والتفرق. والمهذب: المنقّى من العيوب المخلص. والمعنى: إن لم تصبر للأخ والصديق على فساد يكون منه لم تبق لنفسك أخا، إذ لا يخلو الإنسان من أن تكون فيه خصلة غير مرضية. الديوان، ص ٧٤.

يكون مثلاً كافياً(١). ومن أجزاء الأبيات أيضاً: «أَرْسِلْ حكيماً ولا تُوصِه»(٢). و «مَنْ لا يذدْ عن حوضهِ يُهْدَمْ» (٣). و «البرُّ خير حقيبةِ الرحلِ»(٤). و «الكفرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المنعمِ»(٥). و «الخيرُ يبقى، وإن طالَ الزمانُ بهِ»(٦).

ونختم أمثلتنا بثلاث حكم ضمنها زهير بن أبي سلمى في بيت واحد:

---

(١) العمدة ١/٤٨٢.

(٢) جمهرة الأمثال ١/٩٨ رقم ٨٦. ومجمع الأمثال ١/٣٠٣ رقم ١٦٠٦. وتمام البيت:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا توصه

البيت من قصيدة لطرفة بن العبد، انظر: الديوان، ص ٦٤. وينسب إلى الزبير بن عبد المطلب. انظر: جمهرة الأمثال ١/٩٨. ويقول الميداني: هذا المثل للقمان الحكيم قاله لابنه، ثم يورد حكمة أخرى وينسبها إلى لقمان الحكيم الذي أوصى ابنه: «أرسل حكيماً وأوصه» وهي ضد الأولى. فالأولى: إنه مستغن بحكمته عن الوصية. والثانية: إنه وإن كان حكيماً فإنه يحتاج إلى معرفة غرضِكَ. مجمع الأمثال ١/٣٠٣ رقم ١٦٠٥ و ١٦٠٦.

(٣) مجمع الأمثال ٢/٣١٣ رقم ٤٠٨٠. وهذا مأخوذ من قول زهير بن أبي سُلمى:

وَمَنْ لا يَذُدْ عن حوضِه، بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ، ومنْ لا يظلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

أي من لم يَحْمِ حريمه استبيح حريمه، ومن كفّ عن ظلم الناس ظلمه الناس.

(٤) جمهرة الأمثال ٢/٣٨٢. والديوان، ص ٢٣٨، وتمام البيت:

اللهُ أنجحَ ما طلبتَ بهِ ... والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحلِ

النجح: إدراك الرجل ما يطلبه. والبر: العمل الصالح. والحقيبة: الذخيرة. يقول ابن رشيق في معرض حديثه عن هذا البيت: كل قسيم من هذين الشطرين مثل قائم بنفسه، غير محتاج إلى صاحبه. العمدة ٢/٢٨٣.

(٥) مجمع الأمثال ٢/١٦٢ رقم ٣١٥٧. هذا من بيت لعنترة بن شداد:

نُبِّئْتُ عَمْراً غَيْرَ شاكرِ نعمتي ... والكفرُ مخبثةٌ لنفسِ المنعمِ

أي الكفر مخبثة، أي من أنعمت عليه نعمة فلم ينشرها ولا شكرها فإن ذلك مخبثة لنفس المنعم عليه، ويعني بالكفر: الكُفران. والمخبثة: المفسدة، يعني كفر النعمة يفسد قلب المنعم على المنعم عليه. انظر: الديوان، ص ٢١٤.

(٦) العمدة ١/٤٨٣. وهذا هو الشطر الأول من بيت لعبيد بن الأبرص، وتمامه:

الخير يبقى، وإن طالَ الزمانُ بهِ ... والشرُّ أخبثُ ما أوْعَيْتَ مِنْ زادِ

انظر أيضاً مقدمة ديوانه، ص ١٥.

وفي الحِلْـمِ إدْهانٌ، وفي العفوِ دُرْبَةٌ، وفي الصدق مَنْجَاةٌ مِنَ الشَرِّ فَاصْدُقِ[1]

نلاحظ من خلال عَرْضِنا لبعض الحكم، أَنها جمل رصينة، توفَّر فيها إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، عبَّرت عن تجارب الحكماء وخبراتهم، ورغبتهم في توجيه مجتمعهم إلى الأفضل والأكمل، من هنا جاءت هذه الحكم صالحة لكل أمة، في كل زمان ومكان، غير مقتصرة على مكان وزمان معينين، بدليل أنه يستشهد بالحكمة دون الاهتمام بقائلها، أو العصر الذي قيلت فيه، لأنها أدت وظيفتها ومهمتها، وأوصلت نتاج تجارب الفكر الإنساني والخلقي.

وثمة ملاحظة أخرى، وهي أن الدارس للحكم الصادرة عن عصر معين يواجه صعوبة في تحديد نسبة هذه الحكم لأصحابها، ومن ثُـمَّ لعصرها، إلا من بعضها الذي نسبته المصادر إلى أصحابه وعصوره. وترجع الصعوبة إلى أن الحكمة ـ كما قلنا ـ تعبير يجسد خصالاً وسلوكاً خلقيين، لا يرفضهما أي عصر من العصـور، بل يتمسـك بهما للرقـي بمجتمعـه؛ لأنهما من أسـاس بناء حضـارة متقـدمـة، تتسم بالفضيلة، مع ملاحظة أن هذه الحكم قابلة للتبديل والتغييـر، والتقديم والتـأخير، والتصحيف والتحريف في اللفظ، دون المساس في مضمون وروح هذه الحكم، قد يعود ذلك إلى روح العصر وطبيعته، وتطور الحضارة، وما يرافقها من التطور اللغوي.

---

(١) الديوان، ص ١٧٩. والادهان: المداهنة والمصانعة. والدربة: العادة واللجاجة.
وقد ورد في العمدة ١/٤٨٣ (وفي الحلم إذعان). ويعلق ابن رشيق على هذا البيت بقوله: فيه ثلاثة أمثال، أتى بكل مثل في ربـع بيت، ثم جعل الربع الآخر زيادة في شرح معنى ما قبله.
وقد أورد ابن رشيق بيتاً آخر للنابغة الذبياني يقول فيه:

والـرفـق يُمْـنٌ، والأنـاةُ سَـلاَمَـةٌ فـاْسـتَـأنِ في رفـقٍ تُـلاقِ نـجـاحـا

يقول ابن رشيق: جاء النابغة بثلاثة أمثال، إلا أنها مداخلة لم تسلم سلامة مـا قبلها من كـلام زهير. (العمدة ١/٤٨٤. والديوان، ص ٦٣ برواية: «والأناة سعادةٌ»).

# ٢ ـ الأمثال

المثل مأخوذ من المِثال، وهو: قولٌ سائرٌ يشبَّه به حالُ الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه[١]. يقول ابن السكيت: المَثَلُ: لفظٌ يخالف لفظَ المضروبِ له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبَّهوه بالمثال الذي يُعْمَلُ عليه غيره[٢]. ويرى المرزوقي أن المَثَلَ: جملةٌ من القول مقتضبةٌ من أصلها، أو مرسلةٌ بذاتها، فتتَّسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كلِّ ما يصحّ قصدُه بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضْرب وإنْ جُهِلَت أسبابها التي خُرِّجت عليها[٣].

ونخلص إلى القول: إن تعريف المثل، هو: قول شائع بين الناس يشبهون به حالةً معاصرة بحالة قديمة أطلق فيها هذا المثل.

وقد ذكر ابن رشيق في كتابه «العمدة»: أن أفضل الأمثال أوجزها، وأحكمها أصدقها. وقد تأتي الأمثال الطُوال محكمة إذا تولّاها الفصحاء من الناس، فأما ما كان منها في القرآن الكريم فقد ضُمِّن الإعجاز[٤]، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الذينَ اتَّخذُوا مِنْ دونِ اللهِ أولياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتخذَتْ بيتاً وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥.

(٢) السابق ١/٦.

(٣) المزهر ١/٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(٤) العمدة ١/٤٧٩.

العنكبوت. . .﴾[1]. فهذه من الأمثال القصار[2]. أما من الأمثال الطِّوال[3]، فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَضَرَبَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً مِنْ كلِّ مكانٍ فكفرتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَها الله لِباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانُوا يصنعونَ﴾[4]. ويقول الله تعالى: ﴿يأيُّها الناسُ ضرب مثلٌ فاستمعوا لَهُ. . .﴾[5] ويقول عزّ وجلّ: ﴿ويضربُ الله الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتذكَّرون﴾[6]. ويقول جلّ ذكره: ﴿ولقد ضربنا للنَّاس في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ لعلَّهُم يَتَّقُون﴾[7]. وما أكثر الأمثال التي ضربها الله سبحانه وتعالى للناس، موضحاً منافع هذه الأمثال في متصرَّفاتها، وحسن مواقعها في جهاتها. وحريٌّ بنا أن نذكر قولاً من أقوال الرسول الأعظم صلوات الله عليه: «إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالح وجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَكَ وإما أن تبتاعَ منه، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيباً، ونافخُ الكيرِ إمَا أن يُحْرِق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[8]. ولسنا بصدد تتبع الأمثال في القرآن الكريم، وأقوال الرسول ﷺ، بل نحن بصدد دراسة المثل في العصر الجاهلي.

يقول أبوهلال العسكري: «ولمّا عرفت العرب أنَّ الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جلِّ أساليب القول، أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخفّ استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجلِّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلَّةِ ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤنتها على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها»[9]. ويضيف قائلاً: «ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب،

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤١.
(٢) انظر مثلاً: سورة الأعراف، الآية ١٧٦. وسورة الجمعة، الآية ٥. وسورة البقرة، الآية ٢٦.
(٣) انظر مثلاً: سورة التحريم، الآية ١٠ ـ ١٢.
(٤) سورة النحل، الآية ١١٢.
(٥) سورة الحج، من الآية ٧٣.
(٦) سورة إبراهيم، من الآية ٢٥.
(٧) سورة الزمر، الآية ٢٨.
(٨) يحذيك: يعطيك، مجمع الأمثال ١/٢. انظر الحديث في فيض القدير ٣/٤. رقم (٢٦٠١).
(٩) جمهرة الأمثال ١/٤ ـ ٥.

ولها روعة إذا برزتْ في أثناء الخطاب، والحفظ موكّل بما راع من اللفظ، وندرَ من المعنى»[1].

## شروط استخدام الأمثال:

١ ـ الأمثال لا تُغيّر بل تُجري كما جاءت. وهذا شرط من شروطها، أي: يبقى المثل كما هو عليه في الأصل[2]. ومثال ذلك: «أعطِ القوسَ بارِيها»[3]، تسكَّن ياؤه، وإن كان التحريك الأصل، لوقوع المثل في الأصل على ذلك. ومن هنا استجيز من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يُسْتَجازُ في سائر الكلام[4]. وانظر مثالاً آخر في قولهم: «في الصَّيفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ»[5]، مكسورة التاء، إذا خُوطِب بها المذكر والمؤنث والإثنان والجمع؛ لأن أصل المثل خُوطبت به امرأة[6].

٢ ـ ومن شروط المثل أيضاً أن ترضاه العامة والخاصة، في لفظه ومعناه، يتناقلونه فيما بينهم، ويتفوَّهون به في السّرّاء والضّرَاء، وهو بذلك من أبلغ الحكمة[7]. ويقال: إن الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، تتناول أخلاق

---

(١) السابق ١/٥.

(٢) المزهر ١/٤٨٨.

(٣) أي: استعن على عملك بمن يحسنه، وهو من قول القائل: (من البسيط)

يا باريَ القوسَ بَرْياً لستَ تُحْكِمُهُ ... لا تَظْلِمِ القوسَ، أعطِ القوسَ بارِيها

تلاحظ أن الضرب مقطوع مردف، (والقطع: حذف الحرف الأخير الساكن من الوتد المجموع وتسكين ما قبله، فتصبح فاعلن: فَاعِلْ. والرِّدف: هو أن يكون حرف مدّ أو لين يسبق حرف الروي) وإذا حركنا الياء في باريها كسرنا وزن البيت. انظر: جمهرة الأمثال ١/٥٨ رقم ٥٩. وكتابنا: الشافي في العروض والقوافي، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٤) المزهر ١/٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٥) المرأة التي خوطبت هي دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عُدس، وكان شيخاً كبيراً، ففركته (أي: كرهته) فطلّقها،ثم تزوجها فتى جميل الوجه، وَأَجْدَبَتْ، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حَلُوبة، فقال عمرو هذا المثال؛ وهو يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوّته على نفسه. وإنّما خصّ الصيف لأن سؤالها الطّلاق كان في الصيف. انظر: مجمع الأمثال ٢/٦٨ رقم ٢٧٢٥.

(٦) مجمع الأمثال ٢/٦٨. والمزهر ١/٤٨٨.

(٧) المزهر ١/٤٨٦.

الأمة، وتفكيرها، وعقليتها، وعاداتها، وحضارتها، وتقدمها، وبالأمثال كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاوَلَتْ من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال: **إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه**، وقد ضربها النبي ﷺ، وتمثَّل بها هو ومن بعده من السلف[1].

٣ ـ ويقال: إنَّ المثلَ يجتمع فيه أربعة أمور لا تجتمع في غيره من الكلام: **إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْن التشبيه، وجودة الكناية**، فهو نهاية البلاغة[2].

٤ ـ ويقول صاحب العقد الفريد: المثل أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أسير من مثل[3]، أي: أنه شائع، يتناقله الناس، ويشبهون به حال الثاني بالأول.

٥ ـ ويكون المثل إما شعراً، وإما نثراً، وقد امتلأت المصادر على اختلاف أنواعها بالأمثال، ومن يراجع الخطب والوصايا؛ التي أوردناها يجد بها كثيراً من الحِكَمِ والأمثالِ، ولا سيما إذا ما رجع الدارس إلى أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي؛ التي تربو على المائة، كما أوردها صاحب العقد الفريد[4].

فمن الأمثال النثرية:

* «تجشأ لقمانُ من غَيْرِ شِبَع». [5]

يُضرب مثلاً للرجل يظهر الغنى وهو فقير، والجَلَدَ وهو ضعيف وأصله في الرجل يتجشأ على جوع.

«رَجَعَ بخفَّيْ حُنَيْن». ويقال: «أَخْيَبُ مِنْ حُنَيْنٍ»[6].

---

(١) المزهر ١/٤٨٦.

(٢) مجمع الأمثال ١/٦.

(٣) العقد الفريد ٣/٣.

(٤) السابق ٣/١٣ ـ ١٦. وانظر أيضاً: جمهرة الأمثال ١/٤٩٣ ـ ٤٩٥ و٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٥) جمهرة الأمثال ١/٢٦٩ رقم ٣٧١.

(٦) جمهرة الأمثال ١/٤٣٣ رقم ٧٤١. ومجمع الأمثال ١/٢٩٦. يقال إن أصله: أن حنيناً كان إسكافاً من أهل الحيرة، فساومه أعرابي بخفين، فاختلفا حتّى أغضبه، فأراد غيظ الأعرابي، فلمّا ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر، فلما مرّ الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا =

يُضرب عند الياس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

* «ربَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ»[(١)].

يُضرب مثلاً للمخطىء يصيب أحياناً. أي: ربُّ رمية مصيبة حصلت من رام مخطىء، لا أن تكون رمية من غير رامٍ، فإن هذا لا يكون قطّ.

* «مواعيدُ عُرْقُوبٍ». ويقال: «أخلفُ من عرقوبٍ»[(٢)].

يُضرب مثلاً للذي يُخْلِف في مواعيده.

* «استنوقَ الجملُ»[(٣)].

يُضرب مثلاً للرجل الواهن الرأي، المخلِّط في كلامه.

* «اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ»[(٤)].

---

= الخفَّ بخف حنين، ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلمّا انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وقد كَمَن له حنين؛ فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلاّ الخفّان، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخفي حنين، فذهبت مثلاً.

(١) جمهرة الأمثال ٤٩١/١ رقم ٨٧٩. ومجمع الأمثال ٢٩٩/١. رقم ١٥٨١. وقصتها معروفة، حيث إن الحكم بن عبد يغوث كان أرمى أهل زمانه، وكان ابنه المُطْعِم معه ذات مرة، ويصفه بالجبن والفشل، فمرت مهاة، فرماها الحكم فأخطأها، ثم مرّت به أخرى فرماها فأخطأها، فقال: يا أبتِ أعطني القوسَ، فأعطاه فرماها فلم يخطئها، فقال أبوه هذا المثل.

(٢) جمهرة الأمثال ٤٣٣/١ رقم ٧٤٢. ومجمع الأمثال ٣١١/١ رقم ٤٠٧٠. وعرقوب أصله من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أَطْلَعَتْ هذه النخلة فلك طَلعها، فلما أطلعت، أتاه للعدةِ، فقال: دعها حتّى تصير بَلَحا، فلمّا أبلحت، قال: دعها حتى تصير زَهْواً، فلمّا زَهت، قال: دعها حتّى تصير رُطبا، فلمّا أرطبت، قال: دعها حتّى تصير تمراً، فلما أتمرت، عمد إليها عُرقوب من الليل فجدَّها، ولم يعط أخاه شيئاً، فصار مثلاً في الخُلْفِ.

(٣) جمهرة الأمثال ٥٤/١ رقم ٢٩. والمثل لطَرَفة بن العبد، وكان بحضرة بعض الملوك، والمتلمس ينشد شعراً فقال فيه:

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضارهِ ... بناجٍ عليهِ الصيعريَّةُ مُكْدَمِ

بناج: يعني جملاً. والصيعرية: سمة من سمات النوق. فقال طرفة: «استنوق الجمل» أي: صار الجمل ناقة.

(٤) جمهرة الأمثال ٤٣١/٢ رقم ١٩٦٣. والمثل لامرىء القيس قاله حين أراد الإيقاع ببني أسد لقتلهم أباه.

معناه: اليوم استرسالٌ ولهو، وغداً الجِدُّ والتشمير.

* «إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيْتَ إعْصَاراً». (١)

يُضرب مثلاً للقوي يلقى أقوى منه.

* «رَمَتْنِي بدائِها وَآنسَلَّتْ». (٢)

يُضرب مثلاً لمن يعيب على غيره بما يعاب هو فيه.

* «ذكَّرني فُوكِ حِمَاريْ أَهْلي». (٣)

يُضرب مثلاً للرجل يبصر الشيءَ فيذكر به حاجةً كان قد نسيها.

* «مَقْتَلُ الرَّجُلِ بينَ فَكَّيْهِ». (٤)

يضرب مثلاً للإنسان الذي يطلق لسانَه فيما لا ينبغي فيقتله.

* «أَصْلَحَ غيثٌ ما أفسدَ بَرَدُهْ». (٥)

يُضرب لمن يكون فاسداً ثم يصلح.

* «مَنِ آسترعى الذئبَ ظَلَم». (٦)

يضرب لمن ولّى غير الأمين.

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٣١ رقم ١٧. والإعصار: الريح الشديدة تثير الغبار. حتّى يتصعد في السماء، والجمع الأعاصير.

(٢) جمهرة الأمثال ١/٤٧٥ رقم ٨٥١. وأصله أن رُهْمَ ابنة الخزرج بن تيم الله بن رُفيدة تزوجت سعد بن مالك ابن زيد مناة على ضِرٍ، فكانت ضرائرها يرمينها بالعَفَل (مرض يصيب فرج المرأة)، فقالت لها أمها: إذا سابينك فابدئيهنّ بها، ففعلت فقيل لها ذلك.

(٣) جمهرة الأمثال ١/٤٦٣ رقم ٨٢٢. وأصل المثل أن رجلاً خرج يطلب حمارين لأهله أضلهما، فمرّ على امرأة جميلة المُنَقَب، فقعد يحادثها، ونسي حماريه لشغل قلبه بها، ثم سَفَرَت، فإذا لها أسنان مُنْكَرة، فتذكَّر بها أسنان الحمار، فانصرف عنها، وقال: «ذكَّرني فوك حماري أهلي».

(٤) جمهرة الأمثال ٢/٢٢٨ رقم ١٥٩٧. والمثل لأكثم بن صيفي.

(٥) المزهر ١/٤٨٩.

(٦) جمهرة الأمثال ٢/٢٦٥ رقم ١٦٦٠. والمثل لأكثم بن صيفي. ويقال: الذئب اسم رجل وهو ابن أخي أكثم.

ومن الأمثلة الشعرية:

وَمَنْ يصنعِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ ... يُلاقِ الذي لاَقى مُجيرَ آمِّ عامِرِ(١)
إذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فإن القولَ ما قالَتْ حَذَامِ(٢)
أَبا منْذِرٍ أَفنيتَ فاستبقِ بَعْضَنَا ... حنانيكَ بعْضُ آلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(٣)
وهَلْ يُنْبِتُ آلخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ، إلاَّ في مَنَابِتِهَا، آلنَّخْلُ(٤)

---

(١) المزهر ٤٩٤/١. وأصله أن فتياناً من العرب خرجوا للصيد فأثاروا ضبعاً فانفلتت من بين أيديهم، ودخلت خباءَ بعضِ العرب فخرج إليهم، فقال: والله لا تصلون إليها، فقد استجارت بي، فخلُّوا بينه وبينها، فلّما انصرفوا عمد إلى خبز ولبن وسمن، فثرده وقرّبه إليه، فأكلت حتّى شبعت، وتمددت في جانب الخباء، وغلب الأعرابيَّ النومُ، فلمّا استثقل وثبت عليه، فقرضت حلقَه، وبقرت بطنَه، وأكلت حشوَتَه، وخرجت تسعى، وجاء أخ للأعرابي، فلمّا نظر إليه أنشأ يقول ذلك، وتكملة المقطوعة: (من الطويل).

أعدَّ لها لما استجارت ببيته ... قِراها من ألبان اللقاح البهازِرِ
فأشبعها حتّى إذا ما تمطَّرت ... فَرَتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لِذَوي المعروفِ: هذا جزاءُ مَنْ ... يجودُ بمعروفٍ إلى غيرِ شاكرِ

(والبهازر: الناقة العظيمة).

(٢) لسان العرب (مادة حذم). وحذام: اسم امرأة، وهي بنت العتيك بن أسلم بن يَذْكُر بن عَنَزَة، ويقال: لُجيم بن صعب، وحذام امرأته. وهي جاهلية يمانية، يُضرب بها المثل في صدق الخبر. ويقال: إن البيت لزهير بن جَنَاب الكلبي، كان قديماً شريفاً. المزهر ٤٧٥/٢. ويقول الميداني: أي القول السديد المعتدُّ به ما قالته، وإلاّ فالصدقُ والكذبُ يستويان في أنَّ كلاّ منهما قولٌ. والمثل يضرب في التصديق. مجمع الأمثال ١٠٦/٢ رقم ٢٨٩٠.

(٣) جمهرة الأمثال ٦٧/١. البيت لطرفة بن العبد من قصيدة له في السجن يخاطب عمرو بن هند. الديوان، ص ٦٦. وأبو منذر: عمرو بن هند ملك الحيرة. وحنانيك: أي حناناً بعد حنان. وهذا مثل يضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت، أي أنَّ بعض الشر أهون من بعض. وقد استشهد بهذا البيت على سبيل التشبيه، وذلك أن الحارث بن عبّاد، أبا المنذر، شاعر بكر بن وائل، ورئيس بكر في حربها مع تغلب، آلى ألاّ يصالح تغلب حتّى تكلمه الأرض فلما كثرت وقائعه في تغلب ورأت تغلب أنها لا تقوم له، حفروا سرباً تحت الأرض، وأدخلوا فيه رجلاً وقالوا: إذا مرّ بك الحارث فغنّ بهذا البيت. فلمّا أتى الحارث على ذلك الرجل غنّى بذلك البيت، فقيل للحارث: برَّ قسمك، فابق بقية قومك، ففعل واصطلحت بكر وتغلب. شعراء النصرانية في الجاهلية، ص ٢٧٦.

(٤) جمهرة الأمثال ٦٧/١. البيت لزهير بن أبي سُلمى من قصيدة له في مدح الهرم بن سنان. الديوان، ص ٩٥. والخطي: الرماح نسبها إلى الخطِّ، وهي جزيرة بالبحرين تُرْفَأ إليها سفن الرماح. والوشيج: القنا. يقول: لا تنبت القناةَ إلا القناةُ. ولا تغرس النخل إلا حيث تنبت وتصلح. يعني أنهم كرام، ولا يولد=

لا تقطعنْ ذنبَ الأفعى وترسلَها　　إنْ كنتَ شَهْماً فأَتْبِعْ رَأْسَها الـذَّنَبا[1]

ومن أنصاف الأبيات وأجزائها التي تضرب مثلاً:

*شِنْشِنَةٌ أَعرِفُهـا منْ أَخْـزَمِ*[2]

يُضرب مثلاً للرجل يشبه أباه.

*كَـأَنَّـهُ علمٌ في رأَسِـهِ نـارُ*[3]

يُضرب مثلاً في الشهرة.

*مـا أَشْبَـهَ الليلةَ بـالبـارِحـهْ*[4]

---

= الكرام إلّا في موضع كريم. يُضرب مثلاً للتشابه من ذوي الرحم، أي: من ذوي القرابات.

(١) هذا البيت لأبي أذينة اللخمي يحرض الأسود بن المنذر على قتل بعض أساري غسان. ويضرب هذا المثل في التحريض على استئصال شأفة الشر. انظر: الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، للدكتورين: محمد عبد المنعم خفاجي وصلاح الدين عبد التواب، ص ٥٧.

(٢) جمهرة الأمثال ١/٥٤١ رقم ٩٩٥. والمثل لجدِّ حاتم بن عبد الله بن الحشرج بن الأخزم، وكان أخزم من أكرم الناس وأجودهم، فلما نشأ حاتم، وفعل من أفعال الكرم ما فعل قال: هي شنشنة أعرفها من أخزم. وهناك رواية أخرى في اللسان تقول: إن أخزم كان عاقاً لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدهم وضربوه وأدموه، فقال ذلك، وهذه الرواية أقرب إلى الصحة من الأولى، ويتضح ذلك من خلال تعرفنا على تكملة البيت، وهو لأبي أخزم الطائي:

إنّ بَنِيَّ زمَّلُوني بالـدَّمِ　　شِـنْشِـنَةٌ أَعـرِفُهـا مـن أَخْـزَمِ

وفي الجمهرة «ضرجوني». والشنشنة: الخليقة والطبيعة. انظر: (مادة شنن).

(٣) جمهرة الأمثال ١/١٥٥. والمثل للخنساء، وتمام البيت:

وإن صخراً لتأتمّ الهداةُ به　　كأنّه علمٌ في رأسِهِ نارُ

تأتم به: تهتدي به. والهداة: المرشدون. والعلم: الجبل. انظر: الديوان، ص ٤٩.

(٤) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٧ رقم ١٦٢٨. والمثل لطرفة بن العبد، قاله وهو في سجنه يلوم أصحابه في خذلانهم إياه:

أسلَمني قومي، ولم يغضبوا　　لِسَوأَةٍ، حلَّتْ بهم، فادِحَهْ
كلُّ خليلٍ كنتُ خاللْتُهُ　　لا تركَ اللهُ له واضحهْ
كلُّهم أروغُ من ثعلبٍ　　ما أَشبهَ الليلةَ بالبارحهْ

(لسوءة: لخلة قبيحة. وفادحة: ثقيلة. والواضحة: المال، وقيل: السن التي تظهر عند الضحك) الديوان، ص ١٥.

يُضْرَبُ مثلاً في تشابه الشيئين من غير نسب.

* إنّما يجزي الفتى ليس الجمل *[1]

يُضرب مثلاً للرجل الحر الكريم الذي يجزي على الإحسان بالإحسان، أما من هو بمنزلة الجمل في لؤمه فإنه لا يوصل إلى النفع من جهته إلا إذا قهر.

* أَوْرَدَهـا سَعْدٌ وَسَعْـدٌ مُشْتَمِـلْ *[2]

يُضرب مثلاً لإدراك الحاجة بلا تعب ولا مشقة، ويقال: يُضرب مثلاً للرجل يقصر في الأمر إيثاراً للراحة على المشقة.

## ملاحظات حول الحكم والأمثال:

١ ـ يمتاز كل منهما بالإيجاز، وقوة المعنى وندرته، وسهولة تداوله وانتشاره، وهو في الوقت ذاته أبقى من أي فن من الفنون الأدبية.

٢ ـ على الرغم من الاختلاف بين الحكمة والمثل، فإنهما صدرا من خلال خبرة، وطول تجربة، ونلاحظ ـ في أغلب الأحيان ـ أنهما اشتهرا وسارا على الألسن، وأهمل مرسلهما، ولا يعود هذا إلى شهرة القائل أو عدم شهرته؛ فالحكمة، يستشهد بها لحكمة ونفع وخُلق، يمنع من الجهل والسفه وينهى عنها[3]. أما المثل، فيضرب

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٥٧. والمثل للبيد، وتمام البيت:

وإذَا جُـــوزِيــتَ قَــرْضــاً فــاجْــزِهِ        إنمــا يَجْــزي الــفــتى لــيسَ الجــمــلْ

الديوان، ص ١٤١.

(٢) جمهرة الأمثال ١/٩٣ رقم ٧٩. والمثل لمالك بن زيد مناة بن تميم، ورأى أخاه سعداً أورد إبله، ولم يحسن القيام عليها، فقال ذلك:

أوردهــا ســعــدٌ وسعــدٌ مــشــتــمــلْ        مــا هــكــذا تُــورَد يــا ســعــدُ الإبــلْ

يعني أنه أورد إبله شريعة الماء، فشربت، واشتمل هو بكسائه ونام، فقال له: ما هكذا يكون القيام في الأمور.

(٣) الحكمة: تحاول سنّ نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك أو ما ينكرونه من أفعال =

للمماثلة بين شيئين؛ لأن ضرب المثل في المقام الحادث، يقوم على المماثلة، وتشابه المعنى، ومن هنا سار المثل، والقائل انفصل.

٣ ـ والفرق بين الحكمة والمثل واضح، فالحكمة تصدر عن إنسان حكيم ـ غالباً ـ يقصد بها توجيه المجتمع إلى الكمال، والرقيّ به إلى الأفضل، وهي غير مرتبطة بقصة أو حادثة. أما المثل فإنه قد يصدر عن عامة الناس، وأهم ما يميزه عن الحكمة، أنه مرتبط بقصة أو حادثة، ولهذا سمي مثلاً، أي: هو قول سائر يشبَّه به حال الثاني بالأول. وإذا خلا المثل من الحادثة أو المناسبة وتناقلته الألسن، وشاع بين الناس، وقبلت به الأمة، ودعا إلى الفضيلة، فإن ذلك يعتبر حكمة.

٤ ـ وسؤالنا الآن، هل يمكن أن تكون الحكمة مثلاً إذا شاعت؟ نقول: إن الحكمة هي حكمة، وإن شاعت، وتناقلها الناس، ربما تسمع البعض يطلق حكمة في موقف معين، على أنها مثل، كأن ينظر إنسانٌ إلى إنسانٍ آخر، وهو يتلفظ بكلمات قاسية أو نابية جارحة، فيقول: «كَلْمُ اللسانِ أنكأ من كلم السنان»؛ لقد ارتبطت هذه الحكمة بواقعة، ولكنها تبقى حكمة، ولا يمكن أن تكون مثلاً؛ لأن المثل حين يضرب؛ فإنه يقوم على المشابهة بين الواقعتين.

وسؤال آخر: هل يتحول المثل إلى حكمة؟ نقول أيضاً: إن المثل هو مثل، وإن تناقله البعض على أنه حكمة؛ لأنهم ربما يكونون تناقلوه على أساس أنه حكمة، ولكنه في حقيقته ليس كذلك. ويرجع ذلك إلى عدم معرفتهم بقصة المثل. «فالأمثال نوع من العلم منفرد بنفسه، لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، وبالغ في التماسه حتّى أتقنه، وليس مَنْ حَفِظَ صدراً من الغريب فقام بتفسير قصيدة، وكشف أغراض رسالةٍ أو خطبة، قادراً على أن يقوم بشرح الأمثال والإبانة عن معانيها، والإخبار عن المقاصد فيها، وإنّما يحتاج الرجل في معرفتها مع العلم بالغريب إلى الوقوف على أصولها، والإحاطة بأحاديثها، وَيَكْمُل لذلك من اجتهد في الرواية، وتقدّم في الدّراية»[1].

---

= وعادات بألفاظ حسنة جميلة شريفة غير ساقطة أو مرذولة. ولا ينطبق هذا القول على المثل، من حيث الألفاظ ـ خاصة ـ لأنها قد تكون ساقطة مرذولة خسيسة، أي: ألفاظ السِّفْلَة من الناس وسقاطهم.

(١) جمهرة الأمثال ١/٥.

وإذا أخذنا بالقول القائل: وليس بين الحكمة والمثل إلّا الشيوع وحده[1]. . . فإننا نلاحظ أن المقياس الوحيد هو الشيوع، فسندخل في تساؤلات منها: من يحدّد نسبة هذا الشيوع؟ وهل يتساوى الخاصة والعامة في هذا التحديد؟ ومن ثمَّ، كيف نميز بينهما؟

٥ ـ ليس كل ما نجده في الكتب المتخصصة بالأمثال هي أمثال، فإن فيها الحكم، وهذا ما تلاحظه في الأمثلة التي أوردناها في الحكمة، أننا قد اقتبسناها من هذه المصادر.

٦ـ قد يدخل على الحكمة والمثل نوع من التحريف والتصحيف، أو التغيير والتبديل، أو الحذف والزيادة، ولكن هذا لا ينقص من قيمتهما، إذا كان ذلك في اللفظ دون المعنى، وهذا حاصل في طبيعة البشرية، في تطورها ورقيها، كأن تقول: «لسانه أمضى من السيف» أو «اللسان أمضى من السنان» وهذا مأخوذ من الحكمة المعروفة: «كلم اللسان أنكأ من كلم السنان»، دون النظر بالطبع إلى قوة العبارة، والصياغة اللفظية.

٧ ـ وثمة ملاحظة أخيرة، وهي أن بعض الحكم والأمثال اختلطت ـ مع بعضها البعض ـ في العصرين الجاهلي والإسلامي، حتّى ليصعب ـ أحياناً ـ معرفة العصر؛ الذي ينتمي إليه المثل أو الحكمة، وبخاصة حين لم تشر المصادر إلى مرسل الحكمة أو المثل، أو المناسبة التي صدر عنها المثل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المخضرمين أو عامة الناس الصادر عنهم ذلك.

ومجمل القول: إن الحكم والأمثال تعكس أخلاق الأمة، وتفكيرها، وعقليتها، وتقاليدها، وعاداتها، وحضارتها، وتقدمها، وهي لذلك تقوم ـ غالباً ـ على الأفكار والمعاني، وتفتقر لعنصرين أساسيين من عناصر الشعر المعروفة، هما: الخيال والعاطفة.

---

(١) المزهر ١/٤٨٦.

الفصل السادس

# خصائص النثر الجاهلي

# خصائص النثر الجاهلي

من خلال ما وصل إلينا من النثر الجاهلي، في المصادر؛ التي نسبت تلك النصوص إلى أصحابها ـ إن صحّت نسبتها ـ يمكننا اعتبارها سجلاً للعرب في العصر الجاهلي، يدوّن مظاهر الحياة العربية حينذاك، فهو مرآة صادقة، تعكس البيئات بشتى أنواعها، بطريقة عفويّة غير متكلفة، لا زيف فيها ولا خداع. وتتحدث تلك النصوص بالتفصيل عن القيم الاجتماعية السائدة، وعن المثل العليا؛ التي تربّى عليها ذلك النّشء، كما أنها توضح التوجهات الفكرية، والصراعات الدائرة، وتصوّر ردود فعل الإنسان العربي تجاه التيارات الدينية والاجتماعية والسياسية المنتشرة في أرض الجزيرة العربية.

وقد مثلت النصوص النثرية الصفحة المشرقة عند العرب، فوضحت مكارم أخلاقهم، وعفتهم، وتواضعهم، وكرمهم، وإغاثتهم للصريخ، ومناصرتهم للضعيف، وحرصهم على صلة الرحم، وحفاظهم على الروابط الأسرية، وتوجيه المجتمع إلى حياة مثالية، تقوم على الحب والاحترام والإخلاص والنبل والعفة، كل ذلك لاحظناه من خلال دراستنا لتلك النصوص.

فبعد أن تفحصنا هذه النصوص، واخترنا منها مجموعة متميزة، وقمنا بدراستها وتحليلها، أمكننا أن نقسم خصائص النثر الفنية إلى: خصائص معنوية، وخصائص لفظية.

# ١ ـ الخصائص المعنوية

يمكن إجمال الخصائص المعنوية بما يلي:

١ ـ النهج الذي سارت عليه النصوص النثرية: لم يكن الخطيب في العصر الجاهلي يتنقل من موضوع إلى موضوع كما عهدنا القصائد الشعرية حينذاك، بل كان يركز على موضوعه مباشرة دون مقدمات لا علاقة لها بالموضوع المطروح، ما خلا سجع الكهان، الذين يستعرضون مقدرتهم اللغوية، ويستخدمون الألفاظ المتعلقة بعناصر البيئة والطبيعة والحياة لإقناع السامعين، والتأثير عليهم. أما ما نجده من عدم ترابط بعض الجمل، فإن ذلك بسبب كثرة الحكم والأمثال؛ التي تنهمر كالوابل الصيب، ولكنها تدور في فلك الموضوع المطروح.

٢ ـ توظيف الشعر في النصوص النثرية: لقد أثبتت هذه الظاهرة المقدرة الفنية للخطباء، وأظهرت مواهبهم الفذة، ونمّت على إحساسهم العميق بتأثير النظم، أكثر من النثر؛ لأن الخطيب يجد في نفسه عجزاً تاماً عن إيصال فكرته بالنثر، لذلك، لجأ إلى الصياغة الشعرية؛ التي تكون أكثر تعبيراً؛ لأنها هي اللغة الفنية القادرة على توصيل إحساس الشاعر حنيذاك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلا شك أن هذه القضية تعطي السامع فرصة للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، مما يساعد على جذب انتباه السامع، ويدل هذا على المقدرة الفنية التي يتمتع بها الخطيب، والمهارة البلاغية، وقوة البراعة التي يبرزها من خلال هذا التوظيف.

٣ ـ قدرة الخطيب على ارتجال خطبه، وقوة فطرته وموهبته التي تقوم على طبيعته البدائية البدوية. يقول الجاحظ في البيان والتبيين: (٣/٢٨): «وكل شيء

للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالةُ فكر ولا استعانة، وإنما يصرف وَهْمه إلى الكلام... فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً... وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون». وقد نجد بعض الخطباء يعدّ ويستعدّ، يضيف ويحذف ويبدّل، حتى يطمئن إلى خطبته؛ التي أصبحت محكّكة منقحة، تنمُّ على عمق بلاغة الخطيب وفصاحته وبيانه وحكمته، لا سيما أنه يتعامل مع فنّ ثبتت قواعده، وركزت أعمدته، ويخاطب جمهوراً عميقاً في تفكيره وإحساسه، ومحترماً لأصول هذا الفن.

٤ ـ التلميح لا التصريح: يعتمد الخطيب على استخدام التلميح لإيحائه، وقوته، وبلاغته، وملاءمته، ذلك أنه يكني بعباراته دون اللجوء إلى ذكر التفاصيل، وقد أكثر قس بن ساعدة من هذا التلميح في خطبته. كما أن الخطيب يلجأ أحياناً إلى ذكر شواهد من الماضي، لكنه لا يفصّل فيها تاركاً ذلك للعربي الذي امتاز بسرعة البديهة، وقوة الخاطرة، وعمق التفكير، والذكاء الحاد، والموهبة الفذة.

٥ ـ كثرة استخدام الحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والطريقة المنطقية، وتعمد الواقعية،والبعد عن الخيال.

٦ ـ كثرة استخدام الحكم والأمثال، حيث اتكأ عليها الخطباء بشكل أساسي، تتتابع كالسيل المنهمر، في عذوبة ورقة، وإن بدا عليها عدم الترابط، ووجود الوشائج، والصلات المتينة بينها؛ لأنّ طبيعة هذا الأدب المركز تختلف عن طبيعة الأنواع الأدبية الأخرى، حيث نجد أنها انطلقت بعد خبرة طويلة، وتجربة عميقة، حسب اتصالها بالموضوع؛ لذلك نجدها عبارة عن مجموعة من الجمل كأنَّها التوقيعات، مختلفة في موضوعاتها، مفككة في ترابطها، لكنها متصلة في أهدافها، مترابطة في مراميها، تتضافر مع بعضها لتأدية غرضها، وهو الإرشاد والنصح، وتوجيه الفرد إلى الأفضل، والمجتمع إلى الأكمل، والحياة إلى الأجمل.

٧ ـ سهولة المعاني، ووضوحها، وسلاستها، ورقتها، وعذوبتها، وعدم تعقيدها أو فلسفتها، من أهم ما يميز النثر في هذا العصر، ورغم ذلك، فإنها عميقة في مدلولاتها، شديدة في تأثيرها، استطاعت أن تخلد على مرّ العصور رغم إغراقها في

القدم، وَيُحِسُّ الإنسان إلى يومنا هذا أنها سهلة التناول، قريبة المعنى.

٨ ـ يمثل النثر الحياة العربية في العصر الجاهلي تمثيلاً صادقاً، لا كذب فيه ولا رياء، فهو يبرز الجانب الإيجابي، والوجه الحسن، والأصالة العربية التي ترتكز على مكارم الأخلاق، من: التواضع، والكرم، وصلة الرحم، والتحلي بالصبر، واحترام الحياة الزوجية، والإيمان بالقدر، ومناصرة الضعيف، وإجارة المستغيث، والعفو عند المقدرة، والترفق في كل الأمور، والاستكثار من النصح، إلى آخر ما هنالك من الأخلاق؛ التي تعتز بها الأمم، وترتكز عليها حضارة الشعوب. وهذا ما لاحظناه من خلال عرضنا للموضوعات الكثيرة في النثر.

٩ ـ بروز ظاهرة جديدة في النثر ـ في موضوع التعزية ـ لم نعهدها في الشعر ـ تلك الظاهرة؛ التي أخذ الخطباء فيها يعبرون عن: النصح والإرشاد والحكم والمواعظ، بدلاً من تعداد مناقب الفقيد، وإظهار محاسنه، والتغني بإيجابياته، والبكاء على مفارقته، ويتجلى ذلك بوضوح في تعزية أكثم بن صيفي لملك العرب في موت أخيه.

١٠ ـ استخدم بعض الخطباء السجع دون تكلّف وتعمّد، فأوردوه في سياق سهل ممتنع، تجد له ضرورة؛ حيث يحتاجه اللفظ، وتطلبه العبارة، ويفرضه الأسلوب، فالسجع قافية النثر.

أما ما وجدناه من سجع عند الكهان فهو مملول ممجوج، يثقل النص، وينفر النفس، ويفقد الخطبة التماسك، ويبعد اللفظة عن أداء معناها، فتكثر الألفاظ، وتقل المعاني. ومع ذلك، يبقى هذا النوع من السجع ضرباً من الأضرب الشائعة المتداولة عند الكهان، ولو تجاوزوه، وابتعدوا عنه، لفقدوا مميزاتهم الخاصة.

## ٢ ـ الخصائص اللفظية

لم يكتب للنصوص النثرية؛ التي وصلتنا البقاء إلا لأنها نبعت من عاطفة صادقة تفاعلت مع صفاء الذهن، ومن هنا جاءت المزاوجة بين عمق الفكر وقوة الإحساس، وقد طبعت هذه المزاوجة ألفاظ النثر، وعباراته، وجمله، بخصائص متميزة يمكن أن نجملها فيما يلي:

١ ـ إنه كامل في صياغته، تام في تراكيبه، خالٍ من الحشو، بعيدٌ عن الإطناب، عميق في مدلوله، مع تخير للألفاظ، وحياكتها بأسلوب بسيط، سهل التناول.

٢ ـ انقطاع الصلة بين الجملة والأخرى ـ ولا سيما بين الحكمة والمثل أحياناً ـ وذلك لطبيعة الموضوع المطروح؛ الذي يحتاج إلى سيل منهمر من هذه الحكم وتلك الأمثال.

٣ ـ غرابة بعض الألفاظ، لكنها كانت ـ حينذاك ـ سهلة قريبة التناول، ومع ذلك فإن للخطيب عذره حين يلجأ إلى هذه الألفاظ، حتى يترفع عن اللغة اليومية الدارجة إلى لغة فنية سامية، تُحدث في النفس متعة.

٤ ـ تمتاز هذه الخطب بقصر جملها، مع توازنها في الطول والقصر، وهي أشبه ما تكون بشطر شعري، وكذلك الأمر في الخطب والوصايا بشكل عام، فإنها قصيرة موجزة تتكون من مجموعة من الفقرات، كانت أشبه بالتوقيعات الملائمة للأماكن التي وضعت فيها.

٥ ـ يمتاز أسلوبها بأنه موجز محكم رصين مركز، لا مجال فيه للحشو

والإطناب؛ لأنه يعتمد الحكمة وضرب المثل، فجاءت العبارات ـ التي وصفناها بالتوقيعات ـ عميقة في دلالتها، قوية في معناها، متينة في مبناها، سهلة مطبوعة، واضحة غير متكلفة.

٦ ـ وما دام النثر يعتمد الحكمة والمثل؛ اللذين عرفا بالإيجاز، وقوة المعنى وندرته، كما عرفا بسهولة تداولهما، وسرعة انتشارهما، فقد توفر للنثر ما لم يتوفر لغيره، يقول بعض العلماء: تجتمع فيهما أربعة أمور لا تجتمع في غيرهما من الكلام: **إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فذلك نهاية البلاغة.**

٧ ـ قلنا: إن العرب مطبوعون لا يتكلفون، لهم قدرة على الكلام الجيد، ومقدرة على استخدام أصناف البلاغة بشتى أنواعها، دون معاناة أو مكابدة، أو كدّ قريحة، أو إعمال فكر، ولهذا كان لا بدّ من أن نجد صوراً خيالية في النصوص النثرية، تقوم على الاستعارات، والتشبيهات، والكنايات، التي تتحد مع الطباقات، والمقابلات، وحسن التقسيم، وجمال التوازن، والمزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية، وما هنالك من أساليب بلاغية أخرى، كل ذلك كان عفوياً ليس فيه تصنع ولا تكلف، مما أضفى على النثر زينة جذابة، وبهجة أخاذة، وجمالاً رائعاً، يمكن ملاحظته، وتلمسه في النصوص، التي قمنا بدراستها وتحليلها.

# المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.
- الأدب وفنونه، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٧، القاهرة ١٩٧٨.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة (د. ت).
- الاشتقاق، لابن دريد تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي، القاهرة (د. ت).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).
- الأصمعيات، الأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط٥، بيروت (د. ت).
- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيقي السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٥، القاهرة ١٩٨١.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٦، بيروت ١٩٨٤ (الدار التونسية للنشر تونس) (دار الثقافة بيروت) ط٦، بيروت ١٩٨٣.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، (الدار التونسية للنشر - تونس)، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.
- الأمالي، أبو علي القالي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

- الأوائل، أبو هلال العسكري، تحقيق د. وليد قصاب ومحمد المصري، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
- البداية والنهاية، الحافظ بن كثير، مكتبة المعارف، ط٦، بيروت١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- تاج العروس، الزبيدي.
- تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٨، القاهرة ١٩٧٧.
- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط ٢٤ (د. م) و(د. ت).
- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الفكر (د. م) ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).
- تنزيه الشريعة المرفوعة، لأبي الحسن الكناني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية ط٢، بيروت ١٤٠١/ ١٩٨٤.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة ١٣٧٣/ ١٩٥٤.
- جمهرة أشعار العرب، القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١.
- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، ط ٢، بيروت ١٤٠٨/ ١٩٨٨.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٥، القاهرة ١٩٨٢.
- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت (د. ت).

- جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة، ١٣٩١/ ١٩٧١.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٩٦٥.
- خزانة الأدب، البغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة ١٤٠٨/ ١٩٨٨.
- خزانة الأدب، لابن حجة الحموي، دار القاموس الحديث، بيروت (د. ت).
- خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، دراسة تحليلية، د. هاشم مناع، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٨٩.
- دلائل النبوة، البيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، ط٧، بيروت ١٤٠٣/ ١٩٨٣.
- ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٨٤.
- ديوانا عروة بن الورد والسموءل، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت (د. ت).
- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق كرم البستاني، دار صار، بيروت (د. ت).
- ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق وجمع د. علي أبو زيد، دار سعد الدين، ط١، دمشق ١٤١٢/ ١٩٩١.
- ديوان عنترة، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت ١٤٠٣/ ١٩٨٣.
- روائع من الأدب العربي، د. هاشم مناع، دار الوسام، ط٢، بيروت ١٤٤١/ ١٩٩١.
- رياض الصالحين، النووي، تحقيق مصطفى محمد عمارة، مكتبة الغزالي، دمشق ١٤٠٥/ ١٩٨٤.

- الزهرة، لأبي بكر محمد الأصبهاني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط٢، الأردن ١٤٠٦/ ١٩٨٥.
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، لابن نباتة المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٦/ ١٩٨٦.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٣٧٥/ ١٩٥٥.
- الشافي في العروض والقوافي، د. هاشم مناع، دار الفكر العربي ط ٢،بيروت ١٩٨٩.
- شرح ديوان أبي تمام، التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٨٣.
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، ط ٣، بيروت ١٩٨٣.
- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة ١٣٨٧/ ١٩٦٧.
- شرح ديوان الحماسة، التبريزي، تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي، دار القلم، بيروت (د. ت).
- شرح ديوان كعب بن زهير، للسكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٦٩/ ١٩٥٠.
- شرح ديوان المتنبي، البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، لأبي العباس ثعلب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ط١، بيروت ١٤٠٢/ ١٩٨٢.
- شرح ابن عقيل، محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط١٦، بيروت ١٣٩٤/ ١٩٧٤.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الأنباري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٢، القاهرة ١٩٦٩.
- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ط٤، بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

- شـرح المعلقات السبـع، الزوزني، دار الكتب العلميـة، ط١، بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط١١، القاهرة ١٣٨٣ / ١٩٦٣.
- الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت ١٤٠٣/ ١٩٨٣.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٢.
- صبح الأعشى، القلقشندي، وزراة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق. د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٤.
- طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٨.
- العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، تحقيق. د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٣.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د. محمد قرقزان، دار المعـرفة، ط١، بيروت ١٤٠٨/ ١٩٨٨.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد النـاس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط٣، بيروت ١٤٠٢/ ١٩٨٢.
- فتح الباري، لابن حجـر العسقلاني، دار إحيـاء التراث العـربي، ط٣، بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- الفن والأدب، د. ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، ط٣، بيروت ١٩٨٠.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٦، القـاهرة ١٩٧١.
- في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، دار المعارف، ط١٢، القاهرة ١٩٧٧.
- فيض القدير (شرح الجامع الصغير للسيـوطي) المناوي، دار المعـرفة، بيـروت ١٣٩١/ ١٩٧٢.

- في النقد الأدبي، د. سعد ظلام، جامعة الأزهر، ط١، القاهرة ١٣٩٥/ ١٩٧٥.
- القسطاس في علم العروض، الزمخشري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب ١٣٩٧/ ١٩٧٧.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٤٠٢/ ١٩٨٢.
- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي الجرجاني، تحقيق لجنة من المتخصصين، دار الفكر، ط١، بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٤.
- كتاب العصا، أسامة بن منقذ، تحقيق د. حسن عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٣٩٨/ ١٩٧٨.
- كشف الأستار، الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٤.
- كنز العمال، الهندي، تحقيق الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
- لسان العرب لابن منظور.
- مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت (د. ت).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت ١٤٠٢/ ١٩٨٢.
- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت (د. ت).
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد وآخرين، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦.
- المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ١٣٩٧/ ١٩٧٧.
- المصون في الأدب، الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، (ط٢) ١٤٠٢/١٩٨٢.
- المعارف، ابن قتيبة، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٨١.

- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٨/ ١٩٨٨.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢ (د.م) و (د. ت).
- معجم ما استعجم، البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، ط٣، بيروت ١٤٠٢/ ١٩٨٣.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٤٤/ ١٩٧٩.
- المعجم المفصل في اللغة والأدب، د. إميل بديع يعقوب ود. ميشال عاصي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت ١٩٨٧.
- مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة (د. ت).
- مقدمة في النقد الأدبي، د. محمد حسن عبد الله، دار البحوث العلمية، ط١، الكويت ١٣٩٥/ ١٩٧٥.
- من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف، ط١١، القاهرة ١٩٧٥.
- من كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء للقلقشندي، اختيار عبد القادر زكّار، السفر الأول، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨١.
- المؤتلف والمختلف، الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١/ ١٩٦١.
- المؤتلف والمختلف، الدارقطني، تحقيق د. موفق بن عبد الله بن عبد القدر، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت ١٤٠٦/ ١٩٨٦.
- النقد الأدبي، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، ط٥، القاهرة ١٩٨٣.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣، القاهرة ١٣٩٨/ ١٩٧٨.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، المكتبة العلمية، بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (د. ت).

## الدوريات:

مجلة كلية الدراسة الإسلامية والعربية، «حديث قس بن ساعدة الإيادي» تحقيق وشرح د. هاشم مناع، العدد الثاني ١٤١١/ ١٩٩١. (كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي - دولة الإمارات العربية المتحدة).

# الفهرس